

طه حنين

مِنْ بَعْدِ



حقوق الطبع محفوظة

# سيرة المدبر العزيم الرحيم

## مقدمة

هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها إلا أنها كتبت من بعيد . كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد في الزمان أيضا . فأكثرها كتب من باريس وبعضها كتب من أقصى الغرب الفرنسي ، وبعضها كتب من قينا وقليل جدا منها كتب في القاهرة .

وأقدم هذه الفصول عهدا كتب سنة ١٩٢٣ ، وأحدثها عهدا كتب سنة ١٩٤٠ فهي كما ترى جاءت من بعيد في المكان والزمان جميعاً .

وقد يظهر للنظرة الأولى أن بعد المكان لا يؤثر في كتابة الكاتب ولكنك إذا قرأت هذه الفصول وما يشبهها فستبين في غير شك أن النأي عن الدار والتنقل في أقطار الغربية يثيران في نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الإقامة والاستقرار . وما يهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير والتعبير ، لا تستقيم له

حين يكون مقبلا مستقرا في داره بين أهله ومواطنيه يرى في كل يوم مثل ما كان يراه من قبل لا تكاد تختلف الظروف التي تحيط به إلا اختلافا يسيرا بطيئا ، لا يكاد يحس . فليس من شك إذن في أن لبعده المكان أثرا في إعداد الكاتب للكتابة ، أثرا قويا خاصا ، غير هذا الأثر الظاهر الذي يراه الناس حين يقرءون ما يكتبه المسافر عما يرى ويشهد ، من الأقطار .

ومن أجل هذا جمعت هذه الفصول التي كتبت من بعيد في سفر واحد ، وقد يظهر للنظرة الأولى أيضا أن بعد الزمان بفصل من الفصول ، أو كتاب من الكتب لا أثر له في ذلك الفصل أو هذا الكتاب ، ولكن قليلا من التفكير أيضا يدل على أن من الخير أن نعود بين حين وحين ، إلى ما كنا نكتبه في الأعوام التي مضت ، وبعد بها العهد لترى كيف كنا نكتب ، وكيف كنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نرى الناس والأشياء . لتبين في جملة موجزة

مقدار ما أدركنا من تطور الحس والشعور والتفكير والتعبير أيضا . ولست أخفي عليك أنى قد قرأت هذه الفصول التى كتبت كلها أثناء ثمانية أعوام ومضى بينى وبين آخرها أكثر من خمسة أعوام فى شىء من الحنان إلى تلك العهود التى كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والاحياء ، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود إلينا أو لو نعود إليها لا ليعود إلينا معها الشباب بل لتعود إلينا معها حياة هى من غير شك خير من الحياة التى نحياها الآن .

كنا فى تلك العهود أحرارا نفكر ونقول ، كما نريد أن نفكر ونقول ، كنا نلقى ألوانا من المقاومة فلا تزيدنا إلا طموحا إلى الحرية وإمعانا فيها . وكنا ننظر إلى الجهاد فى سبيل الرأى وحرية الرأى على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر ، فأين نحن من هذا الآن ؟

كنا نشكو أحيانا ظلم الحكومات وجنوحها إلى الاستبداد ونصرها للجمود ، ولكننا كنا نجد الشعب دائما

مواتيا لنا يمنحنا نصره ، ووده ، وعطفه ، وتأيدده . أما  
الآن فقد اشتد عنف السلطان وأسرف في الشدة حتى  
اضطر الكتاب والخطباء إلى أن يفكروا ويقدرُوا ،  
ويطيلوا التفكير والتقدير قبل أن يكتبوا أو يقولوا . وقد  
وجد الاستبداد الرسمى المتصل لنفسه أنصارا وأعوانا من  
طبقات الشعب لم يكن ليظفر بهم من قبل . فوجدت  
أحزاب مهما تكن ضئيلة قليلة الخطر فهى أحزاب منظمة  
تناصر الجور والاستبداد وتدعو إلى التأخر والرجوع إلى  
وراء . وليس فى هذا شىء من الغرابة فقد كثر الاضطراب  
فى نظمنا السياسية وطال عهد البلاد بحكومات لم تكن تقدر  
الحق ولا العدل ولا القانون ، ولم تكن تقصر فى التماس  
الأعوان ولا الأنصار ، بألوان الترغيب والترهيب . فليس  
الغريب أن توجد الأحزاب التى تكره النظر إلى أمام  
وتحب النظر إلى وراء ، وإنما الغريب ألا توجد ، والغريب  
أيضا أن تكون من الضعف والضئالة وقلة الخطر بحيث  
هى الآن .

وكثير من الذين سيقع في أيديهم هذا السفر قد قرءوه  
حين نشر فصولا مفرقة ولكن كثيرا جدا من الذين سيقع  
في أيديهم هذا السفر لم يقرءوه ، ولم يعرفوا من فصوله  
شيئا . لأنهم كانوا أطفالا يدرجون وصية يختلفون إلى  
المدارس الابتدائية حين نشرت كثرة هذه الفصول ، ثم  
هم الآن شباب يتمون درسم الثانوى أو يأخذون في  
درسم الجامعى فمن حقهم أن يروا كيف كنا نجاهد الحياة  
حين كانوا هم يستقبلون الحياة باسمين . فالى هؤلاء القراء  
الناشئين أهدى هذه الفصول سعيدا راضيا ، لأنهم سيرون  
حين يقرءونها أنى كنت أتحدث إلى الذين سبقوهم بنفس  
الآراء التى أتحدث بها إليهم الآن ، وأنى كنت أدعو  
الذين سبقوهم إلى نفس المثل العليا التى ادعوهم إليها  
الآن . ولست أدري إلى أى حد أتيسح لى التوفيق مع الذين  
سبقوهم ولكن أرجو أن يكون توفيقى معهم أعظم وأقوى  
وأبقى أثرا .

obeikandi.com

القسم الاول

## من باريس

١

### في السفينة

تحية طيبة زكية إليك أيها القارىء الكريم من كاتب حرم التحدث  
إليك حينما . وكثيراً ما نازعته نفسه إلى هذا التحدث فلم يجد إليه سبيلاً .  
مرضت أسبوعاً ، وسافرت أسبوعاً ، فلم أستطع أن أتحدث  
إليك . و لقد كنت إلى ذلك مشوقاً . ولم تكن تنقصنى الخواطر التى  
تصلح لموضوعنا للأحاديث ، فان المرض والسفر كليهما مثلثان بهذه  
الخواطر التى تصلح لموضوعنا للمنجوى بين الكاتب وقارئة ، ولكنى  
كنت عاجزاً المعجز كله عن أن أملئ الخواطر أو أسطرها ، وأحسب  
أنى لا أزال عاجزاً عن إملاء هذه الخواطر أو تسطيرها ، لأن بعضها  
قد ذهب مع المرض والسفر ، فليست أذكر منه قليلاً ولا كثيراً .  
ولأن بعضها الآخر قد بقى فى نفسى ، ولن يذهب ولن يجد النسيان  
إليه سبيلاً ، ولكن ليس من سبيل إلى إملائه وتسطيره لأن الوفاء  
بحقه ليس بالشىء اليسير .

وكيف أستطيع مثلاً أن أفى لهؤلاء الأصدقاء الكرام البررة

الذين عادوني فأحسنوا العيادة ، وودعوني فأحسنوا التوديع ، بما أنا مدين لهم به من شكر وثناء . كيف أفى لهم بذلك وهو أجل من أن يفي به كاتب ، وأدق من أن يصل إليه واصف . ولا تظن أنني أغلو أو أسرف كما جرت بذلك عادة الكتاب إذا أرادوا شكراً أو ثناء . فإنا أبعد الناس عن الغلو ، وأشدعهم بغضاً للاسراف ، ويكفيني إذا أردت شيئاً أن أسميه باسمه ، أو أدل عليه باللفظ الذي وضع له ، ولكني كنت أريد أن أحدثك عما بعثت في نفسي عيادة العائدين ، وتوديع المودعين ، من عواطف مختلفة ، وألوان من الشعور متباينة ، تختلف باختلاف العائدين والمودعين ، وما لهم في نفسي من منزلة ، وما لي في قلوبهم من مكانة ، ففي ذلك شيء من النفع ، وفيه بنوع خاص شيء من اللذة . ولكن محاولة ذلك شاقة ، لأن هناك عواطف قد لا تجد لها أسماء ، وضروبا من الشعور قد لا تجد لها عبارات تؤدبها وتفي بما لها من حق . فليس الناس جميعاً سواء في حبهم لك ، وعطفهم عليك . وليس الناس جميعاً سواء فيما تضرر لهم من حب ، وما تدخر لهم من مودة . وإذن فتأثرك بعيادتهم وتوديعهم يختلف باختلاف منزلتك في نفوسهم ومكانتهم من قلبك . ولكن هل تستطيع أن تصف ذلك حق الوصف ؟ أم هل تستطيع أن تجهر منه بالشيء الكثير ؟ أما أنا فأعتقد أن ذلك على نفعه ولذته محال ، لأن الحياة الاجتماعية

وما تواضع الناس عليه في صلاتهم وعلاقاتهم ، تحول بيننا وبين ذلك وقابله كل الأبناء . فلا كلف إذن بما كان ينبغي أن أكتفى به منذ بدأت هذه السكامة ، وبما يكتفى الناس به من تسجيل الشكر والثناء للعائدين جميعاً والمودعين جميعاً ، دون أن أفرق بينهم في اللفظ ، وإن اضطرت واضطر غيري من الناس إلى التفرقة بينهم في نجوى النفس وحديث الضمير . ولمحتمل إذن ، راضين أو كارهين ، هذا الظلم البين الذي تضطرننا إليه حياة الاجتماع ، فليس هو أثقل ما تضطرننا إليه الحياة الاجتماعية من ضروب الظلم والتقصير . ولو أننا ذهبنا نحلل هذه الحياة وما فيها من ظلم ونجى ، ومن إفراط وتفريط ، لما انتهينا إلى حد ، ولما فرغنا من القول .

ومهما يكن من شيء ، فإن هناك شعوراً لذيذاً لا يستطيع أن يتقيه إنسان حساس . يحدث في نفسك أثناء المرض وأوقات السفر حين ترى من حولك ناساً يعطفون عليك ، ويرقون لك ، ويؤثرونك بالمودعة واللاطف . لذيذ جداً هذا الشعور الذي ينبعث في نفسك حينئذ . فيشعرك بأنك لست وحيداً في الحياة ، وبأن هناك قلوباً قد تخفق مع قلبك ، ونفوساً قد تشاركك في الألم وتشاركك في اللذة . ولست أعرف شعوراً يفوق هذا الشعور لذة وحسن موقع في النفس . والحق أن حظي من هذا الشعور عظيم ، وأن اغتباطي به واستعدائي

إياه قد رافقتني من القاهرة إلى باريس ، فحمدت مرافقتيها ، وأنست  
إنيهما في أوقات الوحشة .

نعم : في أوقات الوحشة ! فأنت إذا سافرت إلى مكان بعيد  
فعبرت البحر وقطعت الفجاج محس شيئاً من الوحشة غير قليل ، مهما  
تكن لذة السفر ، ومهما يكن اغتباطك بما ستلقى إذا استقر بك المقام ،  
ومهما يكن رفاقك في هذا السفر الطويل اللذيذ . ولقد كان يرافقتني  
في هذا السفر أحب الناس إلي ، وأعزهم علي ، وأرأفهم بي وأشدهم  
مشاركة لي في لذات الحياة وآلامها . كانت ترافقتني زوج برة كريمة ،  
وطفلان هما كل ما أمل في الحياة . ومع هذا فقد وجدت شيئاً من  
الوحشة تسليت عنه بهذا الشعور اللذيذ الذي كان يرافقتني ، بدكري  
أولئك الأصدقاء العائدين والمودعين ، بالفاظهم الخلوة ، وعباراتهم التي  
كانت تمتلي ، رفقاً ووداً وإيثاراً .

أعبرت البحر ؟ أحسست في السفينة ما أجد من ضروب  
الحس ، وما أشعر به من مختلف الشعور ؟ يتحدث الناس بأن الأمد  
بين مصر وأوربا قصير ، وبأن عبور البحر لذيذ ، وبأنه أمن لا خطر  
فيه ، أو لا يكاد يوجد فيه شيء من الخطر ، وبأن المسافر ليس عليه  
إلا أن يركب السفينة ويستسلم لما فيها من راحة ولذة وتسوية ، حتى  
ينقضي السفر ، ولا سيما إذا كان مثلي لا يخشى الدوار ولا يتعرض

لشره . بذلك يتحدث الناس ، ولعلهم محقون ، بل لا أشك في أنهم محقون . ولكنني أعترف بأنني لم أشعر بذلك ولم أحس هذا الأمن وهذه الدعة يوماً من الأيام منذ ألفت عبور البحر ، وإنما وجدت و يظهر أنني سأجد دائماً إلى جانب هذه اللذة التي يحسها من يعبر البحر شعوراً خفياً جداً . لا أقول إنه الخوف ، ولا أقول إنه يشبه الخوف ، وإنما أقول إنه يظهر للانسان على قيمته الحقيقية ، وعلى مكانته الصحيحة من هذا الوجود . نعم ليس هذا الشعور خوفاً ، وليس شيئاً يشبه الخوف ، ولكنه شيء ينبيء الانسان بأنه ضئيل ، ضئيل جداً لا يكاد يذكر ، وبأن حياته شيء أوهن من نسج العنكبوت ، لا قدرة له على الثبات ولا على مقاومة الأحداث . وإذا أحس الانسان أنه ضئيل إلى هذا الحد ، وأن أسباب حياته واهية واهنة إلى هذا الحد ، ما لك شيء من البؤس والاشفاق أحسب أن وصفه عسير .

اضطرب البحر ذات ليلة اضطراباً شديداً ، واصطخبت أمواجه وعصفت الرياح ، فكنت لا تسمع إلا هدير البحر ، وعصف الرياح ، وصوتاً لاخشب السفينة يشبه الشكوى . وكان السفر نياماً . فكنت لا تسمع صوت إنسان . وكان هذا المراج المؤتلف من هذه الأصوات الثلاثة التي ذكرتها لك وحده يملك عليك سمعك ونفسك ، ويضطرك إلى أن تحلاه وتفكر فيه ، وإلى أن تفكر في نفسك وتقيسها إلى هذا

الروع الذى يكتنفك ، والهول الذى يحيط بك . ولم يكن فى نفسى  
شئ من الخوف ولا من الاشفاق ، لأنى أعلم أن ذلك شئ مألوف ،  
وأنتك تعبر البحر كما تقطع شارعاً من الشوارع ، ومع ذلك فقد شعرت  
حقاً فى هذه الليلة بأن الانسان ليس شيئاً مذكوراً ، كما أنه لم يكن  
شيئاً مذكوراً ، وكما أنه لن يكون شيئاً مذكوراً مادامت الطبيعة على  
ما هى عليه من القوة والجلال .

فى مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجأ إليه ، ويتقرب  
إليه بضروب العبادة وفتون التقوى . وفى هذا الوقت يؤمن الملاحد  
إن كان ضعيفاً ، ويزداد عتوا إن كان ممعناً فى الاحقاد ، فيسخر من  
الحياة كما يسخر من الموت ، يهزأ بما اشتمت عليه هذه ، ويزدرى  
ما عسى أن يخفيه هذا . وأعترف بأنى فى هذا الوقت أحسست شيئاً  
قد ينكره على المؤمنون والملاحدون جميعاً ، أحسست أن إيمان المؤمن  
وإحقاد الملاحد ضرب من الكبرياء وغلو الانسان فى تقدير نفسه  
وإكبار منزلتها . فان هذا المؤمن الذى يعتقد أن خالق الكون ومدبره ،  
خالق هذا الكون العظيم الذى لا تشعر بعظمته وأنت مستقر فى دارك ،  
أولاه بالتحدث إلى رفاقك ، أو القراءة فى كتابك ، وإنما تشعر بعظمته  
حين لا تسمع إلا هدير البحر ، وعصف الريح ، وشكوى السفينة .  
وحين تشعر شعوراً واضحاً جداً بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية ،

و بأن أقل شيء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التي تقلك ، وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة من سبب فتصبح نسيا منسيا ، كأنك لم تكن قط ، وكأنك لم تعرف أحدا ، وكأن أحدا لم يعرفك . أقول إن المؤمن الذي يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة ، فيعنى به ويحوطه ويحفظه من الطوارئ ، ويعصمه من الأحداث ، ويرعاه في كل لحظة ، بل في كل جزء من أجزاء اللحظة ، متكبر يرى نفسه شيئا مذكورا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن في هذا الكون ما لا يقاس بالإنسان إليه عظمة وجلالا .

وهذا الملحد الذي يستشعر الأحاد ويتخذ مذهباً وعقيدة ، فيعاند وينازع ويدفع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه ، وينكر الله كما يثبت المؤمن ، ويعتقد أن العقل كل شيء ، وأن آثار العقل وحدها خليفة بالاجلال والاكبار ، وأن نجاة الإنسان في عبادة العلم والاذعان له ، لا في إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه . هذا الملحد الذي يعمى في الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما ، وبأنه قد سخر لنفسه الطبيعة فذل الماء والهواء والبخار ، واتخذ الطبيعة لنفسه عبداً يأمر فتطيع وينهى فتنتهى ، مغرور متكبر . لأن عقله وعلمه وقوته وذكاه مهما تبلغ من العظمة والسلطان ، فلن تستطيع أن تعصمه من الأحداث ، ولا أن تجعله بمؤمن من أقل هذه الأحداث

خطرا وأخطها مكانة . بهذا شعرت وفي هذا فكرت . وأعترف  
بأنى لم أؤمن على إيمانه ، ولا الملحد على إلحاده . وإنما أحسست  
شيئا من الشفاق على هذا وذاك . وتمنيت لو أتيح للإنسان أن  
يكون مؤمنا وعنا دون أن يغلو في التعصب للدين أو للعلم . تمنيت  
للإنسان لو استطاع أن يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما  
غنى ولا منصرف . فإن قوة الدين تعصمه من اليأس والهلوع وتفتح  
أمامه أبوابا من الأمل الذى ليس له حد ، وتمكنه أن يلقى الخطوب  
ويتجشم الأخطار راضيا مطمئنا راجيا مستبشرا . وقوة العلم تمكنه  
من الحياة . ولكن أيستطيع الإنسان حقا أن يجمع فى نفسه بين  
هاتين القوتين ، وأن يطمئن إلى كليهما مطمئنا بريئا من التناقض  
والاضطراب ، يطمئن إلى الدين دون أن يشكر العقل ويطمئن إلى  
العقل دون أن يجحد الدين ؟

يتحدثون أن كثيرا من العلماء قد وقفوا إلى هذا ، وأن  
« باستور » على جلال خطره وبعد أثره فى العلم كان أشد الناس

تدينا وأكثرهم إيمانا . ففى يكثر فى الناس أمثال « باستور » ؟  
على أن هذا الشعور وما استتبع فى نفسى من تفكير أو هذيان

لم يكن كل شيء أحسنه في السفينة فقد كانت هناك أشياء أخرى لا تخلو من نفع ، كان أكثر رفاقنا في السفينة من الإنجليز ، وكنت أجهل الإنجليز ، وما زلت أجهلهم ، ولكني كنت أتصورهم قوما أميل إلى الجد منهم إلى المزول ، وأميل إلى القلوب منهم إلى الابتهاج وأميل إلى السكون والتؤدة منهم إلى الحركة والنزق ، ولعلمهم كذلك ، ولكنهم لم يكونوا كذلك في السفينة ، فلم أرى جماعة أميل إلى الفرح وأشد تعلقا بأسبابه ولا أكثر إمعانا في الضحك وهذه اللذة البريئة من هذه الجماعات الإنجليزية التي كانت تملأ السفينة والتي كانت تقضى يومها وجزءاً من لياليها في فرح ومرح ونشاط عظيم ، وحسبك أن غرفة المائدة لم يكن يماؤها أثناء الطعام إلا قهقهة عالية جدا متصلة جدا لا تعرف الهدوء ولا الانقطاع ، تترجح فيها أصوات الرجال والنساء امتزاجا لا يخلو من لذة ولا يعجز عن أن يحملك على الضحك. وإن كنت أشد الناس جدا وأكثرهم عبوسا

شيء آخر وجدته في السفينة فأذكرني أول يوم قضيته في فرنسا بل أول ساعة قضيتها في باريس سنة ١٩١٤ ، هذا الشيء أو بعبارة أصح هذا الشخص هو حلاق السفينة ، اضطرت إلى غرفة هذا الحلاق ، واضطرت طبعاً أيضاً إلى أن أسمع لحديث هذا الحلاق ،

وأحاديث الخلاقين مشهورة من قديم الزمان وفي جميع انبيئات ،  
في بغداد والقاهرة ، في آسيا وأوروبا ، في العصر القديم والعصر  
الحديث بالثقل والسخف ، وبأنها مصدر الملل والأذى ، ولكني  
أؤكد لك أن حديث حلاق « الاسفنكس » لم يكن ثقيلًا ولا سخيفًا  
ولا مملاً ، بل أؤكد لك أن حديثه كان لذيذاً ممتعاً ، بل  
أوصيك بأن تتحدث إلى حلاق « الاسفنكس » إذا ركبت  
« الاسفنكس »

تحدث إلى حلاق « الاسفنكس » في سياسة فرنسا وفي سياسة  
فرنسا من جميع وجوهها : مع ألمانيا ومع إنجلترا ، في سوريا وفي الجزائر ،  
وقارن لي حلاق « الاسفنكس » بين المذهبين الإنجليزي والفرنسي  
في الاستعمار ، وألم لي حلاق « الاسفنكس » بطرف من سياسة  
الأحزاب البرلمانية في بلده ، وكان حلاق « الاسفنكس » اشتراكياً  
من الوجهة النظرية ، ولكنه يأس من مذهبه الاشتراكي ، فهو  
كغيره من الناس في الحياة العملية ، وأؤكد لك أنني وجدت لذة  
جديدة عظيمة في الاستماع إلى حلاق « الاسفنكس » وذكرت أول  
خادم فرنسية لقيتها في مرسيليا سنة ١٩١٤ فتحدثت إلي بما يشبه  
هذا الحديث ، وتمنيت لو كنا جميعاً في مصر كحلاق « الاسفنكس » !  
وأحسب أنا سنقطع زمناً طويلاً جداً قبل أن تصل كثرتنا المطلقة

من التعاليم والتهديب إلى حيث وصل حلاق « الاسفنكس » .  
قرأت في السفينة قصة تمثيلية صغيرة عنوانها « الملك » وضعها  
الكاتبان الفرنسيان « روبردى فير » « وكيافيه » فضحكت  
لها كثيراً وأسجبت بها كثيراً ، ودعوت بالحياة للحرية كثيراً ،  
وكنت أحب أن أحدثك عن هذه القصة ، ولكن أخلاقنا السياسية  
والاجتماعية لا تسمح بذلك . ومع هذا فليس في القصة شيء غريب  
وإنما يصف الكاتبان زيارة ملك خيالي لمدينة باريس ، ويتخذان  
هذا الوصف سبيلاً إلى تناول النظم السياسية والاجتماعية كلها بأشد  
النقد شناعة وأكثره مرارة ، يذمان نظام الملكية ، ويذمان نظام  
الجمهورية ، ويسخران من الديمقراطية كما يسخران من الأرستقراطية ،  
وكما يسخران من الاشتراكية : القصة هجاء شنيع للجماعة الانسانية  
في كل مكان وفي كل زمان ، وقد اختار الكاتبان باريس موضعاً  
لهذه القصة لأن باريس تكاد تختصر العالم الانساني على اختلاف  
أزمته وأمكنته

لا أستطيع أن أحدثك عن هذه القصة ولكني أستطيع أن  
أوصيك بقراءتها . فستجد فيها نفعاً وستجد فيها لذة . ثم وصلت  
إلى باريس ، صباح أمس ، فإذا الناس جميعاً يلهجون بشيء واحد ،  
تنطق به أفواههم ، وتكتب فيه صحفهم ، لا يلقى أحدهم الآخر

إلا سأله عنه وتحدث إليه فيه أسفاً مرة أشد الأسف ، معجباً مرة  
أخرى أشد الإعجاب ، جامعاً في أكثر الأحيان بين ذلك الأسف  
وهذا الإعجاب ، وهو موت الممثلة الفرنسية « ساره برنار »  
ولكننى قد أطلت ، فسأحدثك عن « ساره برنار » في غير  
هذا المقال

باريس في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣



## ساره برنار

تركت القاهرة يوم الأربعاء ووصلت إلى باريس يوم الثلاثاء ،  
فاذا الناس يتحدثون بموت « ساره برنار » أولا يتحدثون إلا بموت  
« ساره برنار » ، وإذا كثير منهم لا يكتفى بالحزن الصامت ،  
أو الإعجاب المقتصد . بل يتحدث ويشرح ويفصل ، ويروي  
ما سمع وما رأى ، ويصف ما أحس وما شعر به حين شهد « ساره برنار »  
تلعب في « ذات الكاميليا » أو في « النسير » أو في « المجد »  
أو في غيرها من القصص ، وربما تحدث عما رأى وسمع من أبهة  
« ساره برنار » ومجدها وافتتان الناس بها وافتتانها هي بالناس ،  
وعما كانت تكسب من مال لا يحصى فتنفقه وتستدين ، ثم تكسب  
فتؤدى الدين ثم تستدين من جديد . وعما كان بينها وبين كبار  
الناس وزعمائهم في العالمين من صلوات قوية أضعيفة ، متينة أورتة ،  
وعما قدم إليها الملوك من تجلة ، وأهدى إليها العظماء من تكرمة ، وعن  
جمالها الباهر ، وصوتها الساحر ، وأعاجيبها وألعيها وافتنانها في كل  
شيء : في الهزل والجد ، في التمثيل والتصوير والنقش والكتابة

والعبث ، وعن هذا الضعف الشديد الذى كان يلزم جسمها فيجعل حياتها فى أكثر الأحيان معلقة بين اليأس والرجاء ، أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء ، وهذه القوة المدهشة التى كانت تلازم نفسها فى كل وقت من أوقاتها ، وفى كل طور من أطوار حياتها فتجشمها الأهوال وتكلفها الأعاجيب ، وتثب بها من أوربا إلى أمريكا وإلى استراليا ثم إلى مصر ، ثم إلى فرنسا ، ثم إلى السويد والنرويج وغيرها من بلاد الله . وتقف الناس منها موقف الخائرين المدهشين الذين يعجبون ويعجبون إلى غير حد وهم لا يدرون بم يعجبون ؟ بالذكاء النادر ؟ بالجمال الباهر ؟ بالصوت الساحر ؟ بالقوة التى لا حد لها ؟ بالأمل الذى لا يخشى اليأس ولا يحسب له حسابا ؟ بالنفس التى ليس لها مثيل . . . ؟ بهذا كله كان الناس يعجبون سواء منهم من أحبها ، وسواء منهم من أبغضها . كل بها معجب ، وكل لها مكبر فى كل وقت وفى كل طور .

بهذا كله كان الناس يتحدثون يوم نعت إليهم « ساره برنار » ، ومن قبل ذلك أنبأهم الصحف بأن « ساره برنار » مشرفة على الموت فجزعوا واهلوا وأسرعت جماعاتهم المختلفة إلى بيت المريضة فازدحمت حوله وامتلاؤها الشارع ، وكان من هذه الجماعات من يتاح له الدخول إلى بيت المريضة فيسأل ويستعلم ويكتب اسمه ثم

ينصرف ، وكان من هذه الجماعات من لا يتاح له هذا الحظ فيربط  
في الشارع يتنفس الأنباء ويتصيد الأخبار ، يرى الصحفي فيسأله ،  
ويلوح الطبيب فيستنبئه ، كذلك قضى جمهور ضخم من أهل  
باريس يوم احتضار « صاره برنار » ، فلما كان الموت لم يخل الشارع  
ولا البيت من هذا الجمهور ، وإنما ازدادا به امتلاء ، وازدحاما ،  
وماهى إلا أن جهزت الميتة بجهازها الأخير حتى أذن للناس  
فأقبلوا على البيت أفواجا ، وأخذوا يمشون أمام الجثة الهامدة  
التي طالما بعثت فيهم الحياة يوما كاملا ثم تشيع الجنازة ، فتقول  
الصحف إن ٦٠٠ ألف من أهل باريس اشتركوا فيه ، وإن الفين  
من الشرطة اشتركوا في حفظ النظام ، وإن أرصفة الشوارع التي  
مرت بها الجثة كانت مكتظة بالناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم  
وأسنانهم ، وإن الزهر كان ينثر على التابوت من أولئك الذين ثقلت  
بهم سطوح الدور والحوانيت وامتلات بهم نوافذها ، ولم يكن الشعب  
وحده المحتفل بتشييع هذه الممثلة وإنما احتفلت به الجمهورية وبلدية  
باريس ، وتنافستا أيهما تقوم بنفقات الجنازة ، ولم تكن فرنسا وحدها  
المحتفلة بتشييع هذه الممثلة ، وإنما اشتركت فيه أوروبا وأمر بكوا من  
الملوك والملكات من أرسل إلى أسرة الممثلة يعزيها ويعطف عليها  
كان هذا كله في الأسبوع الماضي ، وكنت في باريس أسمع

الناس يتحدثون به. وأقرأ ما كانت الصحف وما لا تزال تكتب فيه  
فكنت أسأل نفسي إلى أي حد يبلغ إعجاب الناس بالنبوغ  
وإكبارهم للنابعين إذا كان هؤلاء الناس من الرقي العلمي والخلق  
يحيث يفهمون النبوغ والنابعين . . . . . وكنت أذكر مصر في هذا  
كله وكيف يستطيع مصري ألا يذكر مصر وأهل مصر كلما رأى  
أو سمع ما يبهره ويسحره. كنت أذكر مصر وأسأل نفسي : متى  
يتاح لمصر نابغة « كساره برنار » أو على أقل تقدير متى يبلغ أهل  
مصر من الرقي العلمي والخلق ما يمكنهم من أن يقدروا نابغة  
« كساره برنار » ؟ لم تنبغ في السياسة ، ولا في الدين ، ولا في  
العلم ، وإنما نبغت في الفن ، وفي فن هو سيء الحظ جداً عند  
المصريين ؛ نبغت في التمثيل الذي يزدر به أكثر المصريين ، ويفهمه  
قليل من المصريين على غير وجهه ، ولا يفهمه حقاً بين المصريين  
إلا نفر يكادون يحصون

لم أسمع « ساره برنار » ولم يتح لي على طول ما أقت في  
باريس أن أحضرها في ملعب من ملاعب التمثيل ، فلست أستطيع  
أن أحدثك برأيي فيها ، ولست أستطيع أن أكون لي فيها رأياً ،  
ولكني أستطيع أن أحدثك برأي الناس فيها ، و برأي الناس الذين  
لا يتهمون ولا تستطيع أنت ولا أنا أن نضع آراءهم وأحكامهم.

موضع الشك ، ولكن من « ساره برنار » ؟ لا يعرف أبوها ، وإنما يقولون إنها ولدت سنة ١٨٤٤ في باريس أو في برلين ، ولا يتفق الذين يقولون إنها ولدت في باريس على موضع ميلادها ، بل إن « ساره برنار » نفسها ذكرت لهذا الميلاد موضعين مختلفين ، وتحدثت أن تذكرة ميلادها قد مزقت أو ضاعت ، ويقول الناس إن أبها كان هولاندياً إسرائيلياً تنصر ، ويقول آخرون إن أبها كان فرنسياً عظيماً مشتغلاً بالسياسة الدولية ، ويتفقون جميعاً على أن أمها « جولى برنار » لم تكن تنتسب إلى أسرة مستقرة وإنما كانت من هؤلاء الناس الرحل الذين يتنقلون من مكان إلى مكان لا يستقرون في وطن ولا يطعمثنون إلى دار ، كانت أمها يهودية وكان أبوها مسيحياً أو يهودياً تنصر ، وكان اسمها الأول « روزين برنار » ويقال إن أبها النصرانى أو المتنصر ألح في أن تكون تربيته دينية فنشأت في الدير وتأثرت بحياته تأثراً شديداً حتى أظهرت الرغبة في أن تكون راهبة ولكنها اشتركت في تمثيل قصة دينية مدرسية فأعجب بها أحد من رآها « الدوق دى مورنى » ونصح بأن تتخصص للتمثيل ، وشملها منذ ذلك الوقت بحمايته فذهبت إلى الكونسرفتوار Conservatoire (مدرسة التمثيل) ونالت فيه إعجاب أساتذتها ولكن فوزها في المسابقة لم يكن باهراً ولا متصلاً ، ثم اتصلت

بملاعب كثيرة مختلفة فلم تنل من الفوز ما كانت ترجو ، فيئست  
أوكادت تياس من التمثيل ومن فرنسا

وليس في هذا شيء من العجب ، فأكثر النايفين عرف سوء  
الحظ قبل أن يعرف المجد ونباهة الذكر ، وربما كان من أهم  
الأسباب التي حالت بين الممثلة وبين الفوز الباهر نفس نبوغها ،  
فقد كانت لها طرائق مختلفة ومذاهب غريبة لم يألفها الجمهور ولم  
يطمن إليها ، فلم يكن غريبا ألا يشتد إعجابها بها وتهالكه عليها .  
على أن « ساره برنار » لم تكد تباع الثلاثين حتى كانت عضوا  
شريكا في أكبر دار من دور التمثيل في « بيت مولير » ، وكانت  
تلعب القصص المختلفة على تباين عصورها ومذاهبها ، وكانت تباع  
في هذه القصص فوزا عظيما في كثير من الأوقات حتى كتب إليها  
« فكتور هوجو » سنة ١٨٧٧ يقول : « لقد كنت عظيمة خلافة .  
لقد أرت في أنا المجاهد الشيخ . ولقد كان الجمهور في وقت من  
الأوقات سعيدا يملؤه الحنان فيصفق ، أما أنا فكنت أبكى »

ربما كان من الحق أن توازن بين « ساره برنار » وبين  
« السيبيا » الأتيني المشهور ، كلاهما كان فتنة المدينة التي نشأ فيها  
وكلاهما كان يحب إعجاب الناس به وتحديثهم عنه ، ويتكلف  
لذلك الأعاجيب ، ويفعل في سبيله ما لا تبيحه العادة ولا تسمح به

الأوضاع المألوفة . يقال إن « السبياد » كان له كلب فتن الأتنيين فتحدثوا عنه دهرأ ، فلما انتهى إعجابهم به كفوا عن الحديث فيه فقطع « السبياد » ذنب الكلب ليعود الأتنيون فيذكروه . وكانت أعاجيب « السبياد » ونفقاته أكثر من أن تحصى ، وكان لا يتكلف هذه النفقات وتلك الأعاجيب إلا ليفتن الناس ويحملهم على إطالة الإعجاب به والتفكير فيه ، كان سىء السيرة وكان له زوج برة شريفة جزعت لسوء سيرته فذهبت إلى « الأركون » تطلب الطلاق وبلغ ذلك « السبياد » فأسرع إلى مجلس « الأركون » فلما رأى وجهه بين يديه انهال عليها لثماً وتقبيلاً وملاطفة وحملها بين ذراعيه وعاد بها إلى بيته ، والأتنيون من حوله يصفقون له ويهتفون باسمه وامراته بين ذراعيه قد رضيت عنه واطمأنت إليه ، كذلك كان « السبياد » ، وكذلك كانت « ساره برنار » ، كانت فتنة باريس وكانت تحرص على أن تظل فتنة باريس ، فكانت تفعل كل شىء يجعلها حديثاً لأهل باريس .

كانت تملأ غرفها بالهياكل العظيمة وتنام بمنظر من الناس فى تابوت مبطن بالحرير الأبيض وتستأنس كثيراً من الحيوان الوحشى ، كانت تدهش الناس بأزيائها المختلفة الغربية ، تتخذ زى الرجال حيناً ، وبدعاً من أزياء النساء حيناً آخر ، كانت تدهش الناس

بأحاديثها ومقالاتها وصورها ، وكانت على اختلاف متصل  
عنيف مع مدير « بيت مولير » حتى كان يسميها هذا المدير  
« الأنسة ثورة » (١)

فلما كانت سنة ١٨٨٠ ضاقت « ساره برنار » بالحياة في باريس  
وأحست أن هذه المدينة لا تسعها ، بل أن فرنسا كلها لا تسعها  
فاستردت حريتها وخرجت من « بيت مولير » خروجاً عنيفاً  
وقفتها أمام القضاء الذي قضى عليها بغرامة ، وسافرت إلى لندره ثم  
إلى السويد والنرويج ثم إلى أمريكا ، وكان سفرها إلى أمريكا  
فما ضحنا أكثر حوله الضجيج والمجيج . وقال كثير من مؤرخيها  
إن كثيراً من الملكات لم تظفر بما ظفرت به هذه الممثلة من الفوز  
والأكبار في هذه السياحة . ولم تقف أسفارها إلى هذا الحد ، بل  
زارت أكثر أقطار الأرض المتحضرة وتالت فيها فوزاً باهرًا لم يكن  
مقصوراً عليها بل كان يتناول فرنسا معها ، ولقد ذهبت في بلاد المجر  
مرة فرفعت الأعلام الفرنسية في كل مكان ذهبت إليه رغم الأوامر  
التي صدرت من فيينا بحظر ذلك .

ولهذا فن الممثلون بهذه الممثلة التي كانت أحسن سفير نشر  
الدعوة الفرنسية في أقطار الأرض وأحسن تمثيل العقل الفرنسي

(١) أنظر مجلة « الأليستراسيون » ، عدد ٣١ مارس سنة ١٩٢٣

والفن الفرنسي والأدب الفرنسي ، حتى قرنها كثير من السكتاب إلى نابليون ، ولست أدري إلى أي حد تصح هذه المقارنة ، ولكني لا أشك في أن « ساره برنار » خدمت فرنسا ورفعت ذكرها إلى حد لم يبلغه كثير من قوادها الفاتحين

أما نبوغها الفني فلست أستطيع أن أحدثك عنه ، وإنما أترك ذلك للناقد الفرنسي « جول ليمتر » الذي كان بها مفتونا والذي يحدثنا بأن مصدر نبوغها واقتتان الناس بها ثلاثة أشياء : صوتها الذي سماه فكتور هوغو ومن بعده الفرنسيون جميعاً : « الصوت الذهبي » يقال إنها كانت تتغنى في تمثيلها بالثر والشعر جميعاً ، وكانت ماهرة في تصوير صوتها صوراً مختلفة مائة مائة غريبة لموضوع الحديث الذي كانت تتناوله ، فكان صوتها مرة يشبه الغدير المنساب . وأخرى يتلوى ويتهدج ، ومرة يرتفع ، وأخرى ينخفض حتى كان الجمهور معلقاً بهذا الصوت الضئيل القوي الشفاف .

الثاني حركاتها في الماعب فقد يحدثنا « جول ليمتر » بأنها أحدثت في التمثيل ما لم يحدثه أحد قبلها ، فكانت تلعب بجسمها كله أي أنها كانت تحقق ما تمثله ، فلم تكن تخيل إلى الناس أنها تلثم أو أنها تعانق . وإنما كانت تلثم وتعانق بالفعل ، وكانت تفعل ما هو أبلغ في الدهشة من اللثم والمعانقة .

الثالث ذكؤها ، فقد كانت أقدر الممثلين على فهم الفصول التي كانت تلعبها ، كانت تفهم هذه الفصول كما فهمها المؤلف ، وربما فهمتها خيراً مما فهمها المؤلف ، ومن هنا خلقت « ساره برنار » كثيراً من القصص ، وكثيراً من المؤلفين ، ولن يستطيع « فرنسوا كوبيه » ولا « ادمون روستان » أن يستأثرا بما أدركا من فوز في ملاعب التمثيل وإنما « لسار برنار » الحظ الموفور من هذا الفوز

وانظر إلى هذا الوصف الذي نشرته « الأستراسيون » وكتبه

« ادمون روستان » فهو وحده يعطيك منها صورة خليقة بها :

« تقف عربة أمام باب ، فتسرع بالنزول منها امرأة قد التفت

في الفرو الكثير ، تشق الجماعات التي اجتمعت حين سمعت جرس

عربتها تاركة لهذه الجماعات إحدى بساطتها ثم تصعد في خفة سلماتها

ملتوية ، وتغير على « لوج » مزدهر شديد الدفء ، فتأق في ناحية

حقيبتها ذات الشرائط التي تحتوى على كل شيء ، وفي ناحية أخرى

قلنسوتها ، تزينها أجنحة العصافير ، وإذا هي قد انحفت فجأة حين خرجت

من فروها فما هي إلا غمد من الحرير الأبيض ، ثم تقذف بنفسها

على ملعب مظلم ، فلا تكاد تصل حتى تبعث الحياة في جماعة ممتعة

تتأهب في الظلام ، تذهب ، تجيء ، تبعث الحمية في كل ما تمس ،

تأخذ مجاسها في الحجاب ، تنظم المنظر ، تشير إلى ما ينبغي من الحركات

ونبرات الصوت ، تقف ، تطلب ، الاعادة ، تزار غضبا ، تجلس ،  
تبسم ، تشرب الشاي ، تبدأ هي في الاعادة ، فتملاً بالدمع أعين  
شيوخ الممثلين ، قد أطلت رءوسهم من جوانب الملعب ، ثم تعود  
إلى « لوجها » حيث ينتظرها المهيئون فتاغى بالمتقص ما هيثوا ليستأنفوا  
تهيئته ، ثم هي متعبة تمسح جبينها ، توشك أن يغى عايتها ، تثب  
فجأة إلى الطبقة الخامسة من الملعب وتظهر لصاحب الأزياء مضطربة ،  
وتبحث في خزائن « الأقمشة » وتؤلف الأزياء ، تنظم ، ترتب ، تهبط إلى  
« لوجها » لتعلم النساء اللاتي يظهرن في الملعب كيف ينبغي أن  
يرجلن شعورهن ، ثم تعيد منسقة طاقات الزهر ، ثم تسمع مائة رسالة  
وترق لبعض الاستعطافات تفتح غالبا حقيبتها الرنانة التي تحوى  
من كل شيء ، تفاوض حلاقا إنجليزيا ، تعود إلى المسرح لتنظم  
إضاءة منظر من المناظر ، تسب أدوات الاضاءة ، تقف عامل الضوء  
على إساءته ، يمر بها أحد العمال فتذكر غاظة اقترفها أمس فتصعقه  
بسخطها ، تعود إلى لوجها لتتعشى . تجلس إلى المائدة ممتعة في  
جلال مهيبه ما ستعمل ، تأكل في ضحك غريب ، ليس لديها  
الوقت لتتم عشاءها ، تلبس ثيابها للتمثيل بينما يتحدثها المدير من وراء  
ستار أنواناً من الأحاديث ، تمثل مهالكه ، تدبر ألف شيء بين  
الفصول ، ينتهى التمثيل فتبقى في الملعب لتدبر أمرها إلى الساعة الثالثة

صباحاً ، ولا تعزم السفر إلا حين ترى الناس جميعاً من حولها  
ينامون وقوفاً احتراماً لها ، تصعد إلى عربتها ، تمطى في فروها  
مفكرة فيما ستجد من لذة حين تستلقي في السرير ، ثم تفهقه لأنها  
ذكرت أن هناك من ينتظرها في البيت ليقرأ عليها قصة ذات خمسة  
فصول ، تعود إلى البيت : تسمع القصة ، تفنن بها ، تبكي ، تقبلها ،  
لا تستطيع النوم ، فتنهز الفرصة لتدرس دوراً من أدوار التمثيل... »  
كذلك وصفها « ادمون رويستان ، أما أنا فليست أدري أعجب  
بالواصف أم بالموصوف؟! ولكني أعتقد أني بهذه الترجمة السقيمة قد  
أعطيتك أحسن صورة لهذه الممثلة النابغة ، ولست أريد أن أختم أنا  
هذا المقال ، وإنما أريد أن يختمه « جول ليمر » بهذه الكلمة الحلوة  
التي كتبها يودع بها « ساره برنار » وقد اعترمت أحد أسفارها  
إلى أمريكا

« تمنى لك ياسيدتي سفرًا سعيداً ، آسفين أشد الأسف لأنك  
ستغارقيننا زمناً طويلاً ، ستظهرين نفسك هناك لقوم حظهم من الفن  
والأدب قليل ، يسبون فهمك وينظرون إليك كما ينظرون إلى  
عجل ذي قوائم خمس ، ويرون فيك الشخص الغريب الصاخب  
لا الفئانة الخلابة إلى غير حد . قوم لن يقدرُوا نبوغك إلا لأنهم

دفعوا ثمنًا باهظًا ليستمعوا اليك ، اجتهدى فى أن تحتفظى بظرفك  
وأن تعيديه إلينا كاملاً ، فانى آمل أن تعودى وإن كانت أمريكا  
بعيدة الشقة ، وإن كنت قد تحملت من الخطوب وتحشمت من  
الأخطار ما لم تتحمل ولم تتجشم أبطال الأساطير ، إذن عودى إلى  
« بيت مولير » واستريحى إلى الاعجاب والحب اللذين يدخرهما  
لك هذا الشعب الباريسى طيب القلب الذى يعفو لك عن كل شيء  
لأنه مدين لك بكثير من لذاته الكبرى ، ثم فى مساء لزيد موتى  
فجأة على مسرح التمثيل فى صبيحة هائلة من صيحات الجزع فان  
الشيخوخة أثقل من أن تحتلمها ، وإذا كان لديك من الوقت  
ما يمكنك من التفكير قبل أن تنغمسى فى الليل الأبدى فأحمدى كما  
يفعل مسيو « رينان » العلة الأولى الخفية ، لعلك لم تكونى من  
أشد النساء فى هذا العصر حكمة واعتدالا ، ولكنك عشت أكثر  
مما عشت أجماعات ضخمة وكنت من أجمل مظاهر الظرف التى  
أطافت بالناس فأحسنت عزاءهم فى هذا العالم المتغير ، عالم الظواهر  
الطبيعية . . . . .

باريس فى أول إبريل سنة ١٩٢٣

## ٣

### بينباوب

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم  
ولكنه لم يكن طيف هند ولا عبده ، لم يكن طيف عربية  
ولا مصرية ولا أوربية ، وإنما كان طيف امرأة بقي اسمها في ذاكرة  
الإنسانية ، وذهبت بشخصيتها الغير والاحداث ، ولعلها لم توجد قط ،  
ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيرا ، ومع ذلك فقد  
قضيت الليل أفكر فيها بل أسمع الى حديثها ومناجاتها ، هادئة مرة  
ثائرة مرة أخرى ، يملؤها الحنان حيناً ، وتماكبها الوحشية حيناً آخر ،  
قضيت الليل أفكر فيها وأسمع لاحاديثها ونجواها حين كانت تتحدث  
إلى خدمها ، وحين كانت تتحدث الى عشاقها ، وحين كانت تتحدث  
الى مرضع زوجها ، وحين كانت تناجي الآلهة متلطفة آنا ومحقة آنا  
آخر ، ثم حين كانت تناجي خيال زوجها الغائب وتتحدث الى  
زوجها وقد آب بعد غياب طويل . قضيت الليل أفكر فيها واستمع  
لحديثها ، وأعجب بقدرة الفن - لا أقول على إحياء من مات وتجديد

ما اندثر — بل على خلق ما لم يوجد والتخييل إليك أنه قد وجد  
وأثر في الحياة آثارا أبقى من أن ينالها الفناء ، لم يكن هذا الطيف  
طيف عربية ولا مصرية ولا أوروبية ، وإنما كان طيف يونانية ،  
كان طيف « بينيلوب » زوج « أوليس » ( Ulysse ) بطل  
« الأودسا »

سمعتها أمس في دار من دور الموسيقى ، « في الأوبرا كوميك »  
( Opéra - Comique ) تتغنى عشقا ولوعتها وحزنها لبعده من أحبت  
وجزءها لقرب من كرهت ، ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولا عواطفها  
طوال الليل وجزءاً غير قليل من النهار

لست أدري أقرأت « الأودسا » أم لم تقرأ ، وأنا أسمح لنفسي  
بهذا الشك لاني أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليوناني سيء الحظ  
في مصر ، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة الى حيث لا نستطيع تقديره  
أو تقدير عواقبه السيئة ، نجهل الأدب اليوناني — لا أقول جهلا  
تماما — بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لا يابق بقوم يحبون الحياة أو  
يطمعون فيها ، نجهل هذا الادب جهلا فاحشا بحيث نستطيع أن نحصى  
المصريين الذين يعلمون ما « الأودسا » وما « الإلياذة » ومن  
« أوليس » ومن « بينيلوب » ، ومع ذلك فقد كانت « الأودسا »  
« والإلياذة » وما زالتا وستظلان دائما ينبوع الحياة للأدب والفن :

للشعر والنثر والنحت والتصوير والتثيل والموسيقى ، بليت القرون ولم  
تبل « الالياذة » « والادسا » فنيت الأمة اليونانية وفنيت الأمة  
الرومانية واختلفت العصور والظروف على أوروبا ، في العصر المتوسط  
وفي العصر الحديث ، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف ، وتظل  
آيات « الالياذة » « والادسا » جديدة خالدة محتفظة بقوتها وببهاؤها  
وروتها على وجه الدهر وتعاقب الاحداث ، ولا نكاد نحن نفترض  
وجود « الالياذة » « والادسا » فاذا افترضنا وجودهما فلا نكاد  
نعلم بشيء مما فيهما .

إلى هذا الحد وصلنا من الجهل بمصدر الحياة للأدب والفن ،  
ويظهر أنا إذا لم نستطع أن نمعن النظر في هذا الجهل أكثر مما معنا  
فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه ، أقول اذا  
لم نستطع أن نمعن في هذا الجهل أكثر مما معنا فيظهر أنا لا نريد  
ولا نحاول أن نخلص منه قليلاً أو كثيراً ، يظهر أنا سنظل على  
ما نحن فيه من جهل الأدب اليوناني والفن اليوناني ، لانا نرى كل  
شيء يتغير في مصر ، ونرى الرقى تناول كل شيء إلا التعليم ، فهو  
بحمد الله باق حيث كان ، لأن المشرفين عليه لا يفكرون في تغييره ،  
ولعلمهم غير قادرين على أن يفكروا في تغييره ، سـ يظل تلاميذنا  
يخلطون بين أتينا وصقلية كما يخلطون بين الاسكندر وهانيبال

ولكنى بعدت عن هذا الطيف الذى أرقى له آخر الليل بعد  
أن طربت له أول الليل . . . قلت إن « الأودسا » و « الالياذة »  
كاتبان ومستظلمان ينبوعاً للحياة الأدبية والفنية ، فقد ألهمتا شعراء  
اليونان على اختلاف فنونهم وأساليبهم ، وألهمتا الفنانين من اليونان  
بل ألهمتا فلاسفة اليونان وكذلك صدر عنهما شعراء الرومان ،  
وكذلك صدر عنهما وما يزال يصدر عنهما شعراء الأفرنج منذ القرن  
السابع عشر إلى ما شاء الله . ولقد كانت القصة الموسيقية التى  
شهدتها أمس أثراً من آثار « الأودسا » اجتمع فيه جمال الشعر  
وجمال الموسيقى وجمال الغناء وجمال الفن الآلى فى التمثيل ، فكنت  
تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها  
وإختلاف نغمها الذى كان يرق حتى لا يكاد يسمع وكان يغلظ  
حتى يكاد يعم السامعين ، وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين  
تسمع هذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تازج نغم الموسيقى  
متغنية بهذا الشعر الجميل الرقيق الذى يمثل أرق العواطف الانسانية  
وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص ، وكنت تجد لذة  
لا تعدلها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر إلى مسرح التمثيل فترى  
هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها « الأودسا » فى جمالها القديم  
الرائع الذى يزيد بهجة وسحرأما اتخذ الممثلون من أزياء وما اصطنعوا

من انية ومتاع . كنت تجد لذة لا تعد لها لذة حين كنت تسمع  
ما تسمع وترى ما ترى ، ولم يكن ينقص عليك هذه اللذة إلا أنها  
كغيرها من جميع لذات الحياة قصيرة محدودة المدى لن تتجاوز  
ساعة أو ساعتين . ذلك فيما أعتقد أخص ما يمتاز به اللذة الحقيقية  
التي تملك عليك نفسك وعواطفك وتسحرك السحر كله .

تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر - حين تشعر بها - بشيء من الحزن  
يصاحبها ، لأنها ستنتفضى بعد حين طويل أو قصير ، وأنت تحب  
ألا تنتفضى وأنت تود لو كانت خالدة ، أو لو انقضت بانقضائها الحياة .

اشترك في هذه القصة الموسيقى الفرنسي « جبرئيل فورييه »

Gabriel Faure) والشاعر الفرنسي « رينيه فوشو » Renée

Fauchos ومثبات منذ عشرين فاعجب بها الجمهور ، وابتهج لها

الناقدون ، ولكنهم لم يجرؤوا على أن يحكموا لها أو عليها ، ذلك لأن

فيها شيئاً من الغرابة كثيراً . فهي لا تمثل الحياة في عصر نفهمه فهماً

يسيراً سهلاً . وإنما تمثل الحياة في عصر بعيد منا كل البعد ، بل لعل

هذا العصر لم يعرفه التاريخ . وإذن فليس من اليسير أن يصدق

تمثيلها للحياة وليس من اليسير أن نحسها نحن كما نحس الحياة التي

نحياها بحيث تتأثر لها نفوسنا ، ونحتاج لها عواطفنا ، فتبعث فينا

ضروب الاحساس والشعور التي تبعثها فينا الحياة الواقعة

تردد الناس في الحكم لهذه القصة أو عليها ، ولكن كانت الحرب العظمى فهزت النفوس والعواطف ، وسهلت على الناس فهم هذا الشعر القصصى القديم الذى مثل ما أصاب الانسان من محن فاحسن تمثيله ، وصور ما اختلف على حياة الأفراد والجماعات من أحداث فأجاد التصوير . فلما استؤنف تمثيل هذه القصة لم يتردد أحد ، ولم يشك إنسان ، وإنما ظهر الإعجاب صريحاً قوياً لا يعدله إعجاب ، فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية ، وكان يكفى أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا .

عزيز على أن أجهل الموسيقى ، وأن يضطرنى هذا الجهل إلى ألا أتحدث إليك بجمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية . ولكنى إذا جهلت الموسيقى وعجزت عن الحديث فيها ، فأنى أحسها وأشعر بها وأستطيع أن أعلم أنى سمعت شيئاً طربت له ، أو سمعت شيئاً نفرت منه ، وأشهد أنى لم أنفر أمس بل أنى لم أطرب أمس وإنما سحرت سحراً ليس فوقه سحر . . . . . أشهد أنى لم أكن أشك حين كنت أسمع هذه الموسيقى أنى فى جزيرة « إيتاك » وأنى بمحضر من أولئك الابطال القدماء ، بل أشهد أنى حين كنت أسمع هذه الموسيقى لم أكن فى حاجة شديدة إلى أن يصف لى واصف ما يمثله المنظر من

هذه الجزيرة المشرفة على البحر التي يغمرها هواء رقيق ناعم شفاف ،  
والتي تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط إلى البحر متدرجة قليلا  
قليلا ، نعم لم أكن في حاجة شديدة إلى أن يوصف لي المنظر ، لأن  
الموسيقى كانت تغني عن هذا الوصف ، فكنت أحس في الموسيقى  
القرب من البحر ، وكنت أسمع في الموسيقى أمواج البحر تضطرب  
وتضطرب رقيقة حيناً كأنها حديث العاشقين ، غليظة حيناً آخر  
كأنها قصف الرعد ، وكنت أجد في الموسيقى رقة الهواء ونعومته ،  
وكنت أسمع هذه الموسيقى فلا أشك في أن الجو كان صافياً رائعاً  
أو أنه كان كدرأً يهيباً للعاصفة ، كنت لا أشك في شيء من هذا ،  
وكنت لا أشك في شيء آخر هو أجل من هذا خطراً وأعظم شأنًا ،  
كنت لا أشك في أن هذه القطعة الموسيقية تمثل ما يحدث في نفسى  
الآن من اضطراب العواطف واصطخابها وما يقع بينها من تنازع  
ومشادة ، وكنت لا أشك في أن هذه القطعة الأخرى تمثل الضعف  
الذي ليس بعده ضعف ، تمثل هذا الضعف الذي يسلبك كل قوة  
على المقاومة ويجعلك غير قادر إلا على أن تفتح جفنيك لتسقط منها  
قطرات الدمع متتابعة منهمة ! وكنت لا أشك في أن هذه القطعة  
الأخرى تمثل الغيظ والحنق ، هذا الغيظ الذي تنقبض له أعصابك ،  
فاذا جبينك مقطب ، وإذا الدم يغلي في رأسك ، وإذا أنت قد أطبقت

يديك ، وإذا أنت تقاوم هذا الميل الشديد الذي يدفعك إلى أن تثب  
وتتهجم على فريستك ، لم أكن أشك في شيء من هذا لأنني كنت  
أحسه وأنتقل فيه من طور إلى طور ، بل هناك ما هو خير من هذا ،  
هناك هذه القطع الموسيقية التي تبعث في نفسك شيئاً من الخنان  
والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا أستطيع أن أصفه ، ولا يستطيع  
إنسان أن يصفه لأن وصفه لم يتح للعجل والألفاظ ، وإنما أتبع  
للأنغام والألحان وحدها ، ولكني عاجز كما قلت عن أن أصف  
جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية .

أقتريد أن أصف جمالها من الوجهة الأدبية ؟ لقد كنت أحب  
ذلك وأرغب فيه ، ولكن أليس خيراً من هذا الوصف الذي لا يمكن  
إلا أن يكون موجزاً مختصراً أن ترجع إلى هذا الجمال في أصله ، وأن  
تستقيه من ينبوعه ، فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من « الأودسا »  
تجد في هذا النشيد قصر الملك « أوليس » قد غاب عنه صاحبه منذ  
عشر سنين لأنه ذهب إلى « ترواده » وانتصر فيها ، فلما أراد العودة  
إلى بلده عبت به وبأسطوره « يوزيدون » اله البحر فأضله الطريق ،  
وأخضعه لطائفة من الحن ، وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث  
« يوزيدون » وغيره من الآلهة ، كانت الملكة « بينيوب » تنتظر  
زوجها في لوعة وحسرة ، وفي حب ، وفاء ، وكانت طائفة من زعماء

البيوتان قد احتلت قصر الملك وأخذت تعبث بما فيه ومن فيه فتأكل  
شاء الملك وثيرته ، كما تقول القصة ، وتشرب خمره ، وتعبث برقيقه  
وتلح على الملكة في أن تختار من بينها رجلاً يكون لها زوجاً فيخلف  
« أوليس » على ملك « إيتاك »

كانت هذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم ، فلما أعبتها  
المقاومة أخذت تراوغ فأعلنت إلى هؤلاء الزعماء أنها ستختار من  
بينهم زوجاً إذا فرغت من نسج كفن ، أخذت نفسها بنسجه لابي  
زوجها ، وقبل الزعماء منها ذلك ، فأخذت تنسج الكفن يوماً حتى إذا  
كان الليل نقضت ما أبرمت ثم تستأنف النسج إذا أصبحت ، والنقض  
إذا أمست ، والزعماء ينتظرون ويعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهر خادمت القصر يغزلن  
ويتحدثن فيما بينهن ، وحديثهن لذيذ ، فهن يتغنين ما هن فيه من ألم  
وحرمان ، وهن يتغزلن بحمال الزعماء وترغب كل واحدة منهن في  
واحد منهم ، وهن يرثن للملكة وينكرن عليها غلوها في الوفاء ،  
وإنهن لفي ذلك إذ يقبل الزعماء يريدون أن يتحدثوا إلى الملكة ،  
وتأبى الخادمت إنباء الملكة بمكاتبهم ، لأنهن لا يستطعن أن يدخلن  
عليها إلا إذا دعين ، وبينما الزعماء في حوار مع الخادمت تقبل مرضع  
الملك فمناعمهم ، ويكون بينها وبينهم حوار ومسابة ، ثم تقبل الملكة

فيشتد الخلاف بينها وبين الزعماء ، تهيبهم وتنعى عليهم وهم يتملقونها ويتلطفون بها ، تمنعهم وتأتي عليهم ما يريدون وهم ياحنون عليها في أن تسرع فتختار من بينهم زوجاً ، ثم يقدم شيخ رث فان يطلب الصدقة والمأوى ، فيبذره الزعماء وتؤويه الملكة ، وهذا الشيخ هو « أوليس » قد وصل إلى جزيرته وأمرته الالهة « أتينا » أن يتنكر ويحتال في طرد الغاصبين والانتقام منهم ، لا تعرفه الملكة ولاكن المرضع تعرفه وتعاهده على أن تخفي أمره ، ينصرف الزعماء وينصرف الشيخ إلى طعامه ، وتبقى الملكة وحدها فتنقض مانسجت ، ولاكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيثها فيغيظهم ذلك و يعلنون إلى الملكة أن الغد ان ينقضى حتى تكون قد اختارت لها زوجا ، ثم ينصرفون وتخرج الملكة ومرضع الملك ، لتذهب إلى شاطئ البحر كما اعتادتا منذ سنين تترقبان سفينة ما لعلها تقبل وعلى ظهرها الملك ويتبعها الشيخ . فاذا كان الفصل الثاني رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ، ويتمنى بعضهم لبعض ليلا سعيداً ، ويتغنون جمال الطبيعة وسحرها ، ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها وبين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضر الزوجان من حب ووفاء ، ومن لهفة ولوعة ، ولكن الملك يخفي نفسه ، فاذا سئل عن أمره أخبر بغير الحق واتخذ هذا الأخبار وسيلة إلى التعزل بزوجه من طرف خفي ، ولكن في جمال

ورقة وحسن مدخل ، ثم تجزع الملكة إشفاقاً من غد فيقترح عليها الشيخ أن تعلن إلى الزعماء أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » ، ثم تنصرف الملكة وتعرف الملك بعد ذلك إلى رعايته ويأمرهم أن يكونوا في القصر غداً وأن يتخذوا السلاح ليعينوه على الانتقام ، فإذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام ، ثم يكون بينه وبين مرضعه ورعايته أحاديث قصيرة ثم يقبل الزعماء وقد تهيؤوا للقصف واللبو ، فيسخرّون من الشيخ ويريدون طرده ، ثم يبدو لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون منه ، ويظهر الشيخ أنه سكران ، وتقبل الملكة فتعلن اليهم أن من شد قوس « أوليس » ورمى عنها فهو زوجها ، فيعجزون جميعاً ويتقدم الشيخ الفاني إلى القوس فيشدها ويرمى عنها ولكن في صدر أحد الزعماء ، هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته ومملكه ، يعينه الرعاة على هذا ، ثم تنتهي القصة بتظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة أخرى

فأنت ترى أن ليس في القصة شيء غريب وأنها من السداجة والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح أيام أنشئت « الالباذة » و « الأودسا » ولكني أضمن لك لذة عظيمة إذا قرأت

هذه القصة ، ولده لا حد لها إذا قرأتها في « الاودسا » فأما إذا  
شهدت القصة الموسيقية في « الاوبرا كوميك » فليست أدري ماذا  
أضمن لك ، وإنما أحدثك صادقاً بأنى قضيت ليلة سعيدة كنت  
أحسبني أثناءها في عالم آخر ، ولم أتنبه إلى أنى في الأرض إلا حين  
سمعت ابنتى تغنى وتصيح ورأيت ابنى يعبث بما حوله وسمعت أمه  
تزجره وتنهاه

باريس في ٤ مايو سنة ١٩٢٣



## شك و يقين

قوم يشكون فيغلون في الشك ، وقوم يوقنون فيسرفون في اليقين ،  
وأولئك وهؤلاء معرضون للخطأ الشديد ، ومخاصمون للعلم الصحيح ،  
الشاكون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون أنفسهم وينكرون  
العلم ، والموقنون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون التطور الذي  
هو قوام الحياة ، ولكن أولئك وهؤلاء معذورون لأنهم لا يختارون  
الشك ولا يختارون اليقين ، وأحسب أنهم إنما يشكون أو يوقنون  
لان أمرجتهم قد ألفت بحيث تستتبع الشك أو اليقين ، بل أحسب  
أن لما نأكل وما نشرب وما نحس ، بل وللهواء الذي نتنسه ، والجو  
الذي نعيش فيه ، والكتاب الذي نقرؤه ، والخطبة التي نسمعها ،  
أثرا فيما يعرض لنا من شك أو يقين .

زعم بعض الكتاب أن أبا العلاء إنما شك لانه أسرف في  
أكل العدس والزيت ، فساء هضمه ، وتبع ذلك سوء رأيه في الحياة ،  
قد يكون هذا حقا ، وقد يكون هذا باطلا ، ولكني لا أشك في أننا

مدينون بأطوارنا العقاية لهذه المؤثرات الكثيرة المختلفة التي تكتنفنا  
سواء منها المادى والمعنوى

حدثت في مقال مضى بهذه المحاورة التي شهدتها في المؤتمر  
حول وجود سقراط والشك فيه ، ولقد قرأت اليوم شيئاً أغرب وأدعى  
الى العجب من الشك في سقراط  
قرأت أن هناك عالماً فرنسياً من علماء الفلك المعروفين قد كتب  
في هذه الايام الاخيرة كتاباً سماه « مملكة السموات » وفي هذا الكتاب  
الذي يقال إنه ممتع جداً فصل يبحث فيه المؤلف عن حركة الارض ،  
ويثبت فيه أن من المستحيل أن تثبت بطريقة علمية قاطعة أن  
الارض تدور . . . اذن فنحن لا ندرى من شأن الارض شيئاً ،  
أدائرة هي أم ساكنة ، وكل هذه الادلة الكثيرة المختلفة التي  
جمعها العلماء منذ حوكم « جاليله ( Galilée ) الى الآن ليثبتوا بها  
أن الارض تدور ، كل هذه الادلة فاسدة أو غير منتجة ، بل  
يذهب الاستاذ « نورمان » ( Nordmann ) صاحب الكتاب  
المذكور ، الى أبعد من هذا جداً ، فيزعم أن دوران الارض شيء  
ليس الى إثباته أو نفيه من سبيل ، وإذن فقد قضى علينا أن  
صحت آراء الاستاذ « نورمان » أن نجهل أبداً شأن الارض  
فلا نعلم أساكنة هي أم دائرة ، سنقول وأى شيء يصيبنا إن علمنا

بأن الأرض دائرة أو ساكنة أو جهلنا دورانها وسكونها؟ ربما لم  
يصبنا شيء، فسناً كل ونشرب وننام ونستمع باللذات ونتجرع  
مرارة الآلام سواء أكانت الأرض ساكنة أم دائرة، ولكن ماذا  
تقول في أولئك العلماء الذين يبحثون عن العلم للعلم، لا تعنيهم نتائج  
العملية والذين يموت أحدهم غمًا إذا ظهر خطؤه في رأى من الآراء  
أو نظرية من النظريات .

كنت أقرأ في أعداد « السياسة » الأخيرة محاضرة صاحب  
الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد نجيت في الرد على « رينان » ،  
فرايته يبذل كل ما يستطيع من قوة وجهد وينفق علمه الواسع العميق  
ليثبت أن الاسلام دين العلم ، بل ليثبت شيئاً آخر غير هذا وهو أن  
القرآن الكريم لا يناقض بلفظه ولا بمعناه أصلاً من أصول العلم  
الحديث ، بل هو فوق هذا يشتمل على أصول العلم الحديث ، ورأيت  
الاستاذ يستنبط من القرآن الكريم كروية الارض وحركتها حول  
الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار  
فأعجبت بهذا الجهد العنيف الذى لامصدر له إلا البر والتقوى .  
ومن قبل ذلك قرأت أشياء كثيرة للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده  
رحمه الله حاول فيه مثل ما حاول الاستاذ الشيخ محمد نجيت . والناس  
( ٤ )

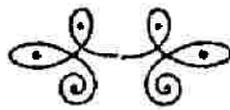
في مصر وفي الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولة ، لأنها تظهرهم في منزلة  
من الحضارة ليست أقل ولا أدنى من منزلة الأوربيين الذين  
اخترعوا العلم الحديث . وإن كنت أنا لا أحب هذه المحاولة ولا  
أبتكفها وربما كرهتها ونفرت منها ، لأنها تفسد النصوص وتحمل على  
التلوي في التأويل . كنت إذن أقرأ محاضرة الأستاذ الشيخ نجيت  
وأعجب بها ، فلما قرأت ما قرأت اليوم تحدثت إلى نفسي بما يأتي ،  
لو صح ما ذهب إليه الأستاذ « نورمان » وأقره العلماء وأصبح  
الاجماع منعقداً على أن الأرض لا تدور كما كان منعقداً على ذلك  
منذ قرون وحين أنزل القرآن الكريم ، فأين يذهب هذا الجهد  
العنيف الذي بذله الأستاذ الشيخ نجيت والأستاذ الشيخ محمد عبده  
ليثبتا أن القرآن يدل على أن الأرض تدور ؟ وهل يبذل الأستاذ  
الشيخ محمد نجيت وخلفاء الأستاذ الشيخ محمد عبده جهداً عنيفاً  
ليثبتوا أن القرآن يدل على أن الأرض لا تدور ؟ وإذن فكيف  
نستطيع أن نفهم دلالة القرآن على أن الأرض تدور وعلى أن  
الأرض لا تدور ؟

لبس هناك من شك في أن المسلمين في العصور الأولى كانوا  
يعتقدون أن الأرض لا تدور ، وأن القرآن يدل على أنها لا تدور ،  
لأن الاجماع كان منعقداً يومئذ على أنها لا تدور ، ثم جاء علماء

أوروبا وشياطينهم فزعموا أن الأرض تدور ، وكانت حرب بينهم  
وبين عامة الناس وزعماء الديانات ، ثم انعقد الاجتماع على أن الأرض  
تدور ، وجاء قسيس من دعائم « الفاتيكان » الذي حكم على  
« جاليله » فجمع أدلة لأتحصى على أن الأرض تدور ، ثم جاء  
الأستاذ « نورمان » وشيطانه فزعم لنا أن الأرض قد لا تدور ،  
وربما جاء العلماء وشياطينهم فأقروا صاحبنا وشيطانه على أن الأرض  
لا تدور أو على أنه من المستحيل أن نجزم بأنها تدور أو بأنها لا تدور ،  
وإذن ! وإذن فما قيمة الشك وما قيمة اليقين وما قيمة العلم وما  
قيمة النص وما قيمة التأويل ؟ أليس من الخير ألا نغلو في الشك  
ولا نغلو في اليقين ؟ أليس من الخير أن نكتفي بالترجيح ؟ ثم أليس  
من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية  
أوزار الشك وأوزار اليقين وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة  
المتناقضة التي تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتي  
تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس  
من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية في  
حصن مقدس منبع لا تصل إليه أبخرة العدس والبقول والزيت  
والطعمية وغير ذلك مما نأكل لهضمه مرة ولا نهضمه أخرى ،  
وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوءه ، اللهم

إني أعتقد أن الأرض قد تدور وقد لا تدور ، وأنها قد تكون  
كرة أو سطحاً أو كُمري ، وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد ،  
وأن المكان قد يوجد وقد لا يوجد ، وان « نيوتن » ( Newton )  
قد يصيب وقد يخطيء ، وأن « انستين » ( Einstein ) قد يحق  
وقد يبطل . كل هذا ممكن ولكن هناك شيئاً لا أحب أن يحدث  
أوزار هذا الامكان وهذا التناقض وهذا التردد ، وهو القرآن وغير  
القرآن من الكتب الدينية ، إنا لنحسن الاحسان كله إذا رفعنا  
الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه ، فماذا يرى العلماء ؟

باريس في ٢٧ ابريل سنة ١٩٢٣



## العلم والثروة

في مصر أغنياء كثيرون ولكن معظمهم أشد بؤساً من الفقراء المعوزين ، لأنهم لا يفقهون الثروة ولا يقدرونها ، ولا يفهمون ما ينبغي أن توجد هذه الثروة من صلة بينهم وبين مواطنيهم وهم أغنياء ، وكل حظهم من ثروتهم أن يأكلوا كثيراً ويستمتعوا بلذات مادية لا تتجاوز الحس إلى القلب أو إلى العقل . ثروتهم مقصورة على أجسامهم فان وصلت إلى نفوسهم فهي لا تمس منها إلا موضع الضعف والغرور ، تمس الفخر والتباه ، تمس العجب والخيلاء ، لكنها لا تمس الذكاء ، ولا تمس عاطفه الرحمة بالبائس ، ولا تمس عاطفة الإغاثة على الخير .

في مصر أغنياء كثيرون ولكنهم أشد بؤساً من الفقراء المعوزين . لا ينتفعون بثروتهم أحياناً ولا ينتفع الناس بثروتهم بعد موتهم . هم لا يملكون الثروة وإنما يحملونها على ظهورهم لينقلوها من جيل إلى جيل . يحملون الثروة عن آباءهم لينقلوها إلى أبنائهم ليعبروا بها النهر وكثيراً ما تنوء بهم هذه الثروة فتغرق ويفرقون معها ، ولا يظفر أبناؤهم منها إلا بالتمس والبؤس وسوء الحال .

في مصر أغنياء كثيرون ولكنهم في الحق فقراء معوزون !  
وفي أوروبا أغنياء ولكنهم أبعد الناس عن الفقر . وأدناهم إلى  
الغنى حقاً لأنهم يفهمون الثروة ويحسنون الانتفاع بها في حياتهم  
الخاصة وفي حياة أمتهم ومدنهم وقراهم وأسرهم . فهم يتمتعون بالثروة  
حقاً ، يجنون منها لذة الجسم ، ولذة القلب ، ولذة العقل . بل يجنون منها  
اللذة الصحيحة في الحياة وتخليد الاسم بعد الموت . ينفعون وينتفعون  
ليسوا عالة على قومهم ، وليس قومهم ، عليهم عالة . إنما هم يفهمون أن  
الثروة أداة من أدوات المنفعة العامة المشتركة التي ينبغي أن يستمتع  
بها الناس جميعاً ، كل على القدر الذي يتاج له . هم يملكون الثروة  
ويحسنون التصرف فيها لا يشترون بها الطعام والشراب واللباس  
فحسب ، وإنما يشترون بها أيضاً الحب والعطف والاجلال وحسن  
الاحدوثة في الحياة وبعد الموت . ليسوا أنعاماً ينقلون أثقال الثروة  
من جيل إلى جيل وإنما هم ناس يملكون الثروة ويستثمرونها  
يفيدون ويستفيدون . ليسوا عبيداً للمادة ، وإنما هم سادتها يملكونها  
ويسخرونها لحياة الانسان والترفيه عليه .

اقرأ في جريدة « الطان » أن رجلاً أهدى إلى جامعة باريس  
عشرة ملايين لاقامة حي خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في  
هذه الجامعة بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا في منازل صحية

يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم .  
واقراً في جريدة « الطان » أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة  
باريس و ثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليوناً . واقراً في جريدة  
« الطان » أن هذه المرأة قبل أن تموت أهدت إلى كثير من الجامعات  
مقادير مختلفة من المال وأنها أهدت مرة إلى جامعة باريس مقداراً  
من المال تنفقه في طبع الرسائل التي يقدمها الطلبة الفقراء لنيل  
الدكتوراه . وأهدت مرة أخرى إلى جامعة باريس ما يمكنها من  
انشاء درس لأدب القرن الثامن عشر وتاريخه . وأن امرأة أخرى  
أهدت إلى جامعة باريس ثروة تغل عليها ( ٠٠٠ ر ٣٥ ) فرنك  
في السنة لترقية البحث عن « الراد يوم » في الطب . وأن رجلاً ترك  
لها نصف مليون . وأن أستاذاً في مدرسة ثانوية ترك ثروته التي  
تبلغ ( ٤٠٨ ر ٧٦ ) فرنكاً لإعانة طلبة التاريخ الحديث ، وأن امرأة  
تركت مليوناً لإعانة المؤرخين على بحوثهم التاريخية . واقراً في الصحف  
المختلفة أن دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو واللعب قد خصصت  
جزءاً من دخلها في يوم من الأيام لإعانة العلماء على تأسيس المعامل  
العلمية المختلفة . بل اقراً ما هو أغرب من هذا . اقراً تعاون الفقراء  
والمعوزين واقتنائهم في جمع المقادير المختلفة من المال لإعانة العلماء على  
تأسيس المعامل وتكميلها . واقراً في الوقت نفسه مقالات طويلة مرة

ملؤها السخط والفضب والفيظ ، لأن العلماء يشكون فقر المعامل ونقصها ويستعينون الجمهور فلا يعينهم ولا يمنحهم من المال ما ينبغي أن يمنحهم . هذا الجود وهذا البذل اللذان أشرت اليهما في أول هذه الكلمة لا يرضيان ولا يقنعان ومع ذلك فققر العلم في فرنسا اضافي جداً لأن الدولة والأفراد والجماعات يحرصونه بعناية عظيمة ، وآية ذلك ما وصلت اليه فرنسا من الرقي العلمي الذي لا يزال مطمح أمم كثيرة في أوروبا بعد .

كتبت في غير هذا المقال منذ أشهر أن العلم مهما اشتد غناه وعظمت ثروته فهو فقير محتاج إلى المعونة لأنه يجبي ، وحاجة من عاش لا تنقضي ، فسيظل العلماء يشكون وسيظل الناس يبذلون . هذا في فرنسا ، أما في مصر فالثروة كثيرة ضخمة تنوء بالأغنياء ، ولسنا نستطيع أن نذكر فقر العلم أو حاجته إلى المعونة لأننا لا نستطيع أن نذكر العلم في مصر ، فليس لمصر علم وإنما هي في علمها عالة على أوروبا وأمريكا تستعير منها كل شيء ، وهي لا تحسن الاستعارة ولا تستطيع أن تستعير منهما ما هي في حاجة اليه أو جزءاً موفوراً مما هي في حاجة اليه ، لأنها لا تجد من المال ما يمكنها من أن تستعير هذا المقدار العلمي الذي هي محتاجة اليه لتعيش ، أما إذا احتاجت إلى السيارات والدراجات والحلى وفاخر اللباس وبديع الأداة والآنية ، فما

أكثر المال وما أيسر البذل ، هنا تظهر ثروة الأغنياء و يظهر سخاؤهم  
فتكثر في مصر هذه الأدوات المختلفة التي يفيد قلبها و يضر كثيرها .  
نعم ، نحن أغنياء أجواد إذا احتجنا إلى متاع الدنيا ، فأما إذا احتجنا  
إلى غذاء العقل والقلب فمقرنا لا يعدله فقر . هناك علوم مزهرة في  
أوروبا وأمريكا ونحن لا نسمع بها في مصر . إما لأننا لا نحاول أن  
نسمع بها ، وإما لأننا نضع أصابعنا في آذاننا حتى لا نسمع بها فنحتاج  
إلى أن تنفق المال في جلبها إلى بلادنا . ولكني واثق بان لونا من  
ألوان البدع في الحلى أو الملابس أو السيارات أو الأزرار لا يكاد  
يظهر في باريس أو في نيويورك حتى نسمع به ، ونرغب فيه ، وتهالك  
عليه . والنتيجة أننا في حياتنا الظاهرة كأرقى الشعوب مدنية وحضارة ،  
وربما كنا أنفخ لباسا وزينة من أغنياء باريس ونيويورك ولندرا فإذا  
رأنا الأوربي خيل إليه أننا ناس مثله نلبس كما يلبس بل خيرا مما  
يلبس ، ونزدان كما يزدان بل خيرا مما يزدان ، وتتصرف في فنون الحياة  
المادية كما يتصرف بل خيرا مما يتصرف : بحسبنا مثله إذا تناولكنه  
لا يكاد يمتحننا و يخبرنا حتى يشعر بان وراء هذه الزينة وهذه المظاهر  
الفناء أو شيئا يشبه الفناء ، وماذا تريد من قوم يجلبون من أوروبا كل  
ما ييسر عليهم الحياة المادية و يمكنهم من الاستمتاع بلذاتها المادية ،  
فإذا ذكر العلم والادب والفن هزوا الرؤوس والاكتاف ، بل هم

يفعلون شراً من هذا ، فالعلم في بلادهم ولكنهم يعملون أو يتعاملون  
عنه ، لا يرونه ولا يشعرون به ، ويحسه الاوربيون والامريكيون  
على بعد الشقة فيسعون اليه ويحملونه الى بلادهم ، حتى اذا نبه منا نابه  
فاحس كما يحس الناس ، واشتاق إلى ما يشتاق إليه الناس ، وأراد أن  
يكون مصرياً يعرف مصر كما يعرف الفرنسي فرنسا ، اضطر إلى أن  
يبحث عن مصر في باريس أو لندرا أو برلين ، ياللاخزي ! بل قد  
يحتاج إلى أن يبحث عن مصر في أثينا !!!

لقد قلنا هذه الأشياء وقلناها وسنقولها ونقولها ، فلم يحفل بنا  
أحد ولن يحفل بنا أحد ، اللهم إلا جماعة الراغبين اليأسين وهم  
قليون ، فأما القادرون على أن ينفعوا ، فأما القادرون على أن يفيدوا  
بلادهم فهم عن النفع والفائدة في شغل . وما أنت والعلم تحدثهم به  
وتثقل عليهم فيه وهم أرغب في هذا المتاع الباطل الذي يهر العين  
ويخلب النظر ويحمل فلاناً على أن يقول : لقد رأيت سيارة فلان  
فأعجبتي ولأشترين مثلها ، رأيت ثوب فلان فراقى ولأصطنعن  
مثله ، فأما أن يقول الناس : لقد رأينا عالماً مصرياً أو أديباً مصرياً  
أو فنياً مصرياً يروقنا أن يكون لدينا مثله ، فذلك شيء لا يخطر  
لأغنيائنا على بال ، ولقد أكتب هذه الكلمة وأنا أثق الثقة كلها  
بأن كثيراً من أغنيائنا سيقرونها وينالون كاتبها بالسخط والنعي لأنه  
يحدثهم بما لاخير فيه

لدينا جامعة أنشئت منذ خمس عشرة سنة ، ولولا لطف الله بها  
لماتت ، على أنها ليست بعيدة من الموت ، ولقد أظهر أغنياؤنا ميلا  
شديداً إلى تأييد هذه الجامعة وإعانتها ، لأن ذلك كان بدعا يومئذ  
وكان فيه فخر للبادئين ، فلما انقضى البدع هبطت الرغبة ، وقر الميل ،  
وحبس الذين بذلوا المال أموالهم فلم يعطوا ولم يفوا بما وعدوا أن  
يعطوا . لا تذكري الحرب فإن الحرب لم تسيء إلى مصر ، ولم تنزل الفقر  
بأهلها ، واطمأن أساءت الحرب إلى فرنسا فزعزعت ثروتها وخربت  
جزءاً عظيماً منها ، بل زعزعت نظامها الاجتماعي فلم يزد لها ذلك إلا حبا  
للعلم وتشجيعاً للعلم وإعانة للعلماء ، ولم يضع عليها من ذلك شيء فقد  
أتاح لها العلم أن تقتصر ، أما أغنياؤنا فقد ضاعف الله عليهم ثروتهم  
أضغافاً مضاعفة ، فلم يزد لهم ذلك إلا ضغافاً وحسباً للمال عن وجوه الخير ،  
وتهاككا على اللذات المادية ، والحكومة والأفراد في ذلك سواء  
فلست أنسى الوزارة النسيمية الأولى وما أنفقت من المال لإصلاح  
سيارات الحكومة فقد كان ذلك يكاد يبلغ نصف المليون من  
الجنيهات ، أما الجامعة فكانت الحكومة تعينها بألفي جنيه قبل أن  
تبلغ ميزانيتها عشرين مليوناً ، فبلغت هذه الميزانية أربعين مليوناً ولم  
تزد إعانة الجامعة وإنما أُنذرت الجامعة مرات يقطع هذه الإعانة  
وكانت وزارة الأوقاف تمنحها معونة قدرها خمسة آلاف جنيه أيام

النظام القديم فلما أقبل النظام الجديد نقصت هذه الاعانة حتى بلغت ١٨٠٠ جنيه . ولست أدري أفقرت وزارة الأوقاف ولعل افتقارها كافتقار الحكومة المصرية ؟ ثم نحن نطلب الاستقلال نزعاً أن ليس بيننا وبين أهل أوروبا فرق ، وأن من حقنا أن نستمتع بنظام الحياة الذي يستمتعون به ، وقد يكون هذا حقاً ولكن يجب أن نعترف بأن أهل أوروبا وأمريكا لم يصلوا إلى حياتهم الراقية الحرة بالتهالك على السيارات والحلى وملابس الحرير وما يشبهها ، وإنما وصلوا إليها بالتهالك على العلم والرغبة فيه ، يجب أن نحمد الله على أن الدستور قد صدر فلئن يتأسنا من الحكومة ومن الأفراد فلن نياس من الأمة ممثلة في البرلمان ، وبقيننا أن هذا البرلمان لن يغفر في المستقبل لوزارة المعارف مثل هذه الأغلط المنكرة ، لن يغفر لوزارة المعارف ما وصلت إليه حال التعليم في مصر من ضعف وفساد ، ولن يغفر لوزارة المعارف أن تظل مصر من الجهل والضعف بحيث توجد علوم لا تسمع بها مصر ولا يأخذ المصريون منها بنصيب .

باريس في ١١ مايو سنة ١٩٢٣

## القسم الثاني

# أسبوع في بلجيكا

## ١

### مؤتمر العلوم التاريخية

كنا الفا أو نزيد على الألف ، كنا يعني بالتاريخ أو بعلم أو فن من هذه العلوم والفنون التي يحتاج اليها التاريخ ، وقد اجتمعنا من أطراف الارض على اختلاف أوطاننا ، وأدياننا ، ولغاتنا ، ومناهجنا في الحياة ، لا يجمع بيننا الا شيء واحد ، هو أننا نشتغل بالتاريخ أو بفن يتصل بالتاريخ .

كنا الفا أو نزيد على الالف ، وكنا مختلفين مؤلفين ، مقترقين متفقين ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا المؤتمر ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا الاسبوع الذي قضيته في بلجيكا ، ولكني لا أدري كيف أحدثك ، لأنني لا أدري كيف ابدأ الحديث .

في نفسي أشياء كثيرة ، كثيرة جداً ، أريد أن أتحدث بها إليك ، ولكني أشعر بشيء من الاضطراب في تنظيم هذه الأشياء الكثيرة وترتيبها وتقديم بعضها على بعض ، كل هذه الاشياء خليقة

أن تقال ، وكل هذه الاشياء جديلة الخطر . فلا تحدث اليك كما تلهمني  
المصادفة على غير نظام وفي غير ترتيب .

أشعر بأن كثيراً من المصريين سيسخرون من التاريخ والمؤرخين ،  
ومن المؤتمر والمؤتمرين ، لان التاريخ ليس من هذه العلوم التي تظهر  
فائدتها في الحياة العملية اليومية ، وليس من العلوم التي تعين صاحبها  
على أن يفلسف كما يقتضى العصر الذى نعيش فيه ، وإنما هو علم  
متواضع يزيد في تواضعه أنه قد نزل في هذا العصر الحديث عن  
ميزة قديمة كانت ترفع شأنه وتعالى مكانته ، ذلك أن الناس كانوا  
يتخذون الماضى وسيلة الى فهم المستقبل ، أو بعبارة أوضح وسيلة الى  
الاستعداد للمستقبل ، وكانوا يتخذونه وسيلة الى فهم الانسانية وتفسير  
ما في حياتها من غموض ، فكان التاريخ يختلط بالفلسفة أو كان  
التاريخ فنا من فنون الفلسفة ، وكان الناس يعتقدون أن له فائدة  
عملية لأنه يعين على حسن الاستعداد للحياة ، وكانوا يعتقدون أن له  
فائدة عقلية لانه يعين على فهم الحياة ، فكانوا يكفون بالتاريخ  
ويتهاكون عليه ، وكانت للتاريخ مكانة عليا بين العلوم ، وكانت  
للمؤرخين مكانة عليا بين العلماء .

ولكن التاريخ تواضع ونزل عن هاتين الميزتين ، وأصبح  
لا يزعم لنفسه الفضل في حسن الاستعداد للمستقبل ولا يزعم لنفسه

القدرة على حل ألغاز الحياة ، بل أصبح التاريخ يحذر الناس من تلك الأساليب القديمة التي كانت تقيس غداً الى أمس وتفسر اليوم بما وقع منذ قرون ، أصبح التاريخ يحذر الناس من هذه الأساليب القديمة ويسخر من أولئك الذين يبحثون عن الثورة الفرنسية وما أحدثت من نظم في السياسة والاجتماع في تاريخ اليونان والرومان ، ثم يرثى لأولئك الفرنسيين الذين خدعهم هذه الأساليب في أواخر القرن الثامن عشر فظنوا أنهم يحيون بثورتهم الديمقراطية اليونانية أو نظم السياسة الرومانية ، واتخذوا لهذه النظم أسماء اقتبسوها من تاريخ آتينا وتاريخ روما . أصبح التاريخ ينكر هذه الأساليب ويحذر الناس منها ويسخر من المستمسكين بها ، بل أصبح التاريخ ينكر فلسفة التاريخ ويقنع بشيء واحد متواضع ، ولكنه جليل الخطر ، وهو الوصول الى استكشاف الحقائق التي وقعت في الماضي استكشافاً علمياً صحيحاً معتمداً على البحث لا على الفلسفة .

فهو كالكيمياء لا يزعم لنفسه القدرة على تحويل المعادن وإيجاد الذهب ، وإنما يزعم لنفسه البحث عن الحقائق من حيث هي حقائق لا أكثر ولا أقل .

إلى هذه المنزلة وصل التاريخ ، فما أسرع ما زهد فيه الناس ورجبوا عنه ، ولا سيما في مصر . ولقد أذكر حديثاً طويلاً جرى

بينى وبين أحد المصريين الأذكاء ، كان ينكر فيه قيمة التاريخ وكانت حجته في هذا الإنكار أن التاريخ لا يفيد فائدة عملية ولا يتمكن الناس من أن يكسبوا حياتهم أو يرفهوا هذه الحياة . أذكر هذا الحديث وأحاديث أخرى فأشعر بأن ناساً كثيرين في مصر سيسخرون من التاريخ ، ومن مؤتمر التاريخ . ولكنى أوكد لك أيها القارئ أنى لا أسخر من هذا ولا ذاك ، وإنما أكلف بالتاريخ وأعجب بمؤتمر التاريخ . وأرجو أن يكلف كثيرون بالتاريخ ، ولكننا قد نصل إلى هذه المنزلة يوم نشعر بأن العلم يجب أن يطلب لأنه علم لا لأنه يمكنك من أن تعيش أو من أن تعيش عيشة مترفة .

لا أسخر من التاريخ ، وفي الأرض ناس كثيرين لا يسخرون من التاريخ . فقد حدثت في أول هذا المقال بأننا كنا ألقاً أو نزيد على الألف ، وكنا من جميع أقطار الأرض . ولم يكن منا من يسخر من التاريخ . ولقد كان الذين نظموا المؤتمر ودعوا إليه في دهش وحيرة لا حد لها . كانوا لا يطمعون في أن يبلغ عدد المؤتمرات خمسمائة فإذا عدد المؤتمرات قد تجاوز الألف ، كانوا لا يطمعون في أن يستجيب لهم الناس من أطراف الأرض ، وإنما كانوا ينتظرون أن يستجيب لهم أهل أوروبا الغربية ، وأهل أمريكا الشمالية ، فإذا

القارات الخمس يستجيب هذه الدعوة . وإذا البرازيل والهند وأستراليا  
ومصر وأفريقيا الجنوبية وأوروبا الشمالية والصين واليابان والروسيا  
ترسل من يمثلها في هذا المؤتمر . وأحب أن تلاحظ أن ألمانيا لم  
تستطع أن تشارك في المؤتمر لأنها لم تدع إليه ، وأن روسيا لم تستطع  
أن تشارك في المؤتمر كما ينبغي لأنها لم تدع ، وإنما اشتركت في المؤتمر  
الجماعات الروسية المتفرقة في أنحاء أوروبا . وأن النمسا اعتذرت عن  
الاشتراك في المؤتمر لأنها لم تجد من المال ما يمكنها من إيفاد من  
يمثلها ، ومع هذا كله فقد بلغ هذا المؤتمر الخامس من الفوز ما لم يبلغه  
مؤتمر تاريخي من قبل . زاد عدد أعضائه على الألف وزاد عدد  
الخطب التي أقيمت فيه والمذكرات التي قدمت إليه على ثلثمائة . ولم  
يستطع المؤتمر أن يجتمع للاشتراك في البحث والمناقشة وإنما اضطر أن  
يوزع العمل ويقسم نفسه أقساما بلغت ثلاثة عشر قسما . واضطرت  
أقسام كثيرة إلى أن تقسم نفسها وتوزع العمل فيما بينها فانقسم بعضها  
أربعة أقسام . ولم يكن من الممكن لعضو من أعضاء المؤتمر أن يتتبع  
العمل في المؤتمر وإنما كان كل عضو مضطراً إلى أن يتتبع العمل  
في القسم الذي هو فيه ، وربما أباح أحدنا لنفسه أن يترك قسمه  
ليسمع خطبة أو مذكرة تليده أو تعنيه في قسم آخر ، فيفعل ذلك  
كارهاً لأنه يترك في قسمه خطباً ومذكرات كان يود لو يستمع

لها ، ولقد كان أعضاء المؤتمر يلتقون فيسأل أحدهم صاحبه : هل قدمت الى المؤتمر شيئاً ؟ نعم في موضوع كذا . فيجيبه هذا شيء لا يحتمل ! لقد كنت أريد أن أسمع لك ولكي شغلت في قسمي بموضوع لم يكن بد من الاستماع له — أما أنا فضيق الصدر ، فقد قاتنتي خطبة فلان ومذكرة فلان . وماذا تريد أن تصنع؟ وقد أبت الطبيعة أن تستطيع تعديد أشخاصنا والاستماع في وقت واحد لكل ما نحب أن نستمع له .

وكان المؤتمر يفكر في طبع ما سياتي فيه من الخطب أو يقدم إليه من المذكرات فألني نفسه أمام مشكلة مالية لاقدرة له على حلها . وحسبك أنه كان يلقي في الساعة الواحدة وفي أكثر من عشرين غرفة أكثر من عشرين خطبة . وكنا في هذا المؤتمر كالتلاميذ في المدرسة ، نجتمع في الساعة التاسعة صباحاً فما نزال مجتمعين إلى الظهر ، ثم ننصرف للغداء ونعود في الساعة الثانية فما نزال مجتمعين إلى الساعة الخامسة . فاذا كانت الساعة الخامسة انصرفنا إلى زيارات واستقبالات قد نظمت في القصر مرة وفي البلدية مرة أخرى وعند وزير المعارف مرة ثالثة ، وفي المتاحف والجامع العلمية مرة رابعة بحيث كان من المستحيل أن يفكر العضو في شيء غير المؤتمر وأعمال المؤتمر إذا كان عضواً مخلصاً في عمله معنياً بفته حقاً ، وهنا يجب أن

الأحظ أن الأعضاء لم يكونوا جميعاً على حظ واحد من الإخلاص للفن والعناية به . وذلك شيء حسن في نفسه فحسبك ثلثائة خطبة أو مذكرة وما استتبعت من البحث والمناقشة ، ولو أن الأعضاء جميعاً خطبوا أو قدموا المذكرات أو اشتركوا في البحث والمناقشة لما انتهت أعمال المؤتمر في أسبوع أو أسابيع .

كثير من الأعضاء أقبل ليسمع ويرى ويتعرف إلى المؤرخين على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم . وكثير منهم أقبل للرياضة والسياحة واتخذ المؤتمر تعة لما كان يريد .

كثيرة جداً الفوائد المختلفة التي تنتجها مثل هذه المؤتمرات فلست أذكر الفائدة الأساسية التي يستفيدها علم التاريخ وإنما أذكر فوائد أخرى غير هذه ليس بينها وبين التاريخ صلة . فيكفي أن تكون فطنا دقيق الملاحظة لتجد لذات متنوعة في ملاحظة هؤلاء الناس المختلفين في الوطن والجنس والطبيعة والمزاج وما لكل واحد منهم من عادة أو خلق أو مزية أو نقيصة . والحق أنى قد استفدت كثيراً من الوجهة العلمية التاريخية ولكنى مع هذا ضحكت كثيراً وسخطت كثيراً ، فقد كان حولي من الناس من يضحك كما كان حولي منهم من يبعث السخط ، ولكنى سأحدثك عن هذا كله في مقال آخر بعد أن أقص عليك طرفاً من أعمال المؤتمر .

باريس في ١٦ إبريل سنة ١٩٢٣

## ٢

لا أذكر ما كان يضطرب في نفسي من خواطر الأسى والاعجاب  
ومن عواطف الأسف والأمل أثناء الطريق بين باريس وبروكسل  
حين كنا نعبّر هذه البلاد التي دمرتها الحرب تدميراً فلم تذر فيها  
شيئاً الا أتت عليه والتي كان أهلها مشردين في أقطار فرنسا ، يتكفون  
ألوان المشقة ، ويستجدون ضروب الاحسان ، ليستقروا بعد تشريد  
وليشبعوا بعد جوع ، فأصبحت هذه البلاد ، ولما تمض على الحرب  
أعوام ، عامرة مزدهرة مستكملة أو آخذة في استكمال وسائل الحياة العاملة  
المنتجة الناعمة المترفة . كنت آسف و كنت آمل ، كنت آسى لقسوة  
الانسان على الانسان ، و كنت أعجب بقدرة الانسان على إصلاح  
ما أفسدت يد الانسان . ولكني لا أريد أن أذكر ذلك أو أطيل  
فيه ، وإنما أحدثك بما وجدت حين وصلت الى مدينة بروكسل  
ظهر الأحد ٨ إبريل

كان البرد شديداً ، وكانت تعصف في المدينة ريح قوية مثلجة ،  
ولكن المدينة كانت هائجة مائجة ، أو بعبارة أصح كانت فرحة مرحة ،  
كان الناس يتغنون و يضحكون و يفتنون في اللذات البريئة . فكنت

لا تسمع الا أصواتا صافية مجلوة، تنبعث بألفاظ الهناء والسرور . وكنت لا ترى الا أعلاما منشورة تعبت بها الريح ، كنت لا تسمع ولا ترى الا شيئاً يسر ويرضى ويبعث البهجة في النفوس . كان أهل بلجيكا ذلك اليوم في عيد . كانوا يحتفلون بميلاد الملك ألبير ، لم يكن احتفالهم رسمياً فحسب ، لم يكن مقصوداً على قصر الملك ودواوين الحكومة . لم يكن احتفالاً تراد به المجاملة ، وإنما كان احتفالاً حقاً . كانت القلوب تحتفل بالملك ألبير . وكانت الألسنة تنطلق بما يملأ القلوب من فرح . وكانت الوجوه تصف ما يغمر النفوس من ابتهاج . وكانت هذه الجماعات المختلفة التي تنطلق في الشوارع منها ما ينشد النشيد البلجيكي ، ومنها ما يتغنى « بالمرسيليز » ومنها ما يتغنى بأحدث الأغاني الباريسية التي تتردد في « مونمارتر » . أقول كانت كل هذه الجماعات آية ساطعة على أن البلجيكيين يحبون ملكهم ويعجبون به ويحتفلون ببلجيكا الناهضة حين يحتفلون بعيد ألبير . لأن ألبير يمثل في نفوسهم هذا الوطن الذي تألم وأهين ولقي ضروب الذلة ثم انتصر وثار لنفسه وهو الآن ينهض ويستأنف الحياة قوياً نشيطاً كأقوى وأنشط ما كان قبل الحرب .

نعم : كانت هذه الجماعات آية بينة على أن البلجيكيين يحبون

ملكهم ويروونه رمز آلامهم وآمانهم حقاً ، ومهما أنس فبن أنس  
جماعة من الرجال والنساء صادفناها في أحد الشوارع ، وقد تبادلت  
القلايس ، فلبس الرجال قلايس النساء ولبس النساء قلايس الرجال  
وامتلاء الشارع بهم حتى وقف الترام وانقطعت الحركة وهم يتغنون :  
« اصعد فوق ! اصعد فوق ! فستري مونمارتر »

« وكن واثقاً جداً بأنك ستري شيئاً جديداً »

« من فوق إذا كان الجو صحواً فستري من باريس إلى شارتر »

« إذا كنت لم تر هذا فاصعد فوق ؟ اصعد فوق فستري

مونمارتر »

بذلك كانوا يتغنون وكانت تقطع هذا الغناء من وقت إلى  
وقت فقهة عالية تصعد في السماء وتحملها الريح وتفرقها في أنحاء  
المدينة . وإيهم ليضون كذلك وإنا لتنبعهم وإذا الغناء قد انقطع  
وإذا الأصوات قد خفت وإذا الردوس حاسرة وإذا جلال مهيب  
قد انبسط على هذه الجماعات الفرحة ، وإذا صمت رهيب يشعرك  
بأن هناك شيئاً جديداً . بأن هناك شيئاً مقدساً . . . .

كان هناك شيء جديد مقدس . كانت الجماعة قد وصلت إلى

عمود المؤتمر وهو الذي أقيم سنة ١٨٣٠ حين استقلت بلجيكا وصدر

دستورها ، وهو الذي يظل قبر الجندي المجهول الذي اتخذ رمزاً لما قدمت بلجيكا من ضحايا في الحرب الماضية . وصلت الجماعة إلى هذا العمود فتبدل فرحها ومرحها إجلالا وتقديسا لرمز الاستقلال ورمز الجهاد الوطني !

وما أشك أن هؤلاء الناس الذين كانوا يجلبون استقلالهم ويقدمون رمز ضحاياهم ، كانوا يذكرون في هذه اللحظة نفسها مع الاجلال والاكبار الملك ألبير الذي جاهد وتألّم واحتمل كل ما يمكن أن يحتمله الملك المخلص للدفاع عن وطنه أولا وعن عرشه ثانيا ! في هذا اليوم عرفت قيمة ما يمكن أن يوجد بين الشعوب والملوك من صلوات الحب والمودة والعطف .

الحب وحده مصدر هذا الابتهاج والاجلال ، فليس الملك ألبير مستبدا ولا راغبا في الاستبداد . وليس الشعب البلجيكي خائعا ولا مستعدا للخنوع ، ولعل الذين قرءوا تاريخ بلجيكا يعلمون أن الصلة بين البلجيكين وملوكهم قائمة على أن الملوك يتلقون سلطانهم من الشعب ، فهم نوابه وممثلوه ، لا ساداته ووزعماؤه . ومالي أذهب بعيداً وقد افتتح المؤتمر التاريخي يوم الاثنين ٩ إبريل بمحضر من الملك والملكة وولي العهد والبرنس شارل واخته البرنيسيس ماري جوزي ،

فلما قدم رئيس المؤتمر إلى الملك والملكة والأمراء تحية المؤتمر ذكر الديمقراطية ورفقها في باجيكيا واقتناع الملك بأن لارقي للشعوب ولا استقرار للعروش إلا إذا كانت الديمقراطية الصحيحة الواسعة أساس الصلة بين الشعوب والعروش . فصفق الناس جميعا وابتسم الملك والملكة .

باريس في ١٧ إبريل سنة ١٩٢٣

## ٣

قات في أول هذه الفصول : إن كثرة أعضاء المؤتمر من جهة ،  
وكثرة مواد العمل من جهة أخرى ، قد اضطررنا المؤتمر إلى أن يقسم  
نفسه إلى لجان . ولست أرى بأسا من ذكر هذه اللجان ليرى  
المشتغلون بالتاريخ في مصر كيف يتصور علماء أوروبا التاريخ وكيف  
يقسمونه إلى أقسامه المختلفة .

انقسم المؤتمر إلى ثلاث عشرة لجنة وهي :

١ — تاريخ الشرق

٢ — تاريخ اليونان والرومان

٣ — تاريخ العصر البيزنطي

٤ — تاريخ القرون الوسطى

٥ — التاريخ الحديث والتاريخ العصري ، وهذه اللجنة تنقسم

إلى أربع لجان جزئية

الأولى : لجنة التاريخ الحديث التي ينتهي عملها إلى الثورة

الفرنسية .

الثانية : لجنة التاريخ العصري التي يبتدىء عملها من الثورة

الثالثة : لجنة تاريخ القارة الأمريكية

الرابعة : لجنة تاريخ الاستعمار والاستكشاف

وأحب أن تلاحظ أن هذين القسمين الأخيرين — تاريخ

القارة الأمريكية وتاريخ الاستعمار — لم يستقلا بالبحث وتخصص

العلماء إلا في هذه السنين الأخيرة . وهما يوشكان أن يصبح كل

واحد منهما قسماً مستقلاً استقلالاً تاماً عن غيره من بقية أقسام

التاريخ .

٦ — التاريخ الديني ، وهذه اللجنة تنقسم إلى لجنتين جزئيتين

الأولى : لجنة تاريخ الديانات من حيث هي أي من وجهتها

الفكرية والعملية

الثانية : لجنة تاريخ الكنيسة ، وهي تنقسم إلى لجنتين تبحث

الأولى عن تاريخ الكنيسة منذ نشأتها إلى آخر القرن الثاني عشر .

وتبحث الثانية عن تاريخ الكنيسة منذ أول القرن الثالث عشر .

٧ — تاريخ الحقوق — وهذه اللجنة تنقسم إلى لجنتين :

الأولى : لجنة تاريخ الحقوق في العصر القديم

الثانية : لجنة تاريخ الحقوق في القرون الوسطى وفي العصر

الحديث .

٨ — التاريخ الاقتصادي .

٩ - تاريخ الحضارة : وقد انقسمت هذه اللجنة إلى ثلاث لجان

الأولى : لجنة تاريخ الحضارة في العصر القديم

الثانية : لجنة تاريخ الحضارة في القرون الوسطى وفي العصر

الحديث .

الثالثة : لجنة تاريخ الطب

١٠ - تاريخ الفن والآثار ، وتنقسم إلى لجتين :

الأولى : لجنة تاريخ الفن

الثانية : لجنة الآثار

١١ - المناهج التاريخية والعلوم المتصلة بالتاريخ . وقد

انقسمت هذه اللجنة إلى لجتين :

الأولى : لجنة مناهج البحث التاريخي

الثانية : لجنة العلوم المتصلة بالتاريخ كعلم النقوش والخطوط ،

وما إلى ذلك

١٢ - لجنة البحث عن مصادر تاريخ العالم أثناء الحرب العظمى

١٣ - لجنة المحفوظات ونشر النصوص التاريخية .

وكان المنظمون المؤتمر قد خصصوا له قصر الجامع العلمية ،

فظهر أن هذا القصر على سعته وكثرة غرفه أضيق من أن يسع هذه

اللجان واضطر المنظمون إلى أن يقرروا لجان كثيرة في مواضع مختلفة قريبة أو بعيدة من قصر المؤتمر .

وكانوا قد أجمعوا أن يفتح المؤتمر بعد ظهر الاثنين ٩ إبريل وأن يشرع في أعماله بعد ذلك ، ولكن كثرة الأعمال وكثرة ما كان يجب أن ياتي من الخطب ويقدم من المذكرات ، اضطررا المؤتمر إلى أن يبدأ في عمله قبل أن يفتح رسمياً . فاجتمعت اللجان وبدأت بسمع الخطب والمذكرات صباح الاثنين ، أي قبل أن يفتح المؤتمر رسمياً .

وكنا قد ذهبنا يوم الأحد إلى سكرتارية المؤتمر فوجد كل منا طائفة من الأوراق تنتظره . وقد كتب عليها اسمه . وهذه الأوراق عبارة عن برنامج أعمال المؤتمر ومختصر ما كان قد قدم من المذكرات و بطاقات الدعوة إلى القصر ، وعند وزير المعارف ، وفي الجامعة ، وفي البلدية ، ثم بطاقة شخصية تثبت أن صاحبها عضو في المؤتمر ، ثم علامة من المعدن يعلقها العضو في صدره ليميزه الناس ، ويستغنى بها عن إظهار بطاقته كلما أراد أن يدخل داراً من دور المؤتمر

وعلمنا حينئذ أننا سنبدأ أعمالنا صباح الاثنين قبل الافتتاح الرسمي ، فلما كان يوم الاثنين ذهبنا جميعاً إلى الأماكن التي خصصت للجان التي يجب أن يشترك فيها كل منا . ذهبت إلى لجنة المحفوظات

وأشر النصوص التاريخية . وفي هذه اللجنة قدمت مذكري صباح  
الاثنين ، وكان موضوعها « نص معاهدة دفاعية هجومية » عقدت  
سنة ٦٩٢ للهجرة ( ١٢٩٢ للمسيح ) بين الملك الأشرف خليل بن  
قلاوون وابن جايم الثاني ملك أراجون وأخويه وصهره . وكلهم  
ملوك لاسبانيا المسيحية . وجدت نص هذه المعاهدة العربي في الجزء  
الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى ، وفي هذا النص اضطراب  
كثير ، وضروب من التحريف غريبة ، فكنت أمام صعوبتين :  
الأولى تصحيح هذا النص وتقويم ما فيه من الاضطراب والتحريف ،  
الثانية إثبات أن هذا النص صحيح من الوجهة التاريخية ، وأن هناك  
معاهدة عقدت حقا بين مصر وأسبانيا المسيحية في ذلك العصر

وقد وفقت إلى تدليل هاتين الصعوبتين بواسطة استكشاف  
النص أو الترجمة الأسبانية اللاتينية لهذه المعاهدة التي لم يكن نصها  
العربي معروفا للمؤرخين قبل اليوم . ولم يكن هذا البحث يسيرا ولا سهلا .  
فحسبك أن القلقشندی الذي روى نص هذه المعاهدة عن كتاب  
لابن المكرم سماه « تذكرة اللبيب ونزهة الأديب » قد روى هذا  
النص دون أن يفهم قيمته التاريخية ، بل دون أن يفهمه بوجه ما  
فحرف وبدل ولم يصف المعاهدة إلا بأنها حسنة الانشاء . وحسبك  
أن أسماء الملوك والبلاد كانت من التحريف بحيث كان يكفي أن

تقرأها لتشك في صحة المعاهدة . فملك أراجون جايم الثاني يسمى في المعاهدة « دون حاكم » ولفظ حاكم لفظ عربي خالص لا يمكن أن يكون اسماً لملك مسيحي من مونا أسبانيا ، وتحريفه ظاهر سهل ولكن بشرط أن تصل إلى أصله المسيحي . ولست أدري على من تلتقى تبعة هذا التحريف ، أعلى المؤلف أم على الناسخ أم على المصحح ؟ ولكنني أعلم أن هذا الكتاب الجليل الذي سأخصه بفصل أو فصلين لو أنه صحح تصحيحاً علمياً متيناً ، وأشرف على طبعه ناس يتقنون هذا الفن ويلمون بأصوله وباللغات الأجنبية ، ويستطيعون أن يتصرفوا في هذه اللغات كتابة وترجمة ، لخرج من المطبعة الأميرية نافعاً حقاً ليسرا للباحثين ، من المصريين وغير المصريين ، سبل البحث عن التاريخ . ولكن الذين أشرفوا على طبع هذا الكتاب على حسن نيتهم وإتقانهم للغة العربية وما إليها ، وتصحيح الحروف ، يجهلون التصحيح العلمي وما يحتاج إليه من بحث وتنظيم جهلاً تاماً . وهم إلى ذلك لا يعرفون لغة أجنبية ، وأحسب أنهم لم يدرسوا التاريخ ولا يستطيعون التصرف فيه ولا تأول نصوصه وتفسيرها . ولهذا كان نفع هذا الكتاب قليلاً وعسيراً جداً بنوع خاص . وحسبك أنك لا تجد فيه ثبناً بأسماء الأشخاص والأمكنة ، فانت مضطر إلى أن تقرأ الكتاب كله أو تتصفحه على أقل تقدير لتعرف : أألم الكتاب بالموضوع الذي

تبحث عنه أم لم يلم ؟ ومع هذا فأنا أعتقد أن هذا الكتاب أنفع  
كتاب تاريخي طبع باللغة العربية لمن أراد أن يدرس النظم السياسية  
في البلاد الإسلامية عامة وفي مصر خاصة ، ولمن أراد أن يدرس  
العلاقات الدولية بين المساميين من جهة و بينهم وبين غيرهم من جهة  
أخرى . ولكن صبح الأعشى أنساني ما كنت فيه من قصص المؤتمر  
سمعت في هذه اللجنة يوم الاثنين مذكرة قدمها أحد المندوبين  
« لتشيكوسلوفاكيا » عما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين  
النمسا و « تشيكوسلوفاكيا » بمقتضى معاهدة سان جرمان بعد الحرب  
العظمى ، ودارت حول هذه المذكرة مناقشة قيمة اتخذت اللجنة  
بعدها قراراً لو عمل به لاستفادت منه مصر ، وخلاصة هذا القرار أن  
المحفوظات في كل بلد تتبع هذا البلد فهي حق من حقوقه لا يصح  
أن يعتدى عليه معتد بحكم الفتح أو بأي سبب آخر . وإنما يجب أن  
تبقى هذه المحفوظات ملكاً للبلد ، الذي هي فيه ، وليس يتناول هذا  
القرار المحفوظات التي تمس الإدارة أو الشؤون السياسية وحدها ،  
وإنما يتناول المحفوظات جميعاً إدارية كانت أو سياسية أو فنية أو علمية  
ومهما يكن تاريخها

أقول لو عنت الدول بهذا القرار الذي اتخذته العلماء لاستفادت  
مصر فائدة عظيمة جداً ، فنحن نعلم أن من حقنا أن نطالب تركيا

وانجلترا بمحفوظات كثيرة مختلفة نقلت إلى قسطنطينية وإلى لندرا في عصور وظروف مختلفة . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى الدولى لمصر فى القرن التاسع عشر مضطر إلى أن يذهب إلى لندرا ويراجع محفوظات كثيرة فى وزارة الخارجية الانجليزية . وهناك أشياء نجهلها وقد تعلمها فى يوم من الأيام حين نعى بمحفوظاتنا السياسية والادارية عناية علمية . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى والعلمى والأدبى لمصر أيام المماليك مضطر إلى أن يمتد إلى مكاتب القسطنطينية ، وأن دار الكتب المصرية أوفدت منذ حين سماحة السيد محمد البيلاوى ليستنسخ فى مكاتب القسطنطينية كتباً عربية كثيرة . ولعلك لم تنس أن الترك حين فتحوا مصر حملوا إلى قسطنطينية كنوزها العلمية والأدبية والفنية . فمن هذه الكنوز ما تبدد . ومنها ما لا يزال محفوظاً فى القسطنطينية . ومن الحق أن يعود هذا كله إلى مصر . ولكن أتظن أن قراراً يتخذه العلماء يستطيع أن يؤثر فى رجال السياسة سواء أ كانوا من الانجليز أم من الترك ؟

ثم كانت الساعة الثالثة بعد الظهر فافتتح المؤتمر رسمياً . اكتظت غرفة الاحتفالات فى قصر الجامع العلمية بأعضاء المؤتمر ، وأقبل الملك

والملكة والأمرء فافتتح المؤتمر وقدم رئيسه التحية إلى الملك والملكة كما ذكرت في الفصل الماضي . وهنا لا أستطيع أن أخفي ابتهاجي حين سمعت نغمة مصر يذكر في كلمة التحية . فقد كنت ثاني اثنين مصريين حضرا المؤتمر . وكان الآخر جورج أفندي قطاوى العضو بالبعثة السياسية المصرية في باريس . كان يمثل الجمعية الجغرافية الملكية . وكنت المصرى الوحيد الذى يلبس الطربوش . ولم أكن أعلم بحضور مواطني في هذه الجلسة فكنت أشعر بالغرابة حقا . فلما سمعت لفظ مصر يذكر في تحية الملكة ، بمناسبة زيارتها الأخيرة ، أحسست شيئا من الابتهاج والحنان . ولعلى لا أغلو إذا قلت إنى أحسست شيئا من الكبرياء أيضا

لِمَ أخفى عليك الحق ؟ كنت قبل هذه السياحة في بلجيكا مقتصداً كل الاقتصاد في الافتخار بمصريتي إذا تحدثت إلى الأجانب أو جمعيتى وإياهم الجامع . ذلك لأنى أشعر دائماً بما نحن فيه من ضعف ونقص قبل أن أشعر بما كان لنا من مجد وبما يدخر لنا الزمان من رقى . أستحضر دائماً ضعفنا ونقصنا الاجتماعيين ، كما أستحضر دائماً ضعفى ونقصى الشخصيين . فأتواضع في الحديث وأقتصد في الفخر . ولست أدري أمزية هذه أم نقيصة ، ولكنى أعلم أن هذا خلق من أخلاقى .

أما الآن وقد زرت بلجيكا ، وتحدثت إلى هؤلاء الناس المختلفين .  
وسمعت ما ذكرت وما تذكر به مصر . وعرفت رأى كثير من  
هؤلاء الناس في مصر . فقد أشعر بأن من حقى أو من الحق على الأ  
أسرف فى التواضع والأأغلو فى الاقتصاد إذا ذكرت مصر وذكر  
المصريون . ذلك أن رأى الأجانب فى مصر حسن جداً . ولا سيما  
إذا كان هؤلاء الأجانب بعيدين عن السياسة وأوزارها . . . نعم  
رأى الأجانب فى مصر حسن لأنهم يفهمون مصر خيراً مما نفهمها .  
يقدرون مجدها القديم لأنهم يفهمونه حقاً . ويقدرون مركزها  
الحديث لأنهم لا يتعصبون لمذهب سياسى ولا يميلون مع الهوى  
إلى حزب من الأحزاب .

يجب أن أترف بالحق لأهله . يجب أن أثني على ثروت باشا  
وعلى تصريح ٢٨ فبراير وعلى إعلان الاستقلال فى ١٥ مارس .  
فالناس فى مصر يزدرون هذا كله ، ويسخرون منه ، ويرون أنا غير  
مستقلين . وقد يكون من الحق أنا غير مستقلين بالفعل وأنا لن نستقل  
بالفعل إلا يوم يجلو الإنجليز . ولكن من الحق أيضاً أن الأجانب  
الذين لا يشتغلون بالسياسة والذين يشتغلون بها ينظرون إلى مصر كما  
ينظرون إلى إنجلترا . أى أنهم يعترفون بأن مصر مستقلة كما أن إنجلترا  
مستقلة وكما أن بولونيا مستقلة ، وهم يعجبون بمصر قديمها وحديثها .

يعجبون بقديتها لأنه خالق بالاعجاب . ويعجبون بحديثها لأنه يدهشهم ويملك عليهم أهواءهم . ولقد سمعت أكثر من عشرين أجنبياً منهم البلجيكي والفرنسي والبولوني والأمريكي يذكرون مصر الحديثة فيعجبون بها لأنها تتطور في سرعة مذهشة . ولأن نهضةها الحديثة فذة في التاريخ .

سمعت اسم مصر إذن فانبهجت وامتلاً قلمي حناناً وشعرت بشيء من الكبرياء لأني كنت ، أولاً لأن طربوشى كان رمزاً لمصر بين هذه الرؤوس الحاسرة التي كانت تزيد على الألف ولدى كنت بعدت عن المؤتمر وغلوت في الاستطراد . وبماذا تريد أن أحدثك عن هذه الجلسة الرسمية ، التي هي كغيرها من الجلسات الرسمية : ثناء على الملك والملكة . وتحية من الحكومة البلجيكية للمؤتمر . ثم خطبة مطولة من رئيس المؤتمر ألم فيها ببحث تاريخي قد أذكره في غير هذا الفصل ثم تلاوة قرارات اتخذت لحسن نظام الأعمال ، ثم ينصرف الأعضاء . اتصلت هذه الجلسة ساعتين . وسمع الملك والملكة والأمراء كل ما قيل وانصرفوا مع الناس دون أن يظهر عليهم ملل أو ضجر . أكانوا حقاً مغتبطين بهذا الحديث للطويل الكثير الثقيل على آذان الملوك ؟ أم كانوا مجاملين ؟



كان لذيذاً جداً ذلك اليوم الثاني من أيام المؤتمر . كان لذيذاً وكان مفيداً . لم نكد نبدأ أعمالنا في ذلك اليوم حتى سمعت في لجنة المحفوظات مذكرة نافعة قدمها مدير المحفوظات في بلجيكا عن نظام إدارة المحفوظات ، وما يجب أن يتخذ من ضروب الحيلة ، حتى لا تضيع هذه المحفوظات ولا تتعرض للخطر . وسأحدثك عن هذه المذكرة في مقال آخر أصف فيه دار المحفوظات في بروكسل وألم فيه بالموضوع إماماً مفيداً .

سمعت هذه المذكرة ثم تركت لجنتي وذهبت إلى لجنة أخرى مجاورة هي لجنة تاريخ الحضارة في العصر القديم ، أو بعبارة أصح لجنة التاريخ العقلي في العصر القديم . في هذه اللجنة كان ينتظرنى دهش عظيم ولذة أعظم . لأنني سمعت محاضرة ما كنت أظن أنني سأسمعها في يوم من الأيام . وكانت هذه المحاضرة بين عالمين خطيرين : أحدهما فرنسي والآخر بلجيكي . كان موضوع هذه المحاضرة غريباً ، وكانت المناقشة فيه حادة طويلة ، حتى صرفت اللجنة عن أعمالها صباح الثلاثاء . ذلك أن أحد الفلاسفة البلجيكين الأستاذ « دو بريل » ألف منذ حين كتاباً في تاريخ الفلسفة اليونانية ، وزعم في هذه

الكتاب أن البحث التاريخي الصحيح ينتهي بالباحث إلى أن سقراط شخص خرافي لم يوجد ولم يعرفه التاريخ ، وأن خلاصة حكم التاريخ فيه كخلاصة حكم التاريخ في هوميروس . كلاهما شخص آمن به القدماء ، وأظهر التاريخ أنه لم يوجد قط . وكلاهما شخص اتخذ رمزاً لنوع من الآداب ، فاتخذ هوميروس رمزاً لكل الشعر القصصي الذي عرفه اليونان وتناقضه قبل القرن السابع ، واتخذ سقراط رمزاً لهذه الفلسفة التي عرفها اليونان وافتنوا فيها منذ أواخر القرن الخامس وطول القرن الرابع قبل المسيح .

أعترف بأنى دهشت الدهش كله حين قرأت عنوان هذه المحاضرة قبل الذهاب إلى المؤتمر . فما كنت أظن أن وجود سقراط يصل في يوم من الأيام إلى أن يكون موضوع بحث ، فضلاً عن أن يكون موضوع شك ، بل فضلاً عن أن يكون موضوع إنكار . ذلك لأن سقراط لم يعيش في عصر جهل وبداعة ، ولا في أيام خرافة وأساطير ، وإنما عاش في عصر علم وحضارة ، وفي أيام تحقيق وتاريخ . والناس مجمعون منذ أوائل القرن الرابع قبل المسيح على أن هناك آتينيا كان اسمه سقراط . وكان معروفًا طول حياته بالميل إلى الفلسفة والكلف بها . وكان ممتازاً بأطوار حياته الغربية ، ومناهج بحثه الجديدة . كان يمشى حافياً في الشوارع ويتكأ في الميادين ، متحدثاً إلى

الشيوخ والشبان ، متلطفاً مع هؤلاء ، محاوراً مناقشاً سائلاً مجيباً ، حتى استحدث في الأدب اليوناني فناً جديداً ، هو فن الحوار الفلسفي . وحتى رسم للعقل الانساني طريقاً جديدة لم يقطعها العقل الانساني بهد . الناس مجمعون على ذلك ، ومجمعون على أن سقراط هذا كان له خصوم وأنصار ، وعلى أن خصومه حاربوه فسخروا منه ، ثم اتهموه أمام المحكمة ، وعلى أنه أساء الدفاع عن نفسه عمداً ثم سخر من القضاة فقتلوا عليه بالموت ثم انتظر الموت شهراً ثم شرب السم وظل يحاور تلاميذه في خلود النفس حتى مات ثم تفرق تلاميذه فأشثوا المدارس والمذاهب الفلسفية المختلفة في بلاد اليونان على اختلافها وتباعد أطرافها . وعاش من هذه المذاهب مذهب واحد هو مذهب أفلاطون الذي أخذ يتطور ويستحيل حتى أنتج فلسفة أرسطاطاليس ، وكثيراً من المذاهب الفلسفية الأخرى التي لا تزال متاعاً عاماً للنوع الانساني إلى الآن .

الناس مجمعون على هذا كله ، ولديهم أدلة ظاهرة تبيح لهم هذا الاجماع . فليس من شك في وجود أرسطوفان الممثل اليوناني المضحك . وليس من شك في أن أرسطوفان قدم إلى الملعب الآتيني نحو سنة ٤٢٤ قبل المسيح قصة السحاب التي يتداولها الناس ، والتي تدور حول سقراط وتتخذ وسيلة إلى تسلية الجمهور الآتيني وإضحائه ، وليس من شك في أن كتب التاريخ اليونانية والرومانية ذكرت موجزة

أو مطنبة قضية سقراط وموته والمذاهب الفلسفية التي نشأت عن حوارته ومناقشته ، ليس من شك في هذا كله ، ولكن الأستاذ « دو بريل » وجد طريقا إلى الشك ، وفي الحق أنه لم يخترع هذه الطريق ، فهي موجودة من قبل ، وفيها ما يبعث على الدهش والحيرة . فن الواضح أن أحدا لم يشك في وجود سقراط قبل الأستاذ « دو بريل » ولكن من الواضح أيضا أن المحدثين من مؤرخي الفلسفة عاجزون إلى الآن كل المعجز عن تحقيق فلسفة سقراط ، وبيان ما كان له من مذهب في الأخلاق أو في غير الأخلاق . فهم يؤمنون بوجود سقراط وبأنه أبو الفلسفة . ولكنهم لا يستطيعون أن يبينوا فلسفته . بل هناك ما هو أغرب من هذا : لا يستطيعون أن يصفوا سقراط ولا أن يتميزوا شخصيته المعنوية . فلسقراط شخصيات كثيرة تختلف باختلاف تلاميذه . فأفلاطون يعطي من سقراط شخصية تخالف تلك التي يعطيها « كسنوفون Xenophon » وهذه الشخصية تخالف ما يمكن أن يستخلص من « فيدون Phédon » ، وكل هذه الشخصيات تخالف ما نجد في قصة السحاب . وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يمنع من الشك في وجود سقراط ؟ وكيف نستطيع أن نتصور شخصا وجد من غير شك وكان أبا الفلسفة وملهم الفلاسفة ، وأحدث في العالم اليوناني خاصة والانساني عامة ضجة هائلة أعدت العالم للضجة

التي أحدثها المسيح ، دون أن تميز شخصيته أو أن نتبين أصلا واضحا  
جليا من أصول فلسفته ؟

نعم قد يجاب على هذا بأن سقراط لم يكتب شيئا ، وإنما تحدث  
فاختلطت أحاديثه وعبث بها تلاميذه . ومن هنا اختلطت شخصيته  
الفلسفية ، وأصبح تميزها شيئا عسيرا . ولكن فلاسفة كثيرين وجدوا  
قبل سقراط ولم يكتبوا ومع هذا فقد تميزت شخصياتهم ، مع أن  
فلسفتهم فشلت ولم تظفر من الفوز ببعض ماظفرت به الفلسفة التي  
تضاف إلى سقراط . هذا مصدر الشك في وجود سقراط . وقد افتن  
فيه الأستاذ « دو بريل » ولم يكتب بتسجيله ، بل ذهب إلى ما هو أبعد  
من هذا فأثبت أو حاول أن يثبت شيئين : الأول أن شخص سقراط  
شخص خرافي كشخص « جحا » كان موضوع العبث والسخرية  
في قصص الممثلين وأن الفلاسفة الذين جاءوا في أواخر القرن الخامس  
وفي القرن الرابع قد اتخذوا هذا الشخص الخرافي ، الذي هو موضوع  
السخرية والعبث ، مثلا للجد . ولكن للجد الحلو الذي هو أقرب  
إلى الفكاهة منه إلى الجد الخالص ليحببوا فلسفتهم إلى الناس . ثم أخذ  
هذا الشخص الهزلي قديما الجدى حديثا ، يتطور في جده ويمعن في  
فلسفته ، حتى أصبح مثلا للجد الخالص ، وأبا للفلاسفة ، ورمزا للفلسفة  
وحتى نسجت حوله هذه الأسطورة الغريبة التي جعلته بطلا من أبطال

الانسانية . الثاني أن فلسفة سقراط ليست جديدة ولم تنشأ كما يعتقد المؤرخون لمحاربة السوفسطائية ، وإنما هي طور من أطوار الفلسفة اليونانية القديمة ، لم يستحدثها فيلسوف بعينه في عصر بعينه . ويثبت الأستاذ « دو بريل » نظريته هذه بالرجوع إلى نظريات الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط وما يوجد فيها من أصول الفلسفة السقراطية . هذه نظرية الأستاذ « دو بريل » أوجزتها إيجازاً شديداً أخشى أن يكون قد أفسدها وانتقص من أطرافها .

نهض لنقض هذه النظرية أستاذ فرنسي هو الأستاذ « ليفير » من علماء مدينة « ليل » ، وأعترف بأنى كنت معجباً بهذا الأستاذ حين كان يتكلم . ولم أكن منفرداً بهذا الإعجاب وإنما كان أعضاء اللجنة جميعاً ومنهم الأستاذ « دو بريل » نفسه يشاركونى فيه . ولم يكن مصدر هذا الإعجاب فيما أظن اقتناعاً برودود الأستاذ ، وإنما كان مصدره قبل كل شيء حبنا لسقراط وحرصنا على أن يكون شخص سقراط شخصاً حقيقياً تاريخياً ، وشعورنا بأن الأستاذ « ليفير » يحاول أن يثبت لنا وجود هذا الشخص الذي نمجبه ونكاف به . الحق أن الوقت لم يسمح للأستاذ « ليفير » بمناقشة خصمه كما ينبغي . فهناك نصوص يونانية ولاينية لم يكن بد من تحليلها ومناقشتها . وذلك يحتاج إلى كتاب لا إلى محاضرة . وإلى أشهر لا إلى ساعة . ولكن هناك شيئاً يظهر أنه

لا يقبل الشك وهو أن الأستاذ « دوبريل » غلاف نظريته وسلك فيها مسلك الفيلسوف لامسلك المؤرخ . فيجب أن نلاحظ أن سبيل المؤرخ يخالف سبيل الفيلسوف ، وقد تضادها مضادة كاملة فتذهب إحداهما إلى الشمال ، وتذهب الأخرى إلى الجنوب . ذلك لأن الفيلسوف يخضع في فلسفته لقواعد معينة مرسومة في ذهنه . فمن المعقول جداً أن ينتقل من مقدمة إلى مقدمة حتى يصل إلى النتيجة التي يسعى إليها ، سواء أكان بحثه صحيحاً أم غير صحيح في نفسه . فإذا رأى الأستاذ « دوبريل » أن فلسفة سقراط تكاد تكون موجودة برمتها عند الفلاسفة الذين تقدموه ، وأن شخصية سقراط غامضة متناقضة عند تلاميذه وفيما تركوا من الأسفار ، وأن شخص سقراط كان موضوع العبث والسخرية عند الشعراء الممثلين كان من اليسير عليه أن يصطنع المنطق فينظم مقدماته ويرتبها حتى يصل إلى هذه النتيجة ، وهي أن سقراط شخص خرافي . هذه النتيجة مطعمة خلاصة ، لأنها تحرق الاجماع أولاً . ولأنها تحيل إلى صاحبها أنه قد رد الأمر إلى نصابه فأثبت اتصال الفيلسوف ونبي انقطاعها . ولأنها بعد هذا وذلك إن أفنحت كانت خليقة أن تحل اسم صاحبها في تاريخ الفلسفة كما حل اسم « ولف » في تاريخ الأدب اليوناني . هذه سبيل الفيلسوف . أما سبيل المؤرخ فمخالفة كل المخالفة لهذه

السييل ، فهي لا تتبع قوانين منطقية معينة ، وإنما تتبع الحياة الانسانية العملية . والحياة الانسانية العملية لا تزال تظهر لنا إلى الآن مختلفة مضطربة متناقضة . لأننا لم نوفق بعد إلى استكشاف قوانينها الخفية . فمن المعقول جدا أن يظهر للفيلسوف شيء يراه منتظما منتجا ولا يقره التاريخ . ومن المعقول أن يرجح المؤرخ شيئا لا يقره الفيلسوف . وليس في هذا شيء من الغرابة . فالفيلسوف بطبيعته منكر لحياة الناس العاديين يزدريها ويستخفها . والناس العاديون منكرون لحياة الفلاسفة يزدريها بعضهم ويكبرها أكثرهم ، ولكنهم جميعا يرون أنها تخالف أطوارهم وعاداتهم . ومن هنا وجد التناقض بين حياة الناس وفلسفة الفلاسفة . وسبيل التاريخ أن يبحث عن حياة الناس كما يحيونها لا كما يتصورها الفيلسوف . فليس غريبا أن يؤمن المؤرخ بوجود سقراط ، ويعجز في الوقت نفسه عن شخصيته وإزالة ما حولها من الغموض . أضف إلى هذا أن هناك أشياء يخرج الشك فيها عن طور المعقول . فالعصر القديم والقرون الوسطى والعصر الحديث لا تعرف قبل المسيو « دوبريل » نصا يشير إلى الشك في وجود سقراط . بل هناك شيء آخر ذكره الأستاذ « ليفير » وعجز الأستاذ دوبريل عن دحضه ، وهو أن قصة سقراط تصم الآتينين بجناية منكورة ، هي قتل هذا البطل العظيم ظلما وفي غير إنصاف . والتاريخ

يثبت أن الآتنيين كانوا يفارون على شهرتهم وحظهم من حسن الذكر . فكيف نتصور أن هؤلاء الناس وصموا أنفسهم بهذه الوصمة ؟ أو سكتوا عن الذين وصموهم بهذه الوصمة : عن أفلاطون وكسنوفون وغيرهما من تلاميذ سقراط . ألم يكن معقولا أن يغضب الآتنييون لهذه التهمة المنتحلة التي كان يستغلها أعداؤهم الكثيرون ؟ هناك شيء آخر وهو أننا إذا استبحنا لأنفسنا الشك من غير حساب ، لم ندر إلى أي حد ينتهي بنا الشك في التاريخ . فما الذي يمنع الأستاذ «دوبريل» من أن يشك غدا في وجود أفلاطون و بعد غد في وجود أرسطاطاليس ؟ ومن يدري لعل شخص نابليون بعد زمن قليل أو كثير يصبح عند بعض الباحثين شخصا خرافيا كشخص هو ميروس أو كشخص سقراط عند الأستاذ «دوبريل» . قلت لك إن سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وإن الأول يستطيع بل يجب عليه أحيانا أن يقر ما ينكر الفيلسوف وأن ينكر ما يقر الفيلسوف . ولقد انتقلت من هذه اللجنة إلى لجنة أخرى هي لجنة تاريخ الديانات وكنت غير مقتنع برأي الأستاذ «دوبريل» فسمعت في هذه اللجنة الثانية أحد أساتذتي وهو الأستاذ «جينبير» يتكلم ورأيت الناس من حوله في هرج ومرج . وودت حين سمعت ما كان يقول لو حضر الأستاذ «دوبريل» . ذلك لأن الأستاذ «جينبير» كان يعلن

مبتسماً ساخراً أن أعداء التاريخ ثلاثة : عالم الدين ، ورجل القانون  
والفيلسوف . ضحك ناس وسخط ناس واحتج آخرون . أما أنا  
فضحكت ولم أسخط ولم أحتج ، وإنما هنأت الأستاذ . وهنا اعتذر  
إلى علماء الدين وإلى رجال القانون ، وأسأل صديقي منصور عن  
رأيه في هذا : أحق أن الفيلسوف عدو للتاريخ ؟

باريس في ٢٠ إبريل سنة ١٩٢٣

---

٥

فكرت في مصر ، وفي نص الدستور على السودان ، وفي وزارة الشعب ، وفي الوزارة القائمة يوم الثلاثاء ١٠ إبريل حين كنت أسمع بعد الظهر في جلسة عامة للمؤتمر خطبة قيمة دقيقة ممتعة كان يلقيها الأستاذ الفرنسي « بريمون » كانت الخطبة قيمة ممتعة ، لأنها كانت تفسر لنا لغزاً من ألغاز التاريخ — الفرنسي الانجليزي — وتوضح لنا ألقابا وعنوانات نجدتها في نصوص السياسة الخارجية الفرنسية والانجليزية قبل الثورة الفرنسية . وكانت دقيقة لذيدة لأنها كانت تلقي بمحضر من قوم مختلفين يمثلون أمماً مختلفة . و بمحضر كثير جدا من الانجليز وكثير جداً من الفرنسيين . وكان الذي يلقيها فرنسيا . وكان رئيس المؤتمر حينئذ انجليزيا . والناس يدكرون ما بين فرنسا وانجلترا من خلاف ومشادة ومنافسة في الشرق والغرب فلم يكن بد للأستاذ الفرنسي من أن يصطنع الدقة والتلطف وحسن المدخل حتى لا يؤدي أولئك ولا يهيج هؤلاء . ولا تقل كان المؤتمر علمياً والعلماء فوق السياسة . فساد حدثك في غير هذا المقال بما يثبت لك أن العلماء ليسوا فوق السياسة . وأنهم كغيرهم من الناس يخضعون للعاطفة الوطنية و يندفعون معها والفرق بينهم وبين العامة أنهم يجتهدون في أن يزنوا هذا الاندفاع

والأ يضحوا بالعلم في سبيل السياسة وقلماء يوقفون . ولكنني أثبتت  
على الخطبة وأطلت الثناء ولم أحدثك بموضوعها  
كان موضوع هذه الخطبة لقباً من ألقاب ملك إنجلترا . فقد  
كان ملوك إنجلترا يلقبون أنفسهم بهذا اللقب وهو « ملك فرنسا »  
وكانوا يصطنعون هذا اللقب ويحرصون عليه الحرص كله في  
علاقتهم السياسية بملوك فرنسا . ولم يكن ملوك فرنسا يستطيعون  
أن يصطنعوا هذا اللقب . فكانوا يلقبون أنفسهم بأصحاب الجلالة  
المسيحية جداً . وحاول لويس الرابع عشر أن يحمل ملوك إنجلترا  
على أن ينزلوا عن هذا اللقب فلم يفلح . ولم يفلح بعده لويس الخامس  
عشر . وغريبة جداً الحيل التي كان يتخذها المندوبون السياسيون  
للويس الرابع عشر وللويس الخامس عشر ، ليحجوا هذا اللقب من  
ألقاب ملك الانجليز ، أو ليخفوه دون أن يوقفوا حتى لقد حاول  
بعضهم أن يمحوا هذا اللقب من النص الفرنسي لمعاهدة بين البلدين  
على أن يبقى في النص اللاتيني . لأن الجمهور يقرأ النصوص الفرنسية  
ولا يقرأ النصوص اللاتينية فلم يفلح . وحتى لقد كان أحد ملوك  
انجلترا منفيًا مخلوعا . وكان يأوي إلى فرنسا ، وكان ضيفاً على لويس  
الرابع عشر وكان لويس الرابع عشر يحميه ويدفع عنه . وكان مع  
ذلك يلقب نفسه ملك فرنسا . ولم يوفق الفرنسيون إلى محو هذا

اللقب من ألقاب ملوك الانجليز إلا أيام الثورة ، أو بعبارة أصح أيام  
القنصلية . فقد اشتد الخلاف بين مفوضي الجمهورية الفرنسية  
ومفوضي المملكة الانجليزية حول هذا اللقب . وكانت حجة  
الفرنسيين أن الثورة قد ألغت الملكية من فرنسا فهي لا تعترف  
بلقب يخيّل أن لفرنسا ملكا ، كائناً من كان ، سواء أكان هذا الملك  
فرنسياً أم غير فرنسي ، وسواء أكان ملكاً حقاً أم لفظاً ، وأن  
الانجليز الذين يريدون أن يعترفوا بالجمهورية يجب عليهم - ليكونوا  
منطقيين مع أنفسهم - أن يمحووا هذا اللقب من ثبت الألقاب  
الملكية . وأبى الانجليز ذلك فانقطعت المفاوضات واستؤنف الجهاد  
بين البلدين . فاما كانت القنصلية وظهر الميل إلى الصلح بين الانجليز  
والفرنسيين . وأخذ الساسة في البلدين يوطنون لمعاهدة « أميان »  
(Amiens) أحس الانجليز أنهم إذا لم ينزلوا عن هذا اللقب فستنقطع  
المفاوضات وأحسوا في الوقت نفسه أنهم إن نزلوا عن هذا اللقب  
بمقتضى مفاوضات بينهم وبين فرنسا ، كان هذا النزول انتصاراً  
لفرنسا وخزياً وطنياً للانجليز . فانهزوا فرصة ضم إرلندا إلى المملكة  
الانجليزية ، وصدر آخر ديسمبر سنة ١٨٠٠ مرسوم ملكي يعلن أن  
ملك إنجلترا سيلقب من أول يناير سنة ١٨٠١ ملك « بريطانيا

العظمى وإيرلندا» ولم يذكر اللقب الذي كان عليه الخلاف ، وهو ملك فرنسا . وبهذا معنى هذا اللقب ولم يحتج الفرنسيون إلى أن يناوضوا في محوه . ولم يحتج الانجليز إلى أن ينخذلوا في المفاوضة . ولكن هذا لم يمنع المؤرخين الانجليز من أن يعترفوا في أواسط القرن الماضي بأن هذا النزول كان خزيا وطنياً وامتهاناً لكرامة التاج ذكرت مصر وذكرت نصوص الدستور على السودان . وذكرت تلقيب ملك مصر بأنه ملك السودان ، وذكرت هذه السهولة التي أظهرتها وزارة مصرية في النزول عن هذا اللقب ، ولو إلى أجل . ذكرت ذلك فاستخذيت لوزارتنا . ومن ذا الذي يذكر هذا ولا يستخذي ؟ جاهدت انجلترا قروناً لتحفظ بلقب لا خير فيه فلم يكن ملك انجلترا ملكاً لفرنسا أيام لويس الرابع عشر . بل كان ملك انجلترا يخشى ملك فرنسا . ومع هذا كان يتقب نفسه ملك فرنسا . لم يكن هذا اللقب مفيداً ، بل كان مضحكاً . ومع ذلك لم تنزل عنه انجلترا إلا حين اضطرت اضطراراً شديداً إلى النزول عنه أما نحن - أستغفر الله - ! - أما وزارتنا فقد نزلت عن هذا اللقب : « ملك السودان » . وهي تعلم أنه ليس لقباً لفضياً . وهي تعلم أنه لقب يمثل الحق والعدل والقانون وأن الاحتفاظ به احتفاظ بحق مصر ، والتفريط فيه تفريط في حق مصر . نزلت عنه ولما تضح

في الاحتفاظ به بالقليل ولا بالكثير . نزلت عنه لأن مثل إنجلترا  
قطب جبينه ولوى وجهه . ذكرت هذا كله وذكرت جهاد الانجليز  
في الاحتفاظ بنقب سخيف ثم إصرارهم على ألا تحتفظ مصر بنقب  
هو كما قلت مثل الحق والعدل والقانون . استخدمت لوزارتنا وسألت  
الله أن يمنح مصر سياسة يستطيعون أن يقاوموا سياسة الانجليز !!!  
ثم سمعنا خطبتين : إحداهما عن نقوش يونانية استكشفت في آسيا  
الصغرى ألقاها عالم انجيزى . والأخرى عن أثر الخرافات والنبوءات  
في سياسة الجمهورية الرومانية ألقاها عالم بولونى . ثم انصرفنا إلى القصر  
وكانت الساعة الخامسة من هذا اليوم قد ضربت موعداً لمتول أعضاء  
المؤتمر بين يدى الملك والمدكة . فرأيت في هذا القصر أشياء كثيرة  
تركت في نفسى أثراً قوية . رأيت قبل كل شىء ، مظهراً من مظاهر  
حب العلم والتهالك عليه والافتنان فى نصره . ومظهراً من مظاهر  
الوطنية الصادقة القوية . ومظهراً من مظاهر إجلال أوربا لعلمائها  
وإكبارها لمكانتهم ، ومفاخرتها بهم ، وكان الذى يمثل هذه المظاهر  
رجلاً شيخاً فانياً قد تجاوز السابعة والثمانين وانحنى على العضاة فما يستقيم  
له ظل ، وانحلت قواه فما يمشى إلا متثاقلاً . وما يكاد يستقل بنفسه  
فهو محتاج أبدأً إلى من يعتمد عليه . وكان ميتسما . وكان فرحاً . وكان  
يتلطف فى الحديث إلى كل من ذهب يحببه ، وقد ذهبنا كلنا نحبيه .

وكان وحيدا ، أي لم يكن يمثل بلده سواء . وكان جالسا على كرسي في ناحية من نواحي البهو الذي كنا ننتظر فيه وقوفا أن يؤذن لنا بتحية الملك . هذا الشيخ الذي كانت تحوطه بلجيكا والذي كان يرعاه المؤتمر كله ، هو الأستاذ « شميت » ( Schmidt ) أقبل من كوبنهاجن يمثل الدانمرك في المؤتمر . وألقي في لجنة الشرق خطبة عن مقدار علم المصريين القدماء بتاريخ مصر القديم ، فكان لخطبته فوز وتحدثت بها صحف بلجيكا . ذهبت إلى هذا الرجل فحييته وشكرت له عنايته بتاريخ مصر . فما أشد ما أثرت فيه تحبتي وشكري . وما أحسن ما أظهر ميله إلى مصر وإعجابيه بمصر وأمله في مستقبل مصر .

أذن لنا في الدخول ، ورتبنا حسب أحرف الهجاء . فدخل أعضاء المؤتمر البلجيكيون ، ثم ممثل البرازيل ، ثم الشيخ الغاني ممثل الدانمرك وكنا اثنين يمثلان مصر . وكانت زوجي تصحبنى . وكنا وراء هذا الشيخ ، فسمعنا تحية الملك له وسمعناه يتحدث بكلام كثير إلى الملك لم نفهم منه شيئا ، ولم يفهم الملك منه شيئا . لأن الرجل متقدم في السن فهو لا يكاد يبين إذا تكلم الفرنسية . ثم أراد الرجل أن ينصرف فزلت قدمه وكاد يسقط ثم صافح الملكة وأراد أن ينصرف وكاد يسقط ولولا أن كبير الأمراء كان يسنده لهوى إلى الأرض مررنا أمام الملك والملكة فصاحنا الملك وأعلن إلينا أنه سعيد

برؤية مصرى وأن الملكة كانت سعيدة جداً بما أظهر المصريون لها من الكرم وحسن الضيافة . وصاغت لنا الملكة فأعلنت إلينا اغتباطها بهذه السياحة البديعة التي ساحتها في هذا البلد الذي ليس له مثيل . ثم مرت بعدنا إنجلترا فذكرتُ أنا مستقلون وأنا لا نتبع تركيا وأنا لا نتبع إنجلترا وأن تصريح ٢٨ فبراير ليس لغوا ولا حديثاً من الأحاديث . وإنما هو حقيقة واقعة ليست عبثاً بالعقول كما يظن كثير منا في مصر .

خرجنا من غرفة الاستقبال وكنت أظن أن لم يبق لنا إلا أن ننصرف . ولكني دهشت حين وجدت نفسي في غرفة قد مدت فيها الموائد ووقف خدم القصر يقدمون إلى أعضاء المؤتمر الشاي وأنواع الحلوى والأشربة ( التي يبيحها الاسلام ) وأنا في شاي وحلوى و يرتقال يتبع بعضنا بعضاً كلما فرغت طائفة من تحية الملك تقدم إليها الخدم فسألوها عما تشتهي حتى انتهت المقابلة . أقول إنا في هذا كله وإذا الملك والملكة والأمراء قد خرجوا من غرفة الاستقبال واختلطوا بالناس ، وانبشوا في أنحاء الغرفة يتحدثون إلى المؤتمرين مع شئ من السذاجة وارتفاع الكلفة غريب . وكان الرئيس البلجيكي للمؤتمر الأستاذ « بيرين » ( Pirene ) يتتبع كبار العلماء وذوى المكانة منهم فيقدمهم إلى الملك مرة ، وإلى الملكة مرة أخرى ، وكان

المؤتمرون الباجيكيون يتتبعون بقية الأعضاء فيقدمونهم حيناً إلى ولى العهد  
و حيناً آخر إلى أخيه و حيناً آخر إلى أخته و قد قدمت أنا و زوجي إلى هذه  
الأميرة الصغيرة ، وهي فذة في الثامنة عشرة من عمرها ، مشرقة يتحدث  
وجهها بما يملؤها من قوة الشباب و بما لا يزال يملكها من سداجة  
الطفولة و نوموتها ، في زى ساذج عادى ، كالذى تصطنعه الفتيات في  
أسر الطبقات الوسطى في أوروبا و في مصر . قدمنا إليها على أننا نمثل  
مصر . و قال مقدمنا إننا نمثل بلداً غريباً لالما تتكشف عنه  
المباحث العلمية من عجائب تاريخه القديم بل لما يهر عقول  
الأوروبيين من حركته المدهشة و نهضته السريعة التى بدأت منذ  
سنين فقطعت في زمن قصير ما أفنت أوروبا في قطعه طوال الأعوام .  
فسألت الأميرة زوجي عن المرأة المصرية و مقدار رقيها ، و إن زوجي  
لتصف لها سرعة رقى المرأة المصرية إذ أقبلت سيدة بولونية عالمة  
مؤرخة من أعضاء المؤتمر ، فاندفعت إلى الأميرة دون أن تقدم  
إليها ، و دون أن تستأذن . ثم أسرعت إلى يد الأميرة فهزتها هزاً عنيفاً  
و سألت الأميرة بصوت غليظ : أتخبين التاريخ ؟ أجابت الأميرة في  
استحياء : نعم يا سيدتى ، و أى فرع من فروع التاريخ تخبين ؟  
بهتت الفتاة لحظة ثم قالت : إنى لم أحسن درس التاريخ و لا أعلم  
منه إلا قليلاً ، فلا أستطيع أن أوثر فرعاً من فروعها دون الآخر .

ضحكت السيدة ضحكا عالياً ثم هزت يد الأميرة هزاً عنيفاً وقالت في صوتها الغليظ : أدرسى تلوخي الفن فهو سهل والناس جميعاً يستطيعون أن يفهموه . ثم مضت لشأنها . وقدم إلى الأميرة ناس آخرون . ولبثنا كذلك ساعة . ثم انصرف الملك والملكة والأمراء فانصرف كل منا إلى مأواه

عرفت في هذه المرة أيضاً لهم يحب الباجيكيون ملكهم وملكهم وأمراءهم . وكيف لا أفهم ذلك وقد أقبل من قدمنا إلى الأميرة فصاح بي : مسيو حسين ، تعال أقدمك إلى أميرتنا الصغيرة . وكيف لا أفهم ذلك وقد سمعت الأستاذ « بيرين » يصيح بأعلى صوته : « برنس ليو بولد ! أين البرنس ليو بولد ؟ أين ذهب ؟ إني أريد أن أقدم إليه . . . » فيجيبه أحد الباجيكيين : « ها هو ذا يتحدث إلى فلان » فيذهب الأستاذ بيرين ويمهل الأمير حتى إذا فرغ من حديثه أخذ بذراعه ومضى حتى يقدمه إلى أحد العلماء . والملكة تنقل بين صفوف المؤتمرين فتتحدث إلى هذا وتسال ذاك وتبسم لهذا وتصافح ذاك .

كيف لا أفهم حب الباجيكيين لملكهم وملكهم وأمراءهم

وهم على هذا الحظ من الديمقراطية ؟

الآن إننا في عصر تنتصر فيه الديمقراطية انتصاراً مدهشاً .

لا تستقر في مجالس النواب ولا في مجالس الشيوخ ، وإنما تتجاوز  
هذه المجالس إلى قصور الملوك ، فينزلها هؤلاء الملوك من قصورهم  
أحسن منزل لأنهم يفهمون أن عروشهم لا يستطيع أن تقوم إلا عليها .  
لأنهم يفهمون أن نظام الملك قد أصبح لا يلائم هذا العصر لأنه  
أثر قديم لا معنى له الآن إلا إذا لم يكن بين الملوك ورؤساء الجمهوريات  
فرق ما . إلا إذا اعتمدت عروش الملوك على قابول الشعب لا على  
قوة الجيش ولا على قوة السنة القديمة .

فهم بعض ملوك أوربا هذا فاستقرت عروشهم ويظهر أنها  
تريد أن تستقر أبداً . ولم يفهمه بعضهم الآخر فهم الآن يذوقون  
مرارة النفي على شواطئ بحيرة « ليمان » ( Léman ) في سويسرا .

باريس في ٢٥ إبريل سنة ١٩٢٣

# ٦

أصبحنا يوم الأربعاء ١١ إبريل فتنفرقنا لا في أنحاء بروكسل بل في أنحاء بلجيكا . ذلك أن الذين أشرفوا على تنظيم المؤتمر لم يفكروا في جمع المؤرخين من أقطار الأرض وإيجاد الصلة بينهم وتمكينهم من أن يعلم كل منهم ما عند صاحبه من التاريخ . وإنما فكروا مع ذلك في شيئين آخرين ، وإن شئت فقل في أشياء أخرى : فكروا في أن البحث العلمي الجاف ثقيل حتى على أنفس العلماء ولا بد من أن يتخلل بحثهم العلمي شيء يسرُّ ويرضى ويفيد ، دون أن تكون الصلة منقطعة بين هذا الشيء وبين البحث العلمي الذي يشتغل به العلماء . وأي شيء ، ألد وأنفع وأشد صلة بالتاريخ من زيارة الآثار التاريخية المختلفة التي تنبت في جميع أنحاء بلجيكا بكثرة مدهشة ؟ ولا سيما إذا لم تكن هذه الآثار تاريخية فحسب ، بل كانت مع ذلك آيات بينات من آيات الفن الجميل على اختلافه . ففكر الباجيكيون في ذلك ، وفكروا في شيء آخر وهو أن بلدهم يخرج من حرب ضروس قد أخضعته لضروب من الحن والحمرمان لم يعرفها قبل هذه الأعوام الأخيرة وهو الآن يجتهد في إصلاح ما أفسدت الحرب ، وهو محتاج في هذا الإصلاح إلى عطف الأمم على اختلافها ، ومن هنا كان

محتاجا إلى نشر الدعوة وبعث عواطف الإعجاب والاحترام والاشفاق .  
والفرصة سانحة فالمؤتمر يمثل أكبر أئمة الأرض . وأعضاء المؤتمر من  
خيرة الذين يمثلون الأمم ، لأنهم علماء ، وكلهم أستاذ أو مؤلف . وإذن  
فكلهم قادر على نشر الدعوة ، ماهر فيه ، وإذن فلا بد من التأثير  
في هؤلاء العلماء وإحياء هذه العواطف المختلفة في نفوسهم ، وأي  
سبيل أهدى إلى ذلك من زيارة الآيات الفنية البينة؟! أضف إلى  
هذا أن تفرق المؤتمرين في أنحاء بلجيكا لا يخلو من فائدة اقتصادية  
في بلد ساء القطع فيه واشتد فيه غلاء الحياة . فبكثير جداً من  
المؤتمرين قد وفدوا من بلاد غنية مثرية فهم يستطيعون أن ينفقوا  
عن سعة ، دون أن يفسروا كثيراً . وبلجيكا في حاجة إلى أن ينفقوا  
وليس ينبغي أن يقتصر إنفاقهم على مدينة بروكسل فهناك مدن  
بلجيكية أخرى تحتاج إلى هذا الإنفاق . وإذن فيحسن أن يتفرق  
المؤتمرون في أنحاء بلجيكا لينتفعوا هم ولتستفيد بلجيكا من الوجهة  
المادية والمعنوية ، لهذا كله خصص الذين نظموا المؤتمر يوم الأربعاء  
١١ إبريل لسياحات تاريخية أو أثرية أو فنية . وعينوا مدناً مختلفة  
يختارها من شاء من المؤتمرين . وندبوا في كل مدينة أستاذاً أو أستاذة  
يقودون المؤتمرين ويرشدونهم ويفسرون لهم ما يرون ، فذهب  
بعض المؤتمرين إلى مدينة « بروج » ( Bruges ) وبعضهم إلى

« جان » ( Gand ) و بعضهم إلى « ليمبج » ( Liéeg ) وآخرون إلى « انفرس » ( Anvers ) وكثير إلى المدينة الشهيدة الممذبة مدينة « لوفان » ( Louvin )

وكنا بين الذين ذهبوا إلى « بروج » فوصلنا إلى هذه المدينة في الساعة الثامنة من صباح يوم صحو قد صفت فيه السماء وانتشرت فيه الشمس الفاترة على هذه المدينة المشرفة على الموت ، والتي أزهرت في القرون الوسطى إزهاراً لم تعرفه مدينة باجيكية أخرى . والتي لا تكاد تقع فيها العين على شيء حديث وإنما كل شيء فيها قديم . كل شيء فيها يرجع عهده إلى القرن العاشر والحادي عشر ، وأحدث ما فيها يرجع عهده إلى القرن السادس عشر . مدينة هادئة مطمئنة لا تكاد تحس حركة ولا اضطراباً إلا ما يحدثه الترام على هذه الأرض التي لم يصطنع فيها « الأسفلت ولا المكدام » وإنما حجرت على طريقة القرون الوسطى . فالمشى فيها شاق متعب مهلك للأحذية . والترام والعربات فيها ضجيج شديد . مدينة هادئة مطمئنة فقيرة جداً ولكنها غنية جداً . فقيرة لأن الحياة الاقتصادية الحديثة صرفت عنها الحركة التجارية والصناعية ، وغنية بما فيها من آثار الفن وبما فيها من مصادر التاريخ ، فقيرة غنية فأهلها يعيشون من الأجانب كما حدثنا الأستاذ الذي كان يرشدنا إلى الآثار في هذه المدينة .

مدينة هادئة مطمئنة لا تكاد تشعر بأنها تعيش في القرن العشرين لأنك لا تنظر فيها إلا إلى شيء قديم . فهي مدينة خليقة حقاً بأن يعيش فيها من يكاف بالتاريخ ومن يكاف بالفن على اختلاف ضروبهم بنوع خاص . كل شيء في هذه المدينة يحجبها إلى المؤرخ ويحجبها إلى الفنى ويحجبها إلى الشاعر . لأنها كلها آثار ولأنها كلها فن ولأنها كلها شعر . وهى إلى هذا كله من الهدوء والطأنينة والدعة بحيث يستطيع المؤرخ والفنى والشاعر أن يستمتع فيها بتاريخه أو فنه أو شعره دون أن تصرفه عما يجب جلبه الحياة أو ضوضاء الأحياء .

تلقانا في هذه المدينة مدير المحفوظات وعالم آخر من علماء الآثار . وكنا نحو الحسين فقضينا اليوم كله على أقدامنا واقفين أمام مشهد من المشاهد ، أو منطلقين من هذا المشهد إلى مشهد آخر . نخرج من كنيسة إلى كنيسة ، ومن دار إلى دار ، ومن متحف إلى متحف ونحن عجلون لأننا لن نجد من الوقت ما يمكننا من أن نشهد كل شيء ، أو أن نحقق النظر فى شيء . وإنما نمر سراعاً أمام الأشياء كأننا فى دار الصور المتحركة ، إلا أننا نحن الذين يتحركون بينما الصور هادئة مستقرة فى أماكنها . قضينا اليوم كله على الأقدام إلا ثلاث ساعات قضينا إحداها فى الفندق للغداء . وأؤكد لك أن أصحاب هذا الفندق عرفوا أننا أجانب وعرفوا كيف يستفيدون من هؤلاء الأجانب .

وأؤكد لك أنهم حمدوا للذين نظموا المؤتمر هذه الفكرة التي حملتهم على أن يرسلوا بعض المؤتمرين إلى مدينتهم .

يظهر أنه لم يكن هناك ماء للشرب . فكنت مضطراً إلى أن

تشرب النبيذ أو الجعة أو الماء المعدني . وكل هذا يباع ويشترى .

وأؤكد لك أن ثمنه ليس بالبخس ولا بالقليل . فزجاجة الماء المعدني

لم تكلفنا أقل من ثلاثة فرنكات . ولم نخرج من الفندق حتى أنفقنا

أنا وزوجي خمسة وأربعين فرنكا . ولم يكن الطعام رديئاً ولكنه لم

يكن من الجودة بحيث يستأهل هذا الثمن الباهظ . قضينا ساعة في

الفندق وقضينا ساعتين أخريين أحسبهما من أسعد ساعات الحياة ،

قضيناها في زوارق صغيرة طافت بنا حول المدينة . ذلك أني أنسيت

أن أنبئك بأن « بروج » تسمى « فينيس » الشمال لأن الماء يتخللها

في جميع أنحاءها ، ولأنك تصطنع فيها الزوارق كما تصطنع العربات

في مدينة أخرى ، ولست أدري ماذا تنتج المقارنة بين مدينة « فينيس »

ومدينة « بروج » فكالتا المدينتين غنية بآثارها ، وكالتا المدينتين غنية

بجمال منظرها وحسن موقعها الطبيعي . ولكني أحسب أن الذي

يبحث عن الهدوء والدعة ، ويريد أن يستمتع بالجمال والفن في غير

اضطراب ، إنما يجد ذلك في هذه المدينة الشمالية الميتة أو التي توشك

أن تموت . في هذه المدينة التي لا تمنحها الشمس حظاً من الضوء

إلا بمقدار . وأتى يكاد الضباب يجلها دائماً فيمنحها شيئاً من الروعة والجلال ما أحسب أنك تجدتها في « فينيس » وإن وجدت مكانهما هذا الجمال المبهج المشرق الذي تمتاز به مدن الجنوب .

لقد أريد أن أحدثك عما في هذه المدينة من الآثار ومن آيات الفن ، ولكنني عاجز كل العجز عن هذا ، وأحسبك لا تجهل مصدر هذا العجز ، وبم أحدثك ؟ لقد زرنا آثاراً كثيرة وسمعنا دروساً قيمة . ولو أنني ذهبت أحدثك بما سمعت أو بما وصف إلى في أثر من الآثار أو صورة من الصور ، لاحتاج ذلك إلى مقال طويل وأنا بعد أريد أن أجتزئ ، وأن أفرغ من نبال المؤتمر .

في هذه المدينة أجمل ما في بلجيكا من نماذج العمارة في القرون الوسطى ، وفيها أجمل ما في بلجيكا من نماذج التصوير في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، وفيها إلى هذا آثار مختلفة تمكن المؤرخ من أن يتصور كيف كان يعيش أهل بلجيكا في القرون الوسطى . زرنا قصرًا قديمًا يسمى قصر « جريتوس » فإذا القصر نفسه أثر من أبداع آثار القرون الوسطى . ولكن ما في القصر أبداع وأجمل ، فقد اجتهدت المدينة في أن تحول قسماً منه إلى متحف نظمت فيه الأدوات المنزلية كما كانت منظمة في القرون الوسطى . فإذا زرت هذا المتحف عرفت كيف كان أهل البيت يجتمعون إلى

طعامهم ، وكيف كانوا يُعَدُّون هذا الطعام . وكيف كانوا يجتمعون إلى سمرهم ، وماذا كانوا يتخذون في حياتهم من أداة ومتاع . وأجل ما في هذا القصر من المعروضات « الدنتلا » فقد عُرِضَتْ منها ضروبٌ غيرى أُقَدِّرُ على أن يصفها . ولكنى أعلم أنها بهرت المؤتمرين جميعا . ولم يكن إعجاب السيدات بها أشد من إعجاب الرجال .

ذكرت الزوارق والطواف حول المدينة ، ولكنى لم أذكر - ويظهر أنى لن أستطيع أن أذكر - أثر هذا الطواف فى نفسى وفى نفس غيرى من المؤتمرين . يكفى أن تتخيل هذه الأبنية الضيقة تحترق المدينة فى جميع أرجائها وقد قامت على جنباتها هذه الأبنية الجميلة الجايبة واصطفقت على شواطئها الخضراء أشجار طوال تكاد أغصانها تقبل الماء من مكان إلى مكان وانبعث على هذه الشواطئ ، وخلال هذه الأشجار أطفال كثيرون يلعبون ويمرحون ويدسمون للحياة ، وقد عقدت على هذه الأبنية من مكان إلى مكان جسور بدیعة قديمة لم يغير منها شئ . وما أنس لا أنس صوت الملاح يصف لنا ما كنا نمر به من الأبنية والعمارات ثم يقطع وصفه من حين إلى حين بهذه الكلمة : « رءوسكم أيها السادة » ذلك لأننا كنا نقارب جسراً من الجسور فكان يجب أن نحى رؤوسنا حتى لا تصطدم بالعقد .

أشد شيء أثر في نفسي هو إعجاب أهل « بروج » بمدى نيتهم ومفاخرتهم بما فيها من جمال ، وحرصهم على أن يظهروا دقائق هذا الجمال للأجنبي حتى لا يفوته منه شيء ، وابتهاجهم حين يرون إعجاب الأجنبي وحين يسمعون ثناءه وتقريظه . وهم في ذلك كله سواء . ليس هناك فرق بين الأستاذين اللذين كانا أصحابنا وبين الملاحين الذين كانوا يطوفون بنا حول المدينة . بل ماذا أقول ؟ لقد كنا في أحد المتاحف وكان الأستاذ يصف لنا بعض الآثار ، ولست أخفي عليك دهشى وإعجابي حين رأيت الأستاذ يخطيء في تاريخ من التواريخ أو في شيء من الأشياء فينبهه إلى خطئه حارس من حرس المتحف و يقبل الأستاذ منه ذلك راضيا شاكرًا . ولقد كنت أذكر أثناء هذا متحفنا المصري وجهل المصريين بما في ذلك المتحف . ولقد كنت أقارن مع شيء من الاستحياء كثير بين حرس المتاحف البلجيكية وزملائي من الأساتذة المصريين . فلم تكن المقارنة مرضية ، ويظهر أنها لن تكون مرضية قبل زمن طويل ، قبل أن يمن الله على مصر برجال في وزارة المعارف يفهمون العلم والتعليم و يقدرونهما و يقدرون الحاجة إليهما ويشعرون بأن مناصبهم ليست مقصورة على تدبير الأموال وتدبير الألعاب الرياضية

شيء آخر دهشت له وأعجبت به هو وطنية هؤلاء الناس ،

كنت لا أكاد أشك في أن أحد الأستاذين اللذين كانا يصحبانا  
مجنون أو قريب من الجنون . ذلك لأنه كان لا يتحدث إلينا إلا  
متأثراً تأثراً شديداً فرحاً مرة حتى يبلغ الضحك . ومجزوا مرة أخرى  
حتى يبلغ البكاء . ولست أغلو فقد كان الأستاذ يضحك ويبكى .  
وكننا في عجب من أمره ثم علمنا أنه عاش في مدينته أثناء الحرب  
وأنه كان بطلاً من أبطال هذه المدينة ، وأنه جاهد جهاداً عنيفاً ليحتفظ  
بآثار هذه المدينة وآياتها من غارات الألمان الذين كانوا يريدون  
أن يستأثروا بكل شيء . ولقد أثر في نفسى صوت هذا الرجل حين  
كان يقول لنا : « تعالوا أيها السادة إلى الميدان الكبير فستسمعون  
فيه صوت جرسنا العتيق الذي لا يجهله مؤرخ . واذكروا أيها السادة  
حين تسمعون صوت هذا الجرس أنى أنقذته في آخر لحظة حين كان  
الألمان يريدون أن يرسلوه إلى المسبك » ذهبنا إلى الميدان الكبير  
وسمنا صوت الجرس : صوتاً يملأ المدينة . وليس في ذلك غرابة  
فهو قد أنشئ ، لذلك ، سمنا صوت الجرس بوقع الحنا موسيقية مختلفة ،  
وإننا كذلك وإذا الرءوس حاضرة لأن الجرس كان يوقع المشيد  
البلجيكي وإذا الأستاذ ينتحب ويقول في صوت متهدج : « معذرة  
أيها السادة فاني بلجيكي » ولم يكن الأستاذ يبكى وحده وإنما بكى معه  
بعض المؤتمرين

باريس في ٥ مايو سنة ١٩٢٣

## V

عدنا إلى العمل صباح الخميس ١٣ إبريل فسمعت محاضرات كثيرة مختلفة لا أعرض لها لأن الصحف السيارة لا تتسع لمثلها . ولكني أذكر محاضرة واحدة سمعتها في لجنة تاريخ الديانات ، لأن الذي ألقاها صديق لكثير من المصريين وهو الأستاذ « لويس ماسينيون » (Louis Massinon) ولأن هذه المحاضرة أثارت مناقشة طويلة حادة ، ولأن موضوع هذه المحاضرة يمس الإسلام وهو « أثر التصوف في تكوين العقائد الدينية عند المسلمين » . والحق أني لم أفهم الغرض الذي رمى إليه المحاضر وإن كنت قد اشتركت في المناقشة ، لم أفهم هذا الغرض لأنه لم يكن بيّناً ، ولأن أساس البحث الذي ذهب إليه المحاضر خطأ فيما أعتقد ، فكثير من المستشرقين أمثال الأستاذ « لويس ماسينيون » على مهارتهم وحسن بلاغهم في فهم اللغة العربية وخدمتها ، يخضون في فهم هذه اللغة أحياناً ويقيمون على أغلاطهم نظريات طويلة عريضة عميقة ، ولكنها ليست بذات غناء ، لم أفهم الغرض الذي رمى إليه الأستاذ ، وأحسب أن كثيراً من الأعضاء لم يفهم هذا الغرض ، ومع هذا فقد تناقشنا وتناقشنا كثيراً ، ولكن موضوع المناقشة لم يكن ما أراد

الأستاذ أن يثبت من تأثير التصوف في تكوين العقائد الدينية عند المسلمين . فلم يحفل أحد من الأعضاء بهذه النظرية وإنما كان موضوع المناقشة هو أن التصوف العربي أثر خالص من آثار العرب أو شيء للعرب فيه حظ ، ولكن معظمه موروث عن الأمم الأخرى . أما الأستاذ « ماسينيون » فكان يعتقد أن هذا التصوف عربي خالص أو يوشك أن يكون عربياً خالصاً ، وأن ما يمكن أن نجد فيه من موافقة لما عند الأمم الأخرى لم يؤخذ عن هذه الأمم وإنما هي المصادفة وتوارد الخواطر ووحدة النظام العقلي في التفكير مهما تختلف الأمم ومهما تختلف البيئات . فليس حتماً إذا فكر العربي كما فكر اليوناني أن يكون العربي قد أخذ عن اليوناني ، ولكن من المعقول جداً أن يكون اليوناني والعربي قد فكرا بطريقة واحدة فاهتديا إلى نتيجة واحدة وإذن فيجب ألا تغلو في القول بأن العرب قد أخذوا عن غيرهم هذه النظرية أو تلك

هنا اشتدت المناقشة فمن الظاهر أن توارد الخواطر ممكن . بل إنه واقع . بل إن هناك نظريات تشترك فيها أمم مختلفة دون أن تكون إحداها قد أخذتها عن الأخرى ، ولكن إمكان الشيء غير وجوده بالفعل ، وليس يستطيع التاريخ أن يكتفي بالامكان والفرض فذلك شيء قد يكتفي به الفلاسفة والمفكرون . فاما المؤرخون

فيريدون الحقائق الواقعة ولا ياجتثون إلى الافتراض إلا لتفسير هذه الحقائق تفسيراً مؤقتاً حتى يتاح لهم استكشاف الحقائق الواقعة التي تفسر ما لديهم . فاذا رأينا عند العرب فكرة صوفية أو غير صوفية توافق ما رأينا عند اليونان أو عند الفرس كان لنا أن نفترض تواردها الخواطر ، وكان لنا أن نفترض أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس . كان لنا أن نفترض الأمرين جميعاً وأن نبحث عما يرجح هذا الفرض أو ذاك . وهنا تظهر قيمة المؤرخ وتظهر قيمة التاريخ . وليس يجب أن نجد النص التاريخي الذي لا يحتمل الشك على أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس لنتفي تواردها الخواطر ، فكثيراً ما تضعيم النصوص دون أن يكون ضياعها مصدراً لضياع الحقيقة . وليست النصوص كل شيء في التاريخ فهناك الصلات التي تختلف قوة وضعفاً وتتفاوت متانة ووهنا بين الأمم . وهذه الصلات إذا ثبتت ثبوتاً تاريخياً كافياً أبحاث للمؤرخ أن يرجح تأثير الأمم بعضها في بعض . وليس يجب أن يكون هذا التأثير ظاهراً يعلمه الناس جميعاً ، يعلمه من أثر ومن تأثير فأشد أنواع التأثير عملاً في الحياة الاجتماعية بل في الحياة الدولية - إن صح هذا التعبير - هو ما كان خفياً يجبهه مصدره كما يجبهه قابله . فاذا ثبت أن اليونان مثلاً كانوا يرون هذا الرأي بعينه وكان فلاسفتهم يشرحونه ويفسرونه

ويدرسونه في المدارس المختلفة ، وأن اليونان قد وصلوا إلى الشرق  
ونقلوا إليه عنهم وفلسفتهم وتركوا فيه عادات وضروريات من التفكير  
ليس إلى إنكارها من سبيل . وإذا ثبت أن هذه الآراء ، أو هذا  
الرأي لا يلائم ما نعرف عن بداوة العرب ولا عن صدر الإسلام ،  
كان من الحق أن يرجح المؤرخ أن ظهور هذا الرأي أو هذه الآراء  
في فلسفة العربية أو في التصوف العربي بعد أن اختلط العرب  
بالأمم التي خضعت لتأثير اليونان ، وبعد أن تعربت هذه الأمم  
فكتبت علمها وفلسفتها بالعربية ، بعد أن كانت تكتبها باليونانية -  
أثر من آثار الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني لا نتيجة من نتائج الابتكار  
العربي . وقل مثل هذا في الفقه ، فنحن نعلم أن العرب لم يرجعوا فقه  
الرومان ولم يدرسوه درسا منظمًا ، ولكننا لا نشك في أن الفقه  
الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلًا أو كثيرًا سواء أعلّم بذلك  
الفقهاء أم لم يعلموا . ذلك لأن البلاد الإسلامية قد خضعت لحكم  
الرومان وقوانينهم دهرًا ، ولأن هذه القوانين قد درست درسا مزهرا  
في الشام والجزيرة ومصر ، فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم  
ودرس هذه القوانين آثارًا قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها  
وأن تتكون من هذه الآثار الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب  
لم يهدموا كل شيء ، وإنما صبغوا أكثر الأشياء التي وجدوها بالصيغة

الإسلامية ، فليس غريباً بل ليس من شك في أن كثيراً من أحكام  
الفقه الروماني قد اضطبغت بالصبغة الإسلامية دون أن يشعر الفقهاء  
بذلك . فنحن نحسب هذه الأحكام إسلامية خالصة حين هي  
إسلامية رومانية . لا يغضب العلماء فانا أذكر الفروع لا الأصول ،  
ولعلمهم لا ينكرون أن الفقهاء يعتبرون العرف في كثير من مسائل  
الفقه ، وأن هذا العرف إنما يكون من النظام اليوناني والروماني  
والفارسي ، هذه النظم التي تعاقبت على الشام ومصر والجزيرة . وإذن  
فهناك تأثير خفي قد يكون أشد وأقوى من التأثير الواضح الذي تحدثه  
الأمم بعضها في بعض ، ومن الإسراف أن نقطع بأن هذا الرأي أو  
هذه النظرية أثر عربي خالص أو أثر يوناني خالص ، وإنما سبيل  
القصد في ذلك - إذا لم توجد النصوص - هو ترجيح تأثير الأمم  
بعضها في بعض حتى يظهر ما يبين خطأ هذا الترجيح

حول هذه النقطة دارت المناقشة ولم يستطع الأستاذ « ماسينيون »  
أن ينكر صحة هذا الاستدلال . ولكن الذي أعجبنى في هذا كله  
أن خمسة أو ستة اشتركوا في هذه المناقشة غير الأستاذ « ماسينيون »  
وغيري . وكان منهم الفرنسي والإنجليزي وكانوا جميعاً يلمون بتاريخ  
الدين الإسلامي إماماً حسناً يمكنهم من المناقشة والاستدلال  
ببعض النصوص ، بل أن أحدهم كان يستدل بنصوص لا نستطيع

نحن في مصر أن نستدل بها مع أنها نصوص إسلامية لأنها  
نصوص فارسية ولأن علماء الدين الإسلامي في مصر يكتفون  
بدرس شيء من الكتب العربية . وليس منهم من يتخصص بدرس  
تاريخ الدين الإسلامي عند الفرس أو عند الهنود وبقراءة ما كتب  
الفرس أو ما كتب الهنود في الدين . وحسبك أن المئات من علماء  
الإسلام في مصر لا يعرفون إلا اللغة العربية ، ولست أطلب العلماء  
بدرس اللغة الفرنسية والإنجليزية فقد يكون ذلك واجباً محتوماً ،  
وإنما أطلبهم بشيء آخر أشد من هذا وجوباً وهو أن يدرسوا الدين  
الإسلامي كما ينبغي . والدين الإسلامي عربي ولكن أمما غير  
العربية قد اعتنقته ودرسته وكتبت فيه ، وأؤكد للعلماء أن الدين  
الإسلامي قد أثر في هذه الأمم كثيراً وتأثر بها كثيراً ، وإذن ؟  
وإذن فمن الحق على علماء الإسلام أن يدرسوا تاريخ الإسلام  
لا في مصر والشام وحدهما ، بل فيهما وفي بلاد الإسلام الأخرى .  
ولو أنى من علماء الإسلام ، ولو أن لى كلمة مسموعة بين علماء  
الإسلام ، لاقترحت وألححت في الاقتراح أن تدرس اللغات الأجنبية  
الإسلامية في الأزهر الشريف وأن تكون هناك فصول تخصص  
في درس الفارسية وأخرى في درس التركية وأخرى في درس اللغات  
الإسلامية التي ليست تركية ولا فارسية . فمن المؤلم ومن المخزي أن

تدرس كتب الدين التي كتبت بالفارسية أو بالتركية أو بلغة أخرى من لغات الهند مثلاً في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا وأن يجعلها علماء الإسلام في الأزهر الشريف . والأزهر الشريف بعدُ هو الجامعة الإسلامية الكبرى . . .

علموا أيها السادة العلماء طالبوا بأن تدرس اللغات الإسلامية في جامعتكم الإسلامية درساً مفصلاً نافعاً فانكم إن لم تفعلوا أضعتم على الأزهر حقه في أن يكون الجامعة الإسلامية الكبرى . وليس ينبغي أن تكون مدرسة اللغات الشرقية في باريس أنفع من الأزهر الشريف .

أليست المطالبة بهذا والإلتحاق فيه أوفق بعلماء الدين وأجدي عليهم وعلى الدين من مطالبة من كان يطالب بأن تكون المعاهد الدينية فوق الدستور؟

أما مساء الخميس فقد كان لدينا لأننا قضينا شطراً منه نستمتع بلذة الموسيقى وقضينا الشطر الآخر في بيت وزير المعارف . اجتمعنا الساعة الثانية في كنيسة أثرية كبرى في بروكسل هي كنيسة « سانت جودول » وكنا قد دعينا إلى هذا الاجتماع لا للصلاة ولا للتقديس ، ولكن للدرس والتاريخ في لذة ومنفعة . هنا خطبنا قسيس فلم يتحدث إلينا في دين المسيح ولم يفسر لنا إصحاحاً من

الانجيل أو آية من التوراة . وإنما نحدث إلينا في الفن . ونحدث إلينا في الآثار . ذلك أن هذه الكنيسة قديمة بعيدة العهد بالتاريخ ، بدىء في إنشائها في القرن الثاني عشر واختلفت عليها أطوار الفن والعمارة إلى آخر القرن السابع عشر . فخطبنا هذا القسيس ساعة وبعض ساعة ميينا لنا هذه الأطوار المختلفة التي مرت بها الكنيسة مقارناً بين هذه الكنيسة وبين ما يشبهها من كنائس فرنسا وألمانيا من الوجهة الفنية خاصة ، مناقشاً آراء بعض الفنيين والأثريين من الألمان والفرنسيين ، لأن هذه الكنيسة لا تزال تشغل الباحثين إلى اليوم وإلى الغد ، أعترف بأنى لم أكن أفهم شيئاً كثيراً من خطبة القسيس لأنى لست أثرياً ولا فنياً ولا أكاد أتصور فن العمارة ، ولكنى مع هذا كنت أعجب بهذا القسيس إعجاباً شديداً لا يعداهُ إلا إعجابى بقسيس آخر خطبنا في المؤتمر خطبة ليس بينها وبين الدين صلة لأنها كانت تتناول نسخة قديمة يختلف العلماء في تحديد العصر الذى نسخت فيه ، فيرى بعضهم أنها نسخت في القرن العاشر وبعضهم قبل ذلك وبعضهم بعد ذلك ويحكم القسيس بين هؤلاء العلماء المختلفين . كنت إذن أعجب بهذين القسيسين ، ولعل مصدر إعجابى بهما لا يخفى على السادة العلماء . وأنا أعتذر إلى السادة العلماء ، فست أريد أن أغضبهم وما أبغى

بهذا الحديث إلا الخير لهم ولنا . ذلك لأن علماءنا لا يستبدون  
بملك أنفسهم فلنا عليهم بعض الحقوق لأننا نريد أن يكون علماء  
الدين فينا أئمة وفخراً في وقت واحد . ويؤلمني جداً أن أقارن بينهم  
وبين رجال الدين في أوروبا . لأن هذه المقارنة لا تسرهم ولا ترضيهم  
كما أنها لا تسرنا ولا ترضينا . كما أنها تدل على أن الفرق عظيم  
جداً بين علماء الدين اليوم وبينهم منذ قرون .

هذا قسيس قد درس دينه فأتقنه وهو يؤدي واجبه الديني .  
وأؤكد لك أن الواجب الديني الذي يؤديه القسيس أشق وأعسر  
وأشد استغراقاً للوقت من الواجب الديني الذي يؤديه العالم المسلم ، لأن  
الاسلام دين هين لين سهل لا كلفة فيه ولا تعقيد . وحسبك أن  
صلاة المسلم تستغرق دقائق ، وأن صلاة القسيس المسيحي لا تقاس  
بالدقائق . وحسبك أن العالم الديني عندنا إذا صلى وأدى واجباته  
الدينية الشخصية وألقى درسه أو درسيه فهو حر . وأن القسيس  
ليس له من الحرية مثل هذا المقدار العظيم . ومع ذلك فالقسيسون في  
أوروبا لا يكتفون بدرس الدين وأداء واجباتهم الدينية . وإنما كثير  
منهم رجال دين ورجال علم ، وكثير منهم رجال دين ورجال فن .  
وكثير منهم يستطيع أن يناهض العلماء والفنيين الذين اقتصوا بالعلم  
والفن فيهمضهم ويتفوق عليهم . وهذان القسيسان المذان ذكرتهما

قد اقتص أحدهما بفن العمارة واقتص الآخر بعلم من علوم التاريخ .  
وأؤكد لك أن لجنة من لجان المؤتمر لم تكن تخلو من قسيس وأن  
اللجنة التي كنت فيها كان يرأسها قسيس ، وأنه أظهر عناية شديدة  
بصبح الأعشى وما يشتمل عليه صبح الأعشى ، وأؤكد لك شيئاً  
آخر وهو أن الفلاسفة إذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ،  
وأن علماء الكيمياء إذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ، وقل  
مثل ذلك في الأطباء وقل مثل ذلك في علماء الحياة ، وقل مثل  
ذلك في علماء الرياضة . وما لي أذهب بعيدا وفي مصر مدارس  
اليسوعيين ومدارس الفرير ، وفي فرنسا جامعات تقوم على رجال  
الدين ويدرّس فيها أبناء الأرستقراطية المحافظة ، فإذا تقدموا إلى  
الامتحانات العامة في الجامعات الحكومية لم يكونوا أقل نجاحاً من  
غيرهم وربما كانوا أكثر منهم فوزاً

فأحب الآن أن تحدثني عن علمائنا في مصر ، مع من يستطيعون  
أن يأتهموا ؟ أمع المؤرخين وهم مجهلون جهلاً تاماً تاريخ أوروبا  
وأمریکا بل تاريخ الشرق بل تاريخ اليونان والرومان . وأستحي  
أن أذكر تاريخ الاسلام ؟ أمع الجغرافيين أم مع الرياضيين أم مع  
علماء الحياة ؟ سينعقد في مصر مؤتمر جغرافي بعد سنتين ، فهل يشترك  
فيه علماء الدين ؟ ذلك لأنني لقيت في بروكسل أسقفاً فرنسياً سألني

عن جمعيتنا الجغرافية المأكينة وعامت منه أنه سيشترك في مؤتمرنا الجغرافي . ووقع بأنه لن يكون الوحيد من رجال الدين المسيحي في هذا المؤتمر

أليس يحسن؟ أليس يجب على علماء الاسلام في مصر أن يبذلوا ما يملكون من جهد وقوة ليكونوا كغيرهم من رجال الدين؟ ليكون منهم المؤرخ والجغرافي وعالم الكيمياء وعالم الطبيعة والفلكي ( وإنما أريد الفلكي الحديث ) كما أريد إذا ذكرت المشتغل بالطبيعة من لا يكتفي بدرستها في إشارات ابن سينا .

أيشعر علماء الدين عندنا بهذا البون الذي يساعد بينهم وبين علماء الدين في أوروبا؟ أيشعرون بأنهم يحسنون إلى أنفسهم إن أزالوا هذا البعد؟ ويحسنون إلى أمتهم أيضا لأنها تستطيع يومئذ أن تعترف بهم حقا وأن تأتم بهم حقا في دينها ودنياها؟

سمعنا خطبة القسيس ، ثم سمعنا بعدها ضروبا من الموسيقى الدينية القديمة التي أحدثها يرجع إلى القرن الخامس عشر ، وأشهد أني أعجبت بهذه الموسيقى وأشهد أني طربت لهذا الغناء اللاتيني الجميل . ولكني لا أطلب بأن أسمع موسيقى أو غناء في مساجدنا ، فأنا أعلم أن مساجدنا إنما أنشئت لذكر الله ، ولدكر الله في سداجة وسهولة . لا أطلب بذلك ولا أفكر فيه ، وحسبي أن التذكر في المسجد بترتيل

القرآن الكريم . وإنما أطلب بشيء وألخفيه الالاحاح كله ، أطلب بأن يكون من بين علمائنا من يستطيع أن يحدثنا عن تاريخ الأزهر الشريف ، وجامع قلاوون ، وجامع برقوق ، من الوجهة الفنية كما استطاع قسيس بروكسل أن يحدثنا عن كنيسة « سانت جودول » سمعنا الموسيقى وطر بنا لها ، ثم أردنا أن ننصرف فإذا إكليل من الزهر ضخيم يديع قد وضع ناحية في الكنيسة . وإذا قوم من جماعة المؤرخين قد تقدموا فحنوه ومضوا فتبعهم المؤتمرون في وقار وإجلال ، وما هي إلا دقائق حتى وصلنا إلى قبر الجندي المجهول ، فإذا هذا الإكليل يمثل تحية مؤتمر العلوم التاريخية لأبناء بلجيكا الذين قضاوا في الدفاع عن وطنهم .

أما ليلتنا عند وزير المعارف فلا أحدثك عنها إلا بشيء واحد وهو أن جميع المؤتمرين كانوا في قصر الوزير ، وكان معهم سفراءهم أو وزراءهم المفوضون إلا مصر ، فلم يكن لها سفير ولم يكن لها وزير مفوض ، ولم يكن لحكومتها مندوب وإنما كان هناك طربوش حائر بين هذه الجماعات . ولولا أن وزير المعارف كان قد أنبىء بمكان هذا الطربوش لما شعر به أحد . ولكن الوزير أقبل ومعه رئيس مكتبه فخياني تحية حسنة ودعاني مندوب مصر فلم أصلح خطاه . ثم لقيت أثناء السهرة مؤرخاً شاباً بولونياً تعرف إليّ لأن زوجه تعرفت

الى زوجى ودعاها الى هذا التعرف الطربوش ، وكان هذا العلم  
لبولوني الشاب مندوب عصبة الأمم فى مؤتمر العلوم التاريخية  
لان عصبة الأمم قد منحت نفسها فى مؤتمر العلوم التاريخية وكيف  
تفعل وقد أنشأت لجنة عامية سميتها لجنة التعاون العلمى ؟

صاحبنى هذا الشاب وقال : هناك مسألة تحيرنى ولعلك تجيبنى  
عليها ، ما بال مصر لم تمثل فى عصبة الأمم ومتى تطلب هذا التمثيل  
فنا أعترف أيها القارىء بأنى كذبت ولم يكن مصدر الكذب إلا  
الحياء ، ذلك لأنى أجبت سائلى على الفور : « ستطلب مصر  
الانضمام إلى عصبة الأمم فى هذه السنة » . قال صاحبنى : إذ  
سيرد طلبها قبل انعقاد الجمعية العمومية ؟ قلت : أعتقد ذلك  
فهل لرئيس الوزراء أن يعفبنى من خزي هذه الكذبة التى  
يضطرنى اليها إلا تقصير حكوماتنا وتفريطها فى الاستمتاع بما  
نحق ؟



كان يوم الجمعة ١٣ إبريل يوم الشرق في المؤتمر و بعبارة  
أخرى يوم مصر . ولم يكن يوم الشرق أو يوم مصر في المؤتمر وحده  
بل كان في بروكسل كلها . . . فقد اشترك كثير جدا من أهل هذه  
المدينة رجالا ونساء في جلسة المؤتمر العامة التي عقدت بعد الظهر  
لسماع خطيبين تكلم أحدهما عن استكشافات فرنسية على شاطئ  
الفرات ، وتكلم الآخر عن مقبرة توت عنخ أمون ، وكان كلا  
الخطيبين يصطنع الفانوس السحري لعرض صور مما استكشف على  
شاطئ الفرات أو في مصر ، وكانت الصحف قد أعلنت هاتين  
الخطبتين وتحدثت بهما ، فأسرع المؤتمرون وغير المؤتمرين إلى  
استماعهما ، وما أشك أننا كنا آلافا من الساعة الثانية إلى الساعة  
الخامسة بعد الظهر . على أن صباح هذا اليوم قد أنفق في أعمال  
هادئة فأجتمعت اللجان وسمعت ما ألقى فيها من الخطب وما قدم  
إليها من المذكرات . وسمعت أنا في صباح هذا اليوم مذكرات  
ثلاثا ممتعات : إحداها في نقد بعض الطباعات لمحفوزات رسمية  
فرنسية تتصل بما قبل الثورة ، والأخرى في إظهار تزوير كتب  
رسمية نشرها أحد السفراء الرسميين للويس الرابع عشر عن أعمال

قام بها في إنجلترا وهو لندا باسم لويس الرابع عشر ، والثالثة في كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا و بولونيا بعد الحرب الكبرى . ولكن لا أطيل في ذكر هذه المحاضرات وقيمتها فقد لا تصاح الصحف السيارة لمثل هذه المباحث العلمية الجافة التي ليس بينها وبين مصر صلة ما .

عدنا إلى الاجتماع إذن بعد الظهر وكان رئيس المؤتمر كان يشعر بشوق الناس إلى استماع هاتين الخطبتين ، وكان يجد لذة شيطانية في ممانعة هذا الشوق . فقدم إلى الخطابة عالما روسيا تحدث عن التاريخ الروماني وعمما كان من الأزمنة الاجتماعية في الامبراطورية الرومانية أثناء القرن الثالث بعد المسيح وكانت خطبته لذيذة مفيدة ، وكان الناس يستمعون لها في شيء من الضجر والسأم لأنهم لم يحضروا لاستماعها وإنما حضروا لشيء آخر ، ومع أنه أطال فلم يكتف رئيس المؤتمر بخطبته بل قدم أمريكيا تكلم عن أخلاق « كاترين دي ميديسيس » وكان يتكلم بالانجليزية فلم يفهمه إلا قليلون ، ثم قدم الرئيس خطيبا ايطاليا تكلم عن نقوش مسيحية استكشفت في ايطاليا وعن جمعية ايطالية أسست للبحث عن النقوش المسيحية التي نقشت بعد انتهاء عصر التاريخ القديم ، وقدم إلى المؤتمر مجلدات نشرتها هذه الجمعية مشتملة على بعض هذه النقوش . ثم

قدم الأستاذ « كيمون » فتحدث عن الاستكشافات الفرنسية على شاطئ الفرات . هنا ابتهج الناس وأظهروا سرورا ما أظن إلا أنه ساء الخطباء الأولين . وكانت خطبة الأستاذ « كيمون » الـذ ما سمعت في المؤتمر ، بل أعترف بأنها لذتى أكثر من الخطبة التي تلتها عن مقبرة فرعون

ذلك لأن هذه الخطبة التي تناولت استكشاف الفرات كانت تتناول موضوعا أفهمه وأستطيع أن أستفيد منه فائدة ما . ولم يكن هذا الموضوع ضئيلا ولا قليل الخطر وإنما كان عظيم الخطر جداً . وحسبك أن هذه المدينة التي استكشفت وهي مدينة « دورا » كانت من أعمال « تدمر » وكانت ملتقى حضارات ثلاث ، كلها تعيننا ، وكلها نستطيع أن نفهمها ونستطيع أن نبحث عنها ونخرج من البحث بشيء من الفائدة . كانت ملتقى الحضارة السامية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية . وقد استكشفت هذه المدينة أثناء الحرب ولكن استكشافها والبحث عنها لم يتما إلا في ديسمبر الماضي . فإذا الآثار اليونانية والسامية والرومانية متجاورة يفسر بعضها بعضا ويضيف بعضها إلى بعض . وإذا نقوش سامية ويونانية ولا تينية توجد في المعابد وعلى الجدران . وإذا الفن اليوناني والسامى

يتمزجان ويؤثر كلاهما في صاحبه . و إذا الساميون يتعلمون اليونانية  
و يصطنعون الفن اليونانى و يتسمون بالأسماء اليونانية و يؤدون العبادة  
لآلهتهم السامية فى ضروب ليست بالسامية الخالصة ، ولا باليونانية  
الخالصة ، و إنما هى مزيج مما ألف الجنسان . و إذا الساميون ينحتون  
التماثيل لآلهتهم فيدخلون فى فهم شيئاً من رقة الفن اليونانى . و إذا  
اليونانيون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون فى فهم شيئاً من غلظة  
الفن السامى . و كان أجمل ما عرض ، فأعجب الناس صورة فوتوغرافية  
لتمثال الزهرة الالهة الحب . فإذا هى صورة سامية ، و إذا الالهة تمثل  
امراً شرقية تمتاز بما كان يمتاز به مثال الجمال الشرقى فى هذه القرون  
الأولى للتاريخ المسيحى من الضخامة والفخامة وكثرة الحلى والميل  
إلى شىء من النعومة والاسراف فى الترف ، يخالف ما ألف الناس فى  
الفن اليونانى من صور « افروديت » الالهة الحب والجمال التى كانت  
— على أنها مصدر الفتنة — لا تخلو من قوة وشهامة توشك أن تكون  
حربية . و إذا هذه المدينة الصغيرة التى لم يتم درسها بعد تمثل  
ما كان من الجهاد بين الامبراطورية الرومانية و بين الامبراطورية  
التدمرية . فقد نرى أن الساميين واليونانيين قد وجد بينهم اختلاط  
شديد ، بل امتزاج شديد فكان بينهم الاصهار والتزاوج . و أثر  
هذا الامتزاج فى فنيهم فأخذ من جديد يوجد فنٌ ليس هو بالسامى

القديم ، ولا باليوناني القديم . ولكن الآثار الرومانية منفصلة أو تكاد تكون منفصلة انفصالا تاماً عن الآثار اليونانية السامية .

أعجبت بهذه المحاضرة لأني أليّمُ بشيء من التاريخ اليوناني ، وبشيء من التاريخ الروماني ، وبشيء من الجهاد بين « تدمر » وروما ، ولأن اسم تدمر يذكرني الزباء وما روى عنها في أمثال العرب من هذه الأساطير اللذيذة التي تفيض حكمة وتخلوها الأمثال السائرة . ولكني لما سمعت خطبة الأستاذ « كبار » الذي رافق ملكة باجيكافى مصر لم أجد ما كنت أنتظر أن أجد من اللذة . وبينما كان الناس يعجبون ويصفقون كنت أنا هادئاً مطمئناً . ولعلى أعرف سبب هذا الهدوء والاطمئنان . فإنا أولاً أجهل التاريخ المصرى القديم ، ولا أعرف منه أو لا أكاد أعرف منه شيئاً . فإذا سمعت أخبار توت عنخ آمون أو غيره من فراعنة مصر لم تحدث هذه الأخبار فى نفسى هذه الحركة العلمية التى تحدثها أخبار اليونان والرومان والعرب فتمكننى من أن أصل شيئاً بشيء . وأنتقل من شيء إلى شيء ، أى تمكنتنى من أن أستفيد فائدة علمية ما . ومثل هذا يستطيع أن يقوله الذين يعلمون تاريخ مصر القديم و يجهلون تاريخ الرومان واليونان والعرب ، وإن كان هؤلاء الناس لا يكادون يوجدون . فإذا وجد مصرى يجهل تاريخ مصر فقد

لا يوجد أجنبي يجهل تاريخ اليونان والرومان . فاذا أضف إليهما  
تاريخ مصر استطاع أن يعجب بمحاضرة الأستاذ « كيمون »  
و بمحاضرة الأستاذ « كابر » فاذا سألت عن مصدر هذا النقص  
الذي يجده المصري في نفسه حين يشعر بجهل تاريخ مصر ، وحين  
يسمع محاضرة في تاريخ مصر فلا يلد لها كما يلد ذا الأنجليزى  
والفرنسى فالجواب يسير وهو تقصير الحكومة المصرية أو وزارة  
المعارف المصرية في نشر التاريخ المصرى . فلو أن التاريخ المصرى  
القديم يدرس في مصر كما ينبغي لكان لكل مصرى متعلم حظ  
من الاعجاب بما استكشف اللورد كارنارفون . ولكن ماذا نقول  
وفي مصر أساتذة في الأدب والحقوق والفلسفة والطب يجهلون تاريخ  
مصر ولا يعرفون من أمر توت عنخ آمون إلا ما يقرءون في الصحف  
وكثير منهم لا يقرءون ما تنشره الصحف . يجب أن نحمد الله على  
صدور الدستور فإن يغفر البرلمان في المستقبل لوزارة المعارف المصرية  
مثل هذه الجرائم

هناك سبب آخر حال بينى وبين الاعجاب بخطبة الأستاذ  
« كابر » وهو أن الأستاذ لم يقل شيئاً جديداً أكثر مما نشرته  
« التيمس » و « السياسة » . فكان من المعقول وقد قرأت هذا  
وذاك ألا يشتد إعجابى به حين يعاد . وهل أستطيع أن أضيف

سبباً ثالثاً أعترف بأنه لا يليق بعضو في مؤتمر علمي وهو أن الأستاذ « كابر » كان شديد الميل في محاضراته إلى الانكليز وكان يسرف في الثناء عليهم وعلى ما بذلوا من جهد وما أدوا إلى مصر وإلى العلم من خدمة . وكنت أحب أن تذكر مصر بشيء من الخير وإن لم تكن أهلاً له في هذا الموضوع لأنهم لم تعمل شيئاً في استكشاف مقبرة توت عنخ آمون . ومهما يكن من شيء فقد خرجت عن طور العلماء وضاق صدري بهذا الثناء الكثير يهدى إلى الانجليز . كنت متأثراً بالسياسة أكثر مما كنت متأثراً بالعلم .

كان إعجاب الناس شديداً جداً بهذه الصور الفوتوغرافية التي عرضها الاستاذ « كابر » ولا سيما السيدات ، فقد كانت هذه الصور وصور الجواهر بنوع خاص تفتنهن فتنة شديدة فيصفقن ويتهايمن ويجهدن في أن يملأن أعينهن بهذه الصور التي لن تلبث أن تلهم الصاغة وأصحاب الفن فتعرض جواهر على مثالها في الأسواق والمحال التجارية . ولعل كثيراً من هؤلاء السيدات كن يتحدثن إلى أنفسهن باليوم الذي يستطعن فيه أن يتخذن من الحلى والآنية ما يشبه الحلى والآنية التي وجدت في مقبرة توت عنخ آمون .

كانت هذه الجلسة جلسة مصر أعجب فيها الناس إعجاباً شديداً بمصر القديمة وذكروا فيها مصر الحديثة . وكانت هذه الجلسة آخر

الجلسات العامة للمؤتمر . فستطيع أن تقول أن هذا المؤتمر ابتدئ  
بذكر مصر في تحية الملكة وختم بذكر مصر في خطبة الأستاذ  
« كبار »

ذهبنا بعد ذلك إلى قصر البلدية فتناولنا هناك الشاي : وكنت  
أحب أن أصف لك مافي هذا القصر من آيات الفن ولكني مع  
الأسف قاصر عن هذا كل القصور ثم كان يوم السبت فانقسم  
قسمين : أما الصباح فخصص لزيارة دار المحفوظات ( الدفترخانة )  
وأما المساء فخصص للتفرق في أنحاء بلجيكا القريبة من بروكسل  
والتي تمثل فائدة تاريخية ما . أريد أن أذكر دار المحفوظات هذه  
وأريد أن أقارن بينها وبين دار المحفوظات في مصر . ولكن أصول  
المقارنة تنقصني لأني أجهل نظام الدفترخانة المصرية ولا أعلم من  
أمرها إلا أن زيارتها مستحيلة على العلماء والباحثين إلا بعد عناء  
ومشقة وإذن من وزير المالية قلما يظفر به من يطمع فيه . فالدفترخانة  
المصرية ديوان من دواوين الحكومة تنتفع به الحكومة وحدها في  
أعمالها الرسمية ولا ينتفع به العلماء والمؤرخون . بل لست أدري علام  
تشمّل الدفترخانة المصرية ؟ وهل فيها حقاً ما يفيد المؤرخ إذا أراد  
أن يبحث عما قبل العصر الحديث الذي نعيش فيه ؟ وإلى أي عصر  
من عصور مصر التاريخية يرجع أقدم مافي الدفترخانة المصرية من

المحفوظات . لا أعلم من هذا شيئاً كما أنى لا أعلم شيئاً من النظام الذى يصطنع فى الدفترخانة المصرية ولا مما يتخذ فيها من وسائل الاحتياط لوقاية الأوراق والمحفوظات القديمة ، ولا شيئاً من النظام الذى يتخذ لتسجيل هذه المحفوظات واتخاذ فهارس وأثبتات تسهل البحث على من يريد أن ينتفع بها . أجهل إذن مقدار المحفوظات المصرية وقيمتها ونظم حمايتها والانتفاع بها . ولكنى أعلم أن قسماً واحداً من أقسام الدفترخانة البلجيكية يشتمل على أكثر من ٥٠٠٠٠ دفتر من دفاتر الحساب والقرارات التى كانت تتخذها الحكومات المختلفة منذ القرن الثالث عشر إلى الآن . وأعلم أن هذه الدفترخانة البلجيكية كغيرها من دور المحفوظات فى أوربا مباحة للعلماء والباحثين . قد اتخذت فيها كل الوسائل التى تمكن العلماء من البحث وتسهيل عليهم أسبابه ، فاتخذت فيها الأثبتات المتقنة والفهارس البديعة واختص بكل قسم من أقسامها نفر لا أقول من الموظفين وإنما أقول من العلماء النابهين يقومون على حفظه وتنظيمه والاستفادة منه وتسهيل الاستفادة على من أرادها سواء أكان بلجيكياً أم أجنبياً . ولكن فى دار المحفوظات البلجيكية شيئاً أعجبت به حقاً وأتمنى على الحكومة المصرية أن توجد لنا مثله فى مصر لأنه يفيد فائدة لا تقدر سواء فى ذلك الدفترخانة ودور السكتب المختلفة . وجدت فى دار

المحفوظات الباجيكية معملا واسعا فيه كثير من العمل يشتغلون في أشياء مختلفة غريبة ، يشتغلون مثلا في تنظيف الأوراق القديمة التي بعدَ بها العهد وأفسدها الزمان فطمست الأحرف التي فيها ، و يشتغلون بتقوية الأوراق التي بعدَ بها العهد وأفسدها الزمان فوهت و رثت حتى أصبحت لا تحمل لمس الأيدي ، و يشتغلون بما يشبه هذا مما يُمكن من الاستفادة بكل ورقة قديمة مخطوطة مهما تكن أعراض البلي التي أصابها . ولقد رأينا العمال يشتغلون في ذلك . رأيناهم قد أخذوا أوراقا قدرة لاتكاد تقرأ بل لاتقرأ ، فما زالوا بها في غسل وتنظيف حتى زال عنها الدنس و بدت أحرفها جلية واضحة للقاري ، و رأيناهم يتخذون أوراقا بالية لاتكاد تمس فما يزالون بها يسلطون عليها بعض مواد الكيمياء حتى تقوى وتثبت وتستطيع أن تتناولها وتقلبها كما تقلب ورقة صنعت أمس . أليس مثل هذا المعمل مفيداً في مصر ؟ أليس الأستاذ لطفى بك السيد محتاجا إلى مثله في دار الكتب المصرية ؟

شيء آخر أعجبني هو استفادة دار المحفوظات الباجيكية استفادة تجارية بما يوجد فيها من المحفوظات . ففيها نماذج لاتكاد تحصى لأختام الملوك والأمراء والقواد والامبراطرة والرؤساء على اختلافهم منذ القرون الوسطى . فهي تنتفع بهذه النماذج فتخذها على المعدن

أوعى الجبس أو على غير ذلك وتعرضها للبيع . وأؤكد لك أن  
تهافت الناس عليها شديد ، ولا سيما العلماء وأصحاب الفن والآثار  
الذين يريدون أن يدرسوا هذه النماذج كل من وجهته الخاصة . فهم  
لا يطلبون الدفاتر والأوراق وهم إن استطاعوا أن ينظروا إلى هذه  
الدفاتر والأوراق لا يستطيعون أن ينقلوها ولا أن يستعيروها ولا أن  
يخرجوها من دارها فضلا عن بلجيكا . بينما هذه النماذج المصنوعة  
مباحة لهم يصفعون بها ما يشاءون ، وهذه النماذج ليست سهلة ولا يسيرة  
فلا بد من أن تتخذ بطريقة علمية . ولا بد من أن تنظم وترتب  
وتتخذ لها الفهارس والأبواب . ولست أنسى محاضرة ألقها علينا في  
دار المحفوظات فتاة بلجيكية هي القائمة بالقسم العلمي من إدارة هذه  
النماذج . ولست أنسى مناقشة كانت بينها وبين عالم فرنسي في نظام  
« الفيش » الذي يجب أن يتخذ لهذه النماذج . لا أنسى هذه الفتاة  
ولا أنسى محاضرتها ولا مناقشتها . وأتمنى على الله أن أجد بين  
فتياتنا بل بين كحولنا من يستطيع أن يقوم في دار المحفوظات المصرية  
أو في دار الكتب المصرية مقام هذه الفتاة البلجيكية

تفرقنا بعد الظهر فاخترت الذهاب إلى « واترلو » ولكن  
لا أستطيع أن أذكر لك من أمرها شيئا . فقد تغيرت فيها المعالم ،  
ومحيت فيها آثار هذا اليوم العظيم الذي اندك فيه عرش نابليون .

كل ما هو قائم فيها الآن صناعي متكلف إلا القليل  
ولكني لاحظت شيئاً له قيمته في هذه الأيام وهو أن الذين  
ذهبوا إلى واترلو كانوا جميعاً من الأنجليز ولم يكن منهم فرنس  
أحد إلا زوجي . أما الفرنسيون فتنفروا إلى الجهات الأخرى  
ول بروكسل .

ثم اجتمعنا يوم الأحد في الجلسة الأخيرة للمؤتمر فالتخذ  
ارات مختلفة أهمها هذا القرار الذي أتمنى ألا تهمله مصر ، و  
يف جمعية تاريخية دولية دائمة تشترك فيها الأمم على اختلاف  
المانيا طبعاً . اتخذ هذا القرار وظل مجلس إدارة المؤتمر باقياً  
لال المؤتمر لوضع نظام هذه الجمعية . فهل تتصل بها مصر ؟ و  
م بما عليها وبما لها من الحق في خدمة التاريخ ونشر التاريخ ؟

الكلمة في ذلك إلى وزارة المعارف

باريس في ١٠ مايو سنة ١٩٢٣

## القسم الثالث

# خواطِر سائح

## ٢

### في الطريق

كانت السفينة تجرى في بحر هادئ، مطمئن . وكانت نفوس  
السَّفَر هادئة مطمئنة أيضاً ، وكان قد شمل السفينة ومن فيها شيء  
من الدعة والأمن لا يكاد يوصف كأنما اشترك في تكوينه هدوء  
البحر وجماله ، وصدف السماء وإشراقها ونزوع المسافرين جميعاً إلى  
هذا الأمل الذي كانوا يترقبونه منذ حين والذي هم مشرفون عليه  
الآن وهو الراحة بعد تعب والهدوء بعد اضطراب وكنت أشد الناس  
اطمئناناً وأكثرهم دعة وأعظمهم اغتباطاً بالحياة ، أفكر فيما تركت  
من ألم وأتمثل ما أستقبل من لذة وأعبت من حين إلى حين مع هذين  
الطفلين المبتسمين اللذين لا يعرفان من الحياة إلا صفوا وابتهاجا .  
كنت أقص على ابنتي ألوانا من أحاديث « هوميروس » في  
« الأودسا » فأجد منها ابتهاجا للقصص واستعدابا للحديث فأمضي  
في القصص والحديث وتغرق هي في اللذة والابتهاج ، ثم تسألني أحق .

هذا الحديث أم أنت تمزح؟ فلا أجد لهذا السؤال جواباً . لست  
أمزح وإنما أقص شيئاً قرأته وابتهجته له ، وقرأته الأجيال من قبلي  
وابتهجته له ، وسمعت أجيال قبل هذه الأجيال فابتهجته له وآمنت  
به واتخذته يقيناً بل اتخذته ديناً . وهل كان يخطر لأحد من أوائك  
اليونان الذين كانوا يستمعون لأقاصيص الأودسا وأعاجيبها أن يسأل  
المُشد : أحق هذا الحديث أم أنت تمزح؟ كلا ! لقد كان  
هؤلاء الناس يؤمنون بأعاجيب الأودسا وأساطيرها كما تؤمن أنت  
وأنا بالبخار والكهرباء . وكانوا يتخذون من أحاديث الأودسا  
وأعاجيبها مقاييس للخير والشر ونماذج ينظمون عليها حياتهم الخاصة  
والعامة كما تبحث نحن عن هذه المقاييس والنماذج في علم الأخلاق  
والاجتماع الآن . ثم تتابعت الأجيال واتصلت العصور وتطور العقل  
الإنساني حتى أصبحت هذه الطفلة في السابعة من عمرها تسألني  
حين أقص عليها أحاديث الأودسا وأعاجيبها وأخبار السندباد البحري :  
أحق هذا الحديث أم أنت تمزح؟ وكنت أترك ابنتي تلاعب أخاها  
وتلهو مع أترابها وأنصرف إلى قرينتي فناخذ في ألوان من الحديث  
منها الجد والهزل وربما انتهزنا غفلة الطفالين فقرأنا فصلاً من كتاب  
أو مقالا من صحيفة حتى إذا أقبل الليل جالس السفر بعضهم إلى بعض  
يتحدثون وانصرفت طوائف منهم إلى « البيانو » فثمهم من يعرف

ومنهم من يرقص وانصرفت طوائف أخرى إلى ألوان من اللعب بين  
نرد وشطرنج وورق حتى يتقدم الليل . وعلى هذا النحو قضينا أربعة  
أيام وبعض يوم لم نخل من بهجة لا تعدلها بهجة حين ظهرت  
السواحل الإيطالية وحين مضت السفينة بنا في مضيق « مسينا »  
فالناس جميعاً ينظرون ، منهم من يعجب بالساحل وجماله ومنهم من  
يذكر كوارث مسينا ومنهم من يمضي في الذكرى إلى عهد بعيد  
فيتمثل الحياة اليونانية والرومانية والفينيقية على هذه السواحل وفي  
هذا البحر ويذكر ما امتلأت به هذه الحياة القديمة من لذة وألم  
ومن جمال وكآبة ويذكر ما تغنى به الشعراء القدماء من ألوان هذه  
الحياة . ثم تحدث الناس أننا سنصبح في مرسيليا وانصرف الناس  
عن حديثهم ولهوهم إلى حقائبهم يحزمونها وإلى متاعهم يعدونه .  
لكن السفينة التي كانت هادئة مطمئنة أخذت تضطرب قليلاً قليلاً  
وما هي إلا ساعات حتى كان اضطراب البحر قد انتهى إلى أقصاه  
وحتى كان الناس لا يكاد يسمع بعضهم بعضاً إذا تحدث بعضهم إلى  
بعض . فالموج مصطخب والريح تعصف عصفاً عنيفاً ، والسفينة  
لا تمايل وإنما يتقاذفها الموج وقضينا الليل في هذا الهول وأصبحنا  
وقد أشرفنا على الساحل الفرنسي بل بلغناه ، فهذه أبنية مرسيليا  
يراها الناس ويشيرون إليها وليس من شك في أننا سنترك السفينة

بعد ساعة أو ساعتين . كلا ! لن نترك السفينة بعد ساعة أو ساعتين  
ولا ساعات . لماذا ؟ تستطيع أن تبحث وأن تتكاف العناء في البحث  
دون أن تجد جوابا على هذا السؤال ، فيحسن أن أجيبك أنا .

كان بين أهل السفينة شرقى أخذه حر شديد بينما كانت السفينة  
تجتاز القناة فما هي إلا أن رأى بطيخ مصر فاندفع إليه اندفاعا وأكل  
بطيخة بأسرها ثم كأن البطيخة لم تنقع غلته فعمد إلى ماء مثلج  
فشرب منه ما أذن الله له أن يشرب . ولم تكد السفينة تتجاوز  
مصر حتى أخذ صاحبنا قبيء ومشاء ودعى الطبيب فلم يؤمن للبطيخ  
ولا للماء الثلج ولا سيبا وقد حسنت حال صاحبنا بعد يوم وليلة فلم  
يبق من قيئه ومشائه إلا بطن منتفخ ولم يشك الطبيب في أن الرجل  
مطمعون . . . وكان هذا الرجل في الدرجة الرابعة فلا أحدثك عن  
عناية الطبيب به وإشفاقه عليه . فانظر إليه تحوطه عناية الطبيب  
والخدم وانظر إليه في سرير نظيف نقي وانظر إليه تقدم إليه ألوان  
الطعام مختارة منتقاة وانظر إليه يحمل من حين إلى حين إلى حيث  
يتنسم هواء البحر وكأن الرجل قد استعذب هذه الحياة واستلذها  
فمريض وأمعن في الشكوى وشك الطبيب وأمعن في الشك فأبرق  
إلى مرسيليا أن قد ظهر الطاعون في السفينة وكرم الطبيب وربان  
السفينة الخبر عن المسافرين حتى لا يأخذهم وهم ولا وجل . فلما

أشرفت السفينة على مرسيليا أنبئنا أن السفينة ملوثة وأن لا بد من الحجر الصحي وأنتا ستمكث على بعد من الساحل خمسة أيام ترى الأرض ولا نستطيع أن نطأها . تستطيع أنت أن تمثل نفسية المسافرين كما يقولون عند ما وقع عليهم هذا النبا وقع الصاعقة . ولكن المسافرين ولا سيما الذين أبحروا من مصر ليسوا شيئا إلى جانب البحارة والذين أبحروا من أقصى الشرق فقد كان هؤلاء الناس قد قضوا في البحر شهرين أو أكثر من شهرين وكانوا يتحرقون شوقا إلى فراق البحر وإذا هم يقضى عليهم أن يبحروا في السفينة خمسة أيام وقضينا ساعات في هذا الاضطراب . ثم أقبلت زوارق تحمل الأطباء وذاع النبا أن هؤلاء الأطباء قد أقبلوا ليمتنحوا المسافرين واخذوا واحداً فمّن رأوه بريئا أذن له بترك السفينة ومن رأوه مريضاً أو كالمريض حجروه . ولكن الأطباء لم يمتحنوا أحدا وإنما قضوا ساعات يدفعون إلى المسافرين جوازات صحية ويكلفونهم أن يقدموا هذه الجوازات في أمد لا يتجاوز خمسة أيام إلى عمدة المدينة أو القرية التي يقصدون إليها ليتحقق هذا العمدة من أمر المسافرين أمطعونهم هم أم يارثون من الطاعون ؟ وكانوا كلما دفعوا إلى مسافر جوازاً كتبوا كتابا إلى عمدة المدينة أو القرية ينبئونه بأن فلانا قادم إلى مدينته أو قريته وأن حالته الصحية تدعو إلى الحذر والاحتياط فلا بد

من امتحانه والاحتياط لأمره ، وانتمضى أكثر النهار في هذا العبث  
الصيبي كما يقول الفرنسيون . وأذن للمسافرين جميعاً أن يطنوا الأرض  
إلا البحارة وعمال السفينة فقد قضى عليهم بالحجر خمسة أيام . وبلغنا  
القرية التي كنا نقصد إليها وذهبنا في اليوم الخامس إلى العمدة وكنتم  
أحدث بأن لا نذهب ولكن الجواز الصحي الذي دفع إلينا كان  
يشتمل على طائفة من مواد القانون الصحي تبين العقوبات أو الغرامات  
التي تتعرض لها إذا أهملنا . فذهبنا ولم نر العمدة وإنما رأينا سكرتير  
العمدة . وسكرتير العمدة في معظم القرى الفرنسية هو معلم القرية  
وهو يشبه فقيه الكتاب عنده . رأينا هذا المعلم وقصصنا عليه قصتنا  
فلم يكديسمع أول الحديث حتى أظهر عناية ، لأنه تسلم كتاب الأطباء  
منذ أيام وأخذ يبحث عن هؤلاء المسافرين الذين يوشكون أن يحملوا  
الطاعون إلى قريته دون أن يوفق إليهم ، فلما رأنا خيل إليه أن قد  
ظفر بطابته . وأؤكد لك أننا قد تكلمنا كثيراً لنقنعه بأنه ليس في  
حاجة إلى إحالتنا على الطبيب . على هذا النحو انتهت رحلتنا وما  
كنت لأقص عليك هذا القصص لولا أن فيه عبرة لا بأس بالتفكير  
فيها . أرأيت إلى مئات من المسافرين يضطربون ويحزنون يوماً  
كاملاً ؟ أرأيت إلى مصلحة الصحة في مرسيليا تضطرب وتعنى هذه

العناية وتتكلف هذه النفقات؟ أرأيت إلى مئات من العمد في قرى  
فرنسا يضطربون ويشفقون من الطاعون أن يصيب قراهم؟ كل  
ذلك لأن رجلاظي، فأكل بطيخة وشرب أقداحا من الماء المثلج!  
أشهد أن هذه الحياة لا تخلو من عبث، بل أشهد أن هذه  
الحياة كلها لون من ألوان العبث وفن من فنون المزاح، تضحك حيناً  
وتحزن حيناً آخر، وهي مضحكة حين تحزن ومحزنة حين تضحك،  
هي عبث كلها. نعم! إني لأفكر في أمر هذه البطيخة التي  
استتبتت ما استتبتت من الأحداث فلا أضحك ولا أمزح، وكثيراً  
ما ضحكت ومزحت حين كنت أفكر في أمرها، ولا أضحك  
الآن ولا أمزح وإنما أفكر في هذا الأمر مع حزن شديد لأنني أرى  
أن الحياة كلها تجري على نحو ما جرى أمر هذه البطيخة. ذلك أن  
أنباء مصر قد وصلت إلى فقرات فيها ما قرأت وابتسمت فيها لأشياء  
وبكيت فيها لأشياء أخرى ولم يبق لي من هذا البكاء وذلك  
الابتسام إلا أني تركت أصدقاء كنت أتمنى لقاءهم بعد عودتي وأتحدث  
بما سأجد من لذة حين ألقاهم واستأنف معهم صلوات الصفاء. وتركت  
كذلك خصوماً كنت أفكر في أني سأعود إلى خصومتهم وسألقى  
منهم شراً وسيلقون مني شراً، فإذا أنا الآن مقتنع بهذه الحقيقة المؤلمة  
وهي أني لن أجد هؤلاء الأصدقاء ولن أجد هؤلاء الخصوم. لن

أصافى أولئك ولن أحاصم هؤلاء ، لأن الله قد آثرهم بالحياة في تلك  
الدار التي لا تجرى فيها الأمور على نحو ما تجرى عليه في حياتنا من  
اللهم والعبث

\*\*\*

انتهى بنا سفر طويل لم يخل من مشقة إلى هذا البلد الصغير  
الذي قضينا فيه أسابيع ما أظن أنى قضيت مثاتها في بلد قبله . ليس  
بالقرية ولا بالمدينة ، ولكنه شيء بين بين ، فيه حضارة المدن  
ولا سيما في الصيف حين يأوى إليه الناس من كل صوب يلتمسون  
الراحة ويستمتعون بالطبيعة التي تريك فنونا من الجمال قلما تظفر بها  
في غير هذه البيئة من فرنسا ، فيه حضارة المدن وفيه سذاجة القرى  
فأنت تجد فيه من العادات والحصال ما يذكر بما كنت تقرأ  
من تاريخ هذا القسم من فرنسا قبل أن تبلغ أوروبا ما بلغت من  
هذا الرقى الحديث . تجد قوماً يحتفظون بأزيائهم القديمة ويتحدثون  
لهجتهم الخاصة التي لا يفهمها الفرنسيون من غير هذا الاقليم ، فإذا  
تحدثوا الفرنسية فلهم فيها لهجة تميزهم من غيرهم من الناس . ولهم  
عاداتهم في عباداتهم وفي غير عباداتهم من مظاهر حياتهم العامة .  
ولكني لم أكتب لأحدثك عن هؤلاء الناس ، ولا لأحدثك عن  
هذا البلد فلست أكتب رحلة وإنما هي خواطر خطرت لي أتحدث  
بها إليك من حين إلى حين .

لأعرف مكانا كهذا المكان يدعو إلى التفكير والتأمل ويبعث  
فيك نشاطاً نفسياً غريباً ينطقك بالشعر إن كنت شاعراً ويحبب اليك  
قراءة الشعراء إن لم يكن لك حظ من الخيال . لا أغلو ولا أبالغ  
فأنت لا تكاد تخطو في هذا البلد أو حوله خطوة إلا سمعت هذه  
الألغام الموسيقية اللذيذة التي تختلف ليماً وعناً وتتباين نحافة وضحامة  
والتي تتغنى بها هذه الغدران المتدفقة من أعلى الجبل . في كل مكان  
غدير ينحدر أو نهير يجري أو سيل يتدفق . هنا غدير هاديء يسعى  
في لين ورقة فيسمعك نغماً رقيقاً عذبا ، وهنا نهير ليس بالهاديء ولا  
بالتائر تسمع له فلا تستنيم ولا تضطرب وإنما تقف وقد استعذبت  
الحياة ووددت لو تستر يد منها ، وهناك سيل تائر ينحدر في عنف  
ويدفع بين يديه صغار الأحجار وضحامها ويسمعك هديراً كقصف  
الرعد يأخذ عليك سمعك ثم يأخذ عليك نفسك ثم يبهرك فإذا أنت  
لا تسمع من حولك ، وإذا أنت كلك إعجاب بهذا الجلال الذي  
لا حد له . وكل هذه الغدران والنهيرات والسيول تسعى وتجري وتتدفق  
شاقة غابات تختاف كثافة ونحافة وتأخذ جوانبها من كل مكان وقد  
اختلفت فيها الأشجار وانبتت في أرضها أنواع من العشب والزهر  
لا يبلغها الإحصاء ولا ينالها العد ، وامتلا الجو من عبير هذه الأزهار  
وأنفاس هذه الأشجار وريح هذه الأعشاب بشيء من العطر

لا تستطيع أن تميزه ولا أن تحلله إلى أجزائه ولا يمكنك تستمتع به  
استمتاعاً غريباً وتكاد تلمس بيديك ما يبعث في جسمك من الحياة .  
وإلى هذا النغم المائي ، وإلى عبير هذه الغابات تضيف الطير الحانها  
المختلفة التي تصل إلى أذنيك في سهولة ويسر إذا كنت إلى غدير  
هادى ، أو نهر غير نائر والتي لا يصل إلى سمعك منها إلا أطراف  
خفية دقيقة مختلفة إذا كنت إلى سيل نائر مضطرب . ثم أنت  
لا تسعى في هذه الأرض على مكان سهل منبسط وإنما أنت مصعد  
أبدأً أو منحدر أبداً . ويظهر أن الذين يبصرون يجدون في هذا التصعيد  
والانحدار روعة لا تعد لها روعة ، يشرفون فيروعهم منظرهم ينحدرون  
فيروعهم منظر آخر . ويظهر أن هذه المناظر المختلفة الرائعة تتباين  
إلى غير حد باختلاف الجو صفواً وكدرًا وباختلاف ما ترسل الشمس  
من أشعتها على هذه القمم المحيطة بك والتي يجلبها الثلج أبداً والتي  
تقدم اليك من مختلف الألوان نماذج ساحرة .

وأجمل ما يكون هذا المكان وأشد ما تكون فيه تأثيراً وشعوراً  
بضالة الانسان وجلال الطبيعة حين يظلم الجو وتكفهر السماء وتتكاثر  
السحب بعضها فوق بعض منها ما هو فوقك ومنها ما هو تحت قدميك  
ومنها ما يكاد يحاذيك . ثم يضطرب هذا كله و يصطدم فاذا رعد  
يقصف قصفاً رائعاً مهيباً ، وإذا برق يأخذ أنحاء الجو وإذا الجبال

المحيطة تردد أصداها هذا الرعد القاصف وإذا هذه السحب قد انشقت  
فانهزم المطر انهبارا وإذا هي ساعة أو بعض ساعة وقد هدا كل شيء  
واستنار كل شيء وظهرت الشمس ساطعة بهية ومر بهذه الغابات  
والأزهار والأعشاب نسيم عليل بايل يحمل إليك عطرا نديا .

في هذا البلد « أرجليس » « جازو » قضينا ثلاثة أسابيع ، وفيه  
فكرت كثيرا وتأمات كثيرا ووددت كثيرا لو استطعت أن أكتب  
ولكن الله أراد ألا أكتب ، وكنت قد أردت ذلك أيضا .

نعم كنت قد بلغت من التعب حفا عظيما قبل أن أترك مصر ،  
وكنت قد انتهيت من ذلك إلى أن كرهت القراءة والكتابة وكل  
ما يقرأ وكل ما يكتب ، فاعتزمت إذا أتاح الله لي السفر أن أقضي  
شهرآ كاملا لا أقرأ فيه ولا أُملي ولا أسمع بقراءة ولا إملاء . وقد تم  
لي ذلك . وأقسم لقد كنت به شقيا كل الشقاء ، ذلك أنا نخطيء  
الخطأ كله في تقدير الآلما وفي تقدير لذاتنا وفي تقدير حاجاتنا . يبلغ  
بنا الألم أقصاه أحيانا فيخيل إلينا أنه قد بلغ بنا أقصاه حقا ، وأنا لن  
نستطيع أن نحتمل ألما فوق ما احتملنا ، ثم نتمنى الراحة ونطمح إلى  
اللذة فنقيس الراحة التي نتمناها واللذة التي نطمح إليها بمقياس التعب  
الذي لقيناه والألم الذي احتملناه ، نتمنى راحة مطلقة ولذة لاحد لها ،  
فاذا أتبع لنا أن نستريح فما أسرع ما نمل اللذة وما أسرع ما نتمنى

الألم ، كذلك كنت في « ارجليس » ضيق الذرع بهذه الراحة التي اضطرت نفسي إليها ، شديد السأم لهذه الملة التي طالما ظمعت فيها عظيم الثمن لذلك الألم الذي طالما شكوت منه ، وكانت زوجي تضحك مني وتتخذني سخريه ، وربما رقت لي فقرأت على فصل أو فصلاً من كتاب ولكنها كانت قد آلت كما آلت أن أستريح فلا أحدثك عن هذه الراحة الثقيلة

هناك خاطر يخطر لي في كثير من الأحيان ، ولست أدري أيخطر لغيري من الناس أو هو مقصور على لأن حالي الطبيعية هي التي تضطرنني إليه . . . ذلك أنني أبغض نفسي أشد البغض وأبغض معها الحياة وأرى كل شيء سيئاً مردولاً فأسأم كل شيء وأزهد في كل شيء ، وإنما تعرض لي هذه العلة إذا اتصلت خلوتي إلى نفسي كما اتصلت في هذه الراحة التي أكرهت نفسي عليها . إذا اتصلت خلوتي إلى نفسي فلم أقرأ ولم أكتب ولم أشترك في الحياة العامة ، وإنما انقطعت إلى نفسي أحياناً هذه الحياة الخاصة الفاترة التي تكاد تنحصر في الحياة الجسمية . في هذا الطور من أطوار الحياة ينحلو الانسان إلى نفسه حقاً . وإذا كان العقل الانساني لا يعرف الراحة ولا يستطيعها وإنما هو مفكر أبداً مشتغل أبداً فان العقل في أول هذه الخلة يمضي في عمله وتفكيره معتمداً على ما بقي له من المادة الفكرية أثناء العمل وقبل

الراحة . فاذا فرغ من هذه المادة بحثا وتفكيراً احتاج إلى تجديدها ،  
احتاج إلى الغذاء المعنوي كما يحتاج الجسم إلى الغذاء المادي . ولكنه  
قد أكره نفسه على الراحة وأخذ نفسه بالألا يقرأ ولا يعمل وهو مع  
ذلك مضطرب إلى التفكير بطبيعته ، وهنا الشر كل الشر ، فهو يبدأ في  
أن يفكر تفكيراً خطراً ، يبدأ في أن يتخذ نفسه موضوعاً للتفكير كما  
تبدأ المعدة الخالية في هضم نفسها . يفكر الانسان في نفسه فيحللها  
ويبانع في تحليلها ويدرس الدقائق من عواطفه ومشاعره وأهوائه  
درسا مفصلا دقيقا فلا يرى من هذا كله إلا ما يشعره بأنه ضئيل  
ضعيف : بأنه ليس شيئا يذكر ، بأنه ليس شيئا يستحق الحياة ،  
وربما فكر في الحياة فرأى أمها ليست شيئا يستحق العناية ، وإذن  
فالسأم يقوى شيئا فشيئا حتى ينتهي إلى السخط وإلى سوء الخلق وإلى  
التشاؤم وما أظن إلا أن كثيرا من هؤلاء الفلاسفة المتشائمين قد  
اتخذوا مذهب التشاؤم ديناً لهم لأنهم فكروا في أنفسهم وحللوها  
ودرسوها أكثر مما ينبغي . لا أميل إلى أن يفكر الانسان في نفسه  
كثيرا فالانسان لا يستحق هذا التفكير ، وإنما أميل إلى أن يشغل  
الانسان نفسه عن نفسه بالقراءة والحديث والعمل والاستمتاع بلذات  
الحياة التي أياها الله والأخلاق . ولولا هذه اللذات التي قدمت  
لك وصفها في أول الكلمة ، ولولا أني كنت أشغل بها نفسي عن

نفسى كلما أحسست الحاجة إلى التفكير لأصابنى شيء من سوء الخلق غير قليل . لذلك تعبت فى « أرجليس » ولم أسترح . فلم أقض يوماً هادئاً ولعلنى لم أقض ساعات متصلة فى اطمئنان وهدوء وإنما كنت طوال الوقت أضطرب فى الأرض وأهيم فى أمحاشها متنقلاً من غابة إلى غابة ومن شاطئ إلى شاطئ ومن قرية إلى قرية ، أترك هذا المرج لأسعى إلى مرج آخر وأدع هذه القرية لأزور قرية أخرى . وكذلك قضيت هذه الأسابيع لم يحس عطفى جوعاً ولم يستمتع جسمى براحة . وكان من بين القرى أو المدن التى قضيت فيها يوماً وفكرت فيها كثيراً مدينة « لورد »

( البوليچين ) فى ١٢ اغسطس سنة ١٩٢٤

٢

## مدينة لورد Lourdes

يجب أن نعدو مع الطير اندرك القطار الأول وانبثق « لورد »  
في مبتدأ النهار . وغدونا مع الطير فاذا جو بارد يلفح الوجه زمهريره  
وينسيك أنك في أواخر شهر يولية . وإذا الحاجة ماسة شديدة إلى  
المعطف ، وإذن لا بد من إخفاء اليدين ومن ستر العنق والوجه .  
ولكننا أينما أن نصطنع من ذلك شيئاً عناداً لهذا الجو ولهذا الطبيعة  
التي تريد أن تغير الأشياء فتقر الشتاء مكان الصيف . أينما إلا أن  
نحتفظ بلباس المصطافين ومضينا في طريقنا لا نحفل بهذا الهواء البارد  
ولا نحفل بهذا المطر الذي أخذ ينهمر بعد حين والذي ما أسرع  
ما اخترق ثيابنا الصيفية وبعث فينا اضطراب العصفور بالله القطار .  
ولكننا مضينا في عنادنا ولم نحفل بهذا الاضطراب وأينما إلا أن  
نعتبر أنفسنا في الصيف . ولم لا؟ ألم تعود في مصر ضررنا من الصبر  
والمقاومة وألوانا من الجلد والاحتمال؟ ومضى القطار بنا حتى باننا  
« لورد » قبل الساعة التاسعة صباحا . فاذا مدينة كأحسن ما نعرف  
من المدن الفرنسية موقعا ، يشرف عليها الجبل ويجرى من تحتها

النهر، يتردد فيها هواء خفيف ولكنه ممتليء حياة ونشاطاً لا يكاد  
يمسك حتى يجعلك حياة ونشاطاً، فإذا أنت أقدر ما تكون على  
الحركة وأرغب ما تكون فيها، وإذا أنت أقدر ما تكون على  
التفكير وأشوق ما تكون إليه. ولم نكد نترك المحطة وندفع في  
الشارع الذي ينتهي إلى المغارة حتى أحاطت بنا جموع من الرجال  
والنساء كلهم يعرض بضاعته وكلهم يبلح في عرضها وكلهم يتملكك  
ويترضاك وما هذه البضاعة إلا الفنادق وإلا الغرف في منازل بعض  
السيدات اللاتي نزلن في هذا الفصل عن بعض حجرهن وغرفهن  
واتخذنها تجارة ومصدراً للكسب. يتقدم إليك هذا السائق ليأخذ  
متاعك إلى سيارته الفخمة التي ستنتهي بك إن شئت إلى فندق  
كذا، وهو ليس غالباً ولا مسرفاً في الشطط، على أن فيه كل ما تحتاج  
إليه من أسباب الراحة ووسائل النعيم. ويتقدم إليك هذا السائق  
ليأخذ متاعك إلى عربته التي ستنتهي بك إلى فندق كذا، وهو فندق  
حسن الموقع تشرف منه على مناظر بديعة، وليس بينه وبين الغار إلا  
دقائق، أما الأجر فقليل. وتتقدم إليك هذه السيدة باشة مبتسمة  
تعرض عليك غرفة جميلة واسعة حسنة الأثاث تشرف منها على الغار،  
أما الأجر فنستطيع أن نتفق عليه، وثق بأن ستكون مسروراً.  
ولكننا نجتهد في أن نخلص من هؤلاء الناس جميعاً، فلم نأت « لورد »

لناوى إلى فندق أو خان ، ولا تتحرك فيها أياماً ، وإنما أتيناها لتمكث فيها ساعات ثم نعود أدراجنا فقد زرنا « لورد » وزرناها وأكثرتنا من زيارتها . ولو لا شيء سمعناه أمس لما فكرنا هذه السنة في أن نراها . ولكننا نتحدث فيما بيننا ونحن نشق صفوف هذه الجموع المزدحمة أمام المحطة بأن الفصل سىء هذه السنة في « لورد » وأن تجار هذه المدينة سيشتقون بهذا الصيف . فقد كانت « لورد » دائماً شديدة الغلاء ولا سيما في شهرى يولية وأغسطس حيث يزدحم عليها الحجاج من كل صوب ، وحيث تضيق بالأجيال المختلفة التى تؤمها من أقطار الأرض المسيحية كلها . نعم ! الفصل سىء في هذه السنة فالحجاج قليل والفنادق بعيدة كل البعد عن أن تسترد شيئاً من نفقاتها الضخمة وهذه الحيوانات الكثيرة التى لا تكاد تحصى والتى تكتظ بألوان البضائع المختلفة ولا سيما هذه البضائع التى تخصص للتقوى والعبادة . هذه الحيوانات محزونة كثيفة تحس الكساد وتألم له ، فالناس لا يزدحمون عليها ، وهم لا يستبقون إلى الصلبان والسبح والتمائم ، وإنما يمرون بهذا كله معرضين عنه زاهدين فيه . وما مصدر هذا الكساد ؟ وما علة هذا الاحجام عن الحج في هذا العام ؟ أما أنا فضحكت وعلت ذلك بانتصار حزب الشمال فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة . فأنت تعلم أن حزب الشمال الفرنسى ملحد مسرف .

في الاتحاد إلى حد أنه يتخذ الاتحاد ديناً . وإذ قد انتصر هذا الحزب وانتصر بالطرق الديمقراطية الصحيحة أي برضا الفرنسيين وإرادتهم فلا بد من أن يكون هناك اتصال بين انتصار الاتحاد وكساد التجارة في « لورد » وإحجام الناس عن الحج إليها . وأما زوجي فضحكت وسخرت مني ومن حزب الشمال ومن أحزاب اليمين أيضاً وأخذت تلمس العلة لهذا الكساد وإحجام الناس عن الحج إلى « لورد » في ظروف الحياة الاقتصادية التي ارتفعت لها حاجات الناس ارتفاعاً شديداً . ألم ترتفع أجور السكك الحديدية ارتفاعاً فاحشاً أحجم له الناس لاعتن الحج إلى « لورد » وحدها بل عن الحج إلى هذه المواقع الطبيعية البديعة في الجبل وعلى سواحل البحر . فالفصل ليس سيئاً في « لورد » وحدها وإنما هو سيء في هذا الاقليم كله وما أحسب إلا أنه سيء في جميع مواضع الراحة في فرنسا . ومن هم الذين يحجون إلى « لورد » ؟ ألم تكن كثيرتهم المنطقة من الفقراء والذين يشبهون الفقراء والذين يحتاجون إلى الحساب والتدقيق في احساب ليعيشوا فضلا عن أن يستمتعوا بشيء من اللهو والراحة ، أو أن يبيعوا لأنفسهم سياحة من السياحات . الظروف الاقتصادية إذن هي التي صرفت الناس عن « لورد » لالظروف الدينية ولاالظروف السياسية ، ومهما يكن من شيء فقد زرنا « لورد » ومضينا في شوارعها وانتهينا

إلى الغار وإلى الينبوع ، فاذا حوّلوا جماعات من الناس لا تذكر بالقياس إلى تلك الجماعات التي كنا نراها من قبل ، ولكننا مع ذلك كثيرة ولكننا مع ذلك بائسة ، ولكننا مع ذلك تملأ القلوب حزناً وحسرة ، ولكننا مع ذلك تدعو العقل إلى التفكير وتبعث الانسان إذا كان جافياً غليظ الطبع على أن يسخر من الانسان ، وتبعثه إن كان رقيقاً حساساً على أن يعطف على الانسان . أنظر إلى هؤلاء الناس الذين انبثوا حول الغار والينبوع حاسرين يصلون ويضرعون ويتوسلون ويتمسحون بالأحجار ويمسحون أيديهم في الماء ويشربون منه وفيهم المكفوف وفيهم المقعد وفيهم من أصابته ضروب الشلل وفيهم من ألح عليهم الجذام وفيهم من أنهكتهم العمل المتباينة ، وفيهم الأشحاء أقبلوا يتضرعون لأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، كل هؤلاء منبثون حول الغار والينبوع لا يضحكون ولا يلهون ولا يحفلون بجمال الطبيعة ولا يستمتعون بروعة المنظر ولا يكثرثون لهذا الجو الذي قد يبرد حتى يبعث الرعدة وقد يسخن حتى يتصبب له العرق . هم منصرفون عن هذا كله إلى صلاتهم ينتهلون إلى العذراء التي ظهرت في هذا المكان سنة ١٨٥٨ للفتاة « برناديت » وأوحت إليها أن تأمر الناس بإقامة كنيسة لها في هذا المكان وأثبتت ظهورها باخراج هذا الينبوع الذي تفجر عنه الصخر أمام هذه الفتاة

الراعية فرآه الناس وآمنوا له ، وصدقوا الفتاة ، ونحولت له هذه القرية التي كانت خاملة إلى مدينة ضخمة فيها من أسباب الترف واللوان النعيم ما لم يتافه مدن كثيرة قديمة العهد بالنمو في هذا الاقليم . يبتهل هؤلاء الناس إلى هذه العذراء أن تشفى مرضاهم وينتظرون الساعة المعينة التي يقوم فيها رجال الدين بحركاتهم اليومية فيغمسون المرضى في الماء المقدس ، ماء الينبوع ، ويصلون و يبتهلون و ينتظرون المعجزة فتواتيهم حيناً وتخلفهم حيناً . ومن سوء حظ « لورد » ورجال الدين في هذا العام أن العذراء لم تحدث معجزة منذ ابتداء الفصل وهم يبتهلون و يتضرعون و يلحون في الابتهاال والتضرع و يغمسون المرضى في الماء ويخرجونهم منه ثم يردونهم اليه ويخرجونهم منه ، والأساقفة يترددون على المدينة ويشرفون على هذه الحفلات والصلوات ، ولكن العذراء عنهم معرضة لا تسمح لهم ولا تلتفت إليهم ، وكانت قد عودتهم أن تحدث لهم في كل عام معجزة أو معجزات ، فلما هذا العام قد تركت مدينتها وأعرضت عن عبادها ؟ أما أنا فضحكت هذه المرة كما ضحكت في المرة الأولى وقلت إن العذراء مغضبة لأن حزب الشمال قد انتصر في الانتخاب ولو قد انتصر حزب اليمين لما تصرّم يوم من أيام هذا الفصل دون أن تحدث العذراء معجزات تضطرب لها أرجاء الأرض ، ولو قد انتصر حزب الوسط الذي ليس

هو بالمؤمن ولا بالملاحد ولكنه على كل حال قد استأنف العلاقات السياسية مع « البابا » لما رضيت العذراء أن يتصرم الفصل أو جزء عظيم منه دون أن تحدث معجزة أو معجزات . ولكن زوجي زجرتني زجراً شديداً وهي تقول ما يصلح هذا الموضوع لمثل هذا الهديان فأرجئه إلى حيث تخلو إلى نفسك فلا تؤذى به أحداً . . . فسكت ولكني لم أحدثك إلى الآن عن السبب الذي من أجله فكرت في أن أزور « لورد » هذا العام : وهو سبب لا يحتاج إلى أن يكون موضوعاً للحديث ولكنه مع ذلك كلفني هذه السياحة القصيرة وأزعجني عن مضجعي ولما تشرق الشمس . ذلك أني سمعت القسيس يخطب الناس في « ارجليس » ويقرا عليهم منشوراً أصدره « البابا » رفع به « برنديت » هذه الفتاة الراحية التي ظهرت لما العذراء في « لورد » إلى منزلة السعداء التي ليس فوقها إلا منزلة واحدة فيما أظن هي منزلة القديسين . قرأ القسيس هذا المنشور ثم انتقل منه إلى حياة « برنديت » فذكرها مفصلة حتى إذا بلغ ظهور العذراء لهذه الفتاة الراحية أخذ يلح في إثبات ذلك بالأدلة المختلفة ثم أخذ يسرد المعجزات أو طائفة من المعجزات التي أحدثتها العذراء في « لورد » فان هذه المعجزات لا يمكن أن تحصى . وأخذ يذكر لنا معجزات قائمة بين أيدينا لا سبيل إلى جحودها فهذه السيدة التي تتردد في

الكنيسة لتجلس الناس وتتقاضى منهم أجور الكراسى وتتقاضى منهم الصدقات، هذه السيدة التي ترونها جميعاً في حركتها ونشاطها وخفتها، هذه السيدة، انظروا إليها تسمى بينكم . ليس بينها وبين أشدكم قوة فرق . انظروا إليها لقد كانت مُعمدة فأطلقت العذراء ساقها في « لورد » وأنتم أهل هذه المدينة تعرفون فلانة وتعرفون عنها التي أعيت الأطباء أعواماً لقد شفيتها العذراء في العام الماضي وما أظن أن منكم من يجراً على إنكار هذه الواقعة . . . . وفي الحق أن أهل المدينة لا ينكرون هذه الواقعة ولا الواقعة التي سبقتها ولكن في الحق أيضاً أني رأيت امرأتين إحداهما بدالة تبيع ألوان البقل وضروبا من المتاع وهي عرجاء أصابها ألم في القدم منذ سنين وعجز الأطباء عن شفائه ولم تغن فيه المياه المعدنية المختلفة شيئاً . وهذه المرأة تتردد كل عام إلى « لورد » فتشرب من ينبوعها وتستحم في أحواضها كما كانت تتردد إلى المدن والقرى التي تمتاز بمياهها المعدنية الحارة والباردة وتصلى إلى العذراء وتبتهل دون أن تحدث العذراء فيها معجزة وهي غير يائسة ولا فائظة ، بل هي تعزم السفر إلى لورد بعد أيام . والأخرى امرأة عرجاء أيضاً ، ولدت معوجة الساقين فهي لا تمشي وإنما تحجل وتجد في ذلك مشقة شديدة . رأيتها في بعض

الرياضات لأنها مكلفة أن تحرس ممر التتطار في طريق مسلوكة ،  
وكنا قد أخطأنا الطريق إلى المدينة فإزالت معنا حتى اهتدينا ، وقد  
قطعت بنا طرفاً مجهولة شاقة فتحدثنا إليها أكثر من نصف ساعة  
وعرفنا عاتبها وعرفنا أنها ألت على العذراء وشربت كثيراً من ينبوع  
« لورد » وانغمست كثيراً في أحواض « لورد » ولكن العذراء لم  
تلتفت إليها فيئست من العذراء ووجدت « لورد » وسخرت منها ورضيت  
علتها واطمأنت إليها . رأيت هاتين المرأتين ولكنهما فيما يظهر لا تصدحان  
حجة على أنصار « لورد » فالعذراء ليست مكلفة أن تشفى كل مريض  
وإنما هي تشفى من تريد أن تشفى - ومن يدري ؟ لعلمها تشفى  
المرأتين في يوم من الأيام . سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت فاشتقت  
إلى زيارة « لورد » وطمعت في أن تظهر معجزة يوم زيارتي ، ولست  
أمزح ولا أهو فان المعجزات قد ظهرت في « لورد » وما أظن إلا  
أنها ستظهر ايضاً ، غير أن العلماء يعلمون هذه المعجزات تعليلاً ويعلمها  
القسيسون تعليلاً آخر ، وأنت حر في أن تصدق العلماء أو في أن تصدق  
القسيسين . أما أنا فقد طمعت في أن أرى المعجزة ولكني لم أر شيئاً .  
ثم طمعت في أن أسمع بالمعجزة أثناء إقامتي في « أرجليس » على مسافة  
قصيرة من « لورد » ولكني لم أسمع شيئاً . ثم سافرت من أرجليس  
وإني لفي القطار إلى حيث أقيم الآن وإذا سيدتان تتحدثان ...

ماذا أسمع . أصغيت ثم استعدت السيدتين حديثهما .  
ظهرت المعجزة في لورد منذ يومين اثنين ، ذلك أن أسرة  
اسبانية أقبلت إلى لورد ومعهما فتاة مقعدة فلم يكدر رجال الدين  
ينغمسون هذه الفتاة في الحوض ويفرغون من صلاتهم ودعائهم حتى  
نهضت الفتاة معتدلة القوام ، لا أقول تسمى بل تجرى . . . ظهرت  
المعجزة في لورد وذاع أمرها وتحقق الناس صحتها واعترف بذلك  
مكتب الاثبات الطبي الذي أقيم في لورد ليثبت صحة المعجزات أو  
ينكرها . وإذن فسيحسن الفصل في لورد هذا العام ، ولكنني أسف  
الأسف كله لأنني لم أسمع بهذه المعجزة إلا في القطار على بعد عشر  
ساعات من لورد . . .

بوليجان ( فرنسا ) في ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤

## ٣

### الخيل ! الخيل !

دوى هذا النداء فى أرجاء الغابة وما أسرع ما استجاب له الفرسان يهرعون من كل صوب حتى بلغوا جيادهم فامتطوها ، وما هى إلا أن أخذت تعدو بهم عدواً سريعاً ، ولكنه منسجم تنظمه ألحان الموسيقى التى لا تخلو من عدوبة ساذجة ، ولا تبعث على حرب ولا تدعو إلى قتال . ذلك أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا رجالاً ، وإنما كانوا أطفالاً ، وأن هذه الخيل لم تكن جياداً مطهمة كريمة النسب ، وإنما كانت جياداً من الخشب

دعا الداعى : الخيل ! الخيل ! فأسرع الأطفال إلى الخيل فامتطوها وأسرعت الخيل فدارت بهؤلاء الأطفال ، وأسرعت الموسيقى فمزفت لهم الحانها ، ووقف الكبار من رجال ونساء ينظرون ويسمعون فرحين مبتهجين بما يستمتع به أبناؤهم من هذا اللهو البرى ، ثم انتهت دورة الخيل وأن دفع الأجر ، وتقدم الناس يؤدون هذا الأجر عن أبنائهم فاذا هذا الأجر مضاعف هذا المساء وإذا الذى يتقاضاه من الناس قسيس يزدان بلباسه التيلى ، وإذا

الناس يبذلون ما يطلب إليهم عن طيب نفس وقرّة عين ، وإذا  
القيس يستأنف دعاءه بصوته الضخم الخيل ! الخيل ! وإذا الأطفال  
يسرعون إلى هذه الخيل فيمتطونها وإذا الموسيقى تستأنف لحنها .  
وقضى القيس مساءه على هذه الحال يدعو إلى الخيل ويشرف على  
دورة الخيل ويتقاضى أجور الخيل .

وعلى مسافة قصيرة من هذا القيس الذي وقف مساءه على  
تلهية الأطفال وجمع المال طائفة من السيدات ، من خيرة السيدات  
من ذوات المسكنة في المدينة قد اتخذن لباس الخدم وطفن على  
الناس يقدمن إليهم ألوان الحلوى وصنوف الفاكهة وأكؤس الشاي  
ويقدمن مع هذه الأطعمة والأشربة بسيات عذبة وضحكات حلوة  
ولحظات فتاة ، ويتقاضين أجر هذا كله أضعافاً مضاعفة . وعلى  
مسافة من هؤلاء السيدات طائفة أخرى من الغنيات الناشئات يطفن  
على الناس بأوراق النصيب ، والناس يتهافتون على هذا كله يطعمون  
ويشربون ويشتررون الورق ويمزحون ويفتنون في اللهو التزيه  
افتنان الأطفال في اللهو البريء . ذلك أن المدينة قد أقامت في هذا  
اليوم حفلاً تعمل من أعمال البر ، فأدى كل واحد من أهل المدينة  
مال البر عايد من حق ، دفع هذا ماله ووقف هذا وقفه وآثر هذا  
بلهوه هذا العمل الخيري . وليس في هذا الأمر بدع لفحلات البر

مألوفة في أوروبا ومصر ، وأسواق البر معروفة هنا وهناك ، والخلقيون  
يختلفون اختلافا شديداً في الحكم على هذه الخفلات والأسواق ،  
قوم يحمدونمها لأنها تؤدي إلى الخير وقوم يقتنونها لأنها لا تحلو من  
لهو وتكلف ، ولأن الخير خليق أن يصدر عن الانسان كما تصدر  
الأشياء الفطرية في غير حيلة ولا تصنع . ليس في هذه الخفلات  
بدع إذن ، وما كنت لأحدثك عنها لولا أن رأيت هذا القسيس  
قد اختار لنفسه هذا النوع من العمل ، فقضى ساعات من بهاره  
لا يقدر الله ولا يقرأ الإنجيل ولا يتغنى بهذه الأغاني التي يقصر  
عابها القسيسون ظهر يوم الأحد عادة في كنائسهم ، وإنما يشرف على  
لهو الأطفال ودورة الخيل ويصيح بأعلى صوته من حين إلى حين  
الخيول ! الخيل ! ويتوسم وجوه الناس فيأخذ منهم أجر الخيل  
متناسبا مع ما توسم في وجوههم من ثراء أو عسر . لولا أني رأيت  
هذا القسيس وصمته لما فكرت في أن أتحدث إليك بشيء عن هذا  
الحفل ، بل لقد كنت أود لو لم أكتب بهذا الحديث إلى « السياسة »  
ولا إلى صحيفة سيارة . كنت أود لو جعلت هذا الحديث موضوع  
رسالة خاصة أبعث بها إلى صديق من أصدقائي علماء الدين الاسلامي  
في مصر ، أبعث بها إلى الأستاذ الزنكلوني مثلاً ! ولكنني أحببت

أن تكون هذه الرسالة ذائعة يقرؤها الأزهريون جميعاً ويفكرون فيها قليلاً أو كثيراً .

است أخفى على الأزهرين وعلى علماء الدين خاصة أنى أعجبت بهذا القسيس وتمنيت لو أرى علماء الدين عندنا يشرفون على مثل هذه الخيل ويدعون إليها مثل هؤلاء الأطفال ويتقاضون على ذلك مثل هذا الأجر يضاعفونه ما شاءت لهم حاجة الأعمال الخيرية التي يدعو إليها الدين أو التي تمس إليها حاجة الفقراء والبتاسين في مصر .

أعتقد أن علماء الدين في حاجة شديدة إلى الوقار والمهابة وأن حاجتهم إلى الوقار والمهابة تحظر عليهم حركات ومواقف تباح لغيرهم من الناس ، ولكنى أعتقد أن هذا القسيس الذي كان يدعو الأطفال إلى الخيل لم ينزل من وقاره عن قليل ولا كثير وإنما أضاف إلى هيئته هيبة ، وإلى وقاره وقاراً ، وأدى عمله الدينى كما يتبغى أن يؤديه حين سلك إلى الخير هذه السبيل الخصبية التي تجمع له من المال ما يحتاج إليه دون أن يتكلف استجداء أو يتحمل العناء في دعوة الناس إلى الصدقة والاحسان . فما الذى يمنع رجال الدين في مصر أن يسلكوا مثل هذه السبل ؟ ما الذى يمنع رجال الدين ؟

يمنعهم أنهم يعيشون في عصرهم هذا دون أن يكونوا من أهله ودون أن يشعروا شعوراً صحيحاً بحاجاته وضروراته ووسائل العيش فيه .

ثم يمنعهم أن الدولة تدر عليهم أرزاقاً قد لا تكون كثيرة ولا غزيرة  
ولكنها الآن أكثر وأغزرها منذ عشرين سنين . هي بحيث تمكنهم  
من الحياة الهادئة المطمئنة ، وما أحسبهم يطعمون مع الأسف الشديد  
في أكثر من الحياة المطمئنة . ثم يمنعهم شيء آخر هو أجل من هذا  
كله خطراً وأنا قائله ومعتذر إلى علماء الدين من هذه الصراحة في  
القول ، يمنعهم أن الواجب الذي يشعرون به ويعتقدون أنهم  
مكلفون أداءه في هذه الحياة ضيق جداً أضيق من الواجب الحقيقي  
الذي يفرضه عليهم الدين وحاجة الاجتماع . هم يعتقدون أنهم علماء  
أى أن الله قد أودعهم علوم الدين فهم يبذلون هذه العلوم للناس في  
الأزهر وماحقته ، وهم يصلون ويشرفون على إقامة الشعائر الدينية  
الرسمية . وإذا ألقوا دروسهم وأدوا صلواتهم وألقى بعضهم من حين إلى  
حين خطب الوعظ ، فقد أدوا ما يجب عليهم لله والناس وإذا كان  
الناس لا يطعمون في علوم الدين اليوم كما كانوا يطعمون فيها في القرن  
الماضي ، وإذا كان الناس لا يختلفون إلى المساجد في هذه الأيام كما  
كانوا يختلفون إليها في الأيام الماضية ، فقد أصبح نفع العلماء للمهية  
الاجتماعية كما يقولون محدوداً ، قليلاً ، وسيشتد قلة مع مضي الزمن  
لأن اختلاف الناس إلى الأزهر سيقبل غداً كما قل اليوم ، ومن هنا  
يزيد العلماء على حاجة الاجتماع ، وتصبح طائفتهم بعد زمان طويل

أو قصير طائفة لا تشتد الحاجة إليها . إذن فالعلماء بين اثنتين ، إما أن يقاربوا بين أنفسهم و بين العصر الذي يعيشون فيه وأن يصبحوا كغيرهم من الناس يشعرون بما يشعر به معاصروهم ، وإما أن يستعدوا لهذا اليوم الذي ليس منه بد ، والذي يصبحون فيه عالة على الجماعة المصرية لا يرجى منهم خير ولا يعتمد عليهم في نفع .

نعم ! يتصور العلماء واجبههم تصوراً ضيقاً جداً ، فهم مكلفون شيئاً آخر غير إلقاء الدروس وإقامة الصلوات ، هم مكلفون أن يأملوا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ولم يقل أحد إن إلقاء الدروس وإقامة الصلاة هما كل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هم مكلفون أن يشتركوا في جميع أعمال الخير . هم مكلفون أن يحتملوا ألوان العناء في كشف الضر عن البائسين . هم مكلفون ألا تخلو منهم جماعة خيرية . هم مكلفون ألا تخلو محلة في مصر من آثارهم الخيرية . هم مكلفون أن يتصوروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصوراً صحيحاً واسماً يجعلهم عضواً نافعاً في الجماعة .

لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين في أوروبا من هذه الناحية لدهشوا دهشاً عظيماً ولعلموا أنهم بعيدون كل البعد عن أداء واجبههم الديني . كتبت من أوروبا في السنة الماضية فصولاً عن رجال الدين الغربيين وعن هذا الجهد العظيم الذي يبذلونه ليكون

حظهم من العلم والفن كحظ غيرهم من رجال العلم والفن ، وذكرت  
هذا الأسقف الذي اشترك في مؤتمر التاريخ في بروكسل وذكرت  
هؤلاء القسيسين الذين قدموا إلى هذا المؤتمر مذكرات قيمة تمس فروع  
التاريخ على اختلافها وتمتيت لو استطاع عالم من علماء الدين عندنا  
أن يشترك في المؤتمر الجغرافي الذي سيقام في مصر في العام المقبل .  
أما في هذا الفصل فلست أذكر علم رجال الدين الغربيين ولا اجتهادهم  
في تحصيل العلم ، وإنما أذكر تصورهم لواجبهم الديني وهو مع الأسف  
الشديد أصح وأرقى من تصور علماءنا لواجبهم

أذهب إلى أصغر قرية وأحقرها من قرى أوروبا وتبين عمل  
القسيس في هذه القرية تجده عظيماً شديد الشعب ، فهو يؤدي قبل  
كل شيء ، واجبه الديني المعقد في الكنيسة يقيم هذه الصلوات  
الكثيرة المتنوعة ويتقبل اعترافات المؤمنين إلى غير ذلك من أعمال  
الكنيسة . وهو يعنى بكنيسته عناية مادية فيشرف لا على أن تكون  
نظيفة حسنة النظام بل على أن تزدهر بما استطاع أن يزينها به من  
آثار الفن ، ثم هو بعد هذا أستاذ ديني لأطفال القرية جميعاً يختلفون  
إليه في كل يوم يأخذون عنه مبادئ الدين وأصوله ، ثم هو موسيقي  
بحكم عمله الديني وهو أستاذ للموسيقى في قريته ، ثم هو متفانل في  
حياة القرية لا يفت من يده مولود ولا ميت ، يتلقى المولود ليعمده

ويزور المحتضر ليصلي عليه ويأبسه كلمة الدين ، وهو يجود بنفسه ،  
ويودعه إلى قبره ، ثم هو بعد هذا كله مكلف بحكم الدين أن يبحث  
عن الضعفاء وذوي الحاجة فيواسيهم ويعزيهم ويأقن ألوان العناء  
في حمل الناس على الصدقات يأخذ من أغنيائهم ما يرده على فقراءهم ،  
ثم هو بعد هذا وذاك رجل <sup>برور</sup> طلبة يريد أن يتعلم ، فهو يختص بدرس  
نوع من أنواع العلم أو لون من ألوان الفن .

هذه خلاصة حياة القسيس في قرى أوروبا ومدنها . فأين منها  
حياة رجال الدين في الشرق الاسلامي ؟ ومن هنا انتهت أوروبا إلى  
ما انتهت إليه من الالحاد والكفر ورفض الدين ، ولكنها لم تستطع  
وإن استطيع أن نخلص من القسيسين . ذلك لأن القسيسين يتطورون  
مع أوروبا ويحتالون في ألا تفوتهم الجماعات أو تقات من أيديهم  
ويسلكون السبل المختلفة ليصلوا إلى قلوب الناس من طريق الدين  
إن كانوا مؤمنين ومن طريق العلم إن كانوا علماء ومن طريق الفن  
إن كانوا فنيين ، ومن طريق الخير إن كان شيء من هذا لا يعينهم .  
ومن هنا كان القسيس في أوروبا جزءاً غير منفصل من الجماعات  
لا يستغنى عن الجماعة ولا تستغنى الجماعة عنه . ومن هنا انفصلت  
الكنيسة عن الدولة في فرنسا مثلاً وانقطعت معونة الدولة للكنيسة  
فما انهارت الكنيسة ولا افتقر رجالها وإنما أدى الناس إلى الكنيسة

ورجالها أضعاف ما كانت تؤدبه إليهم الدولة . وهذه مدارس الكنيسة في فرنسا تراحم مدارس الدولة فتزحمها . فأين رجال الدين في الشرق الاسلامي من رجال الدين في الغرب المسيحي ؟ وماذا يرى الأستاذ الزنكلوني والأستاذ أبو العيون وأصحابهما في هذا كله وأيهما أجدى وأيق بالكرامة ؟ أن يعمل رجال الدين حتى يكرهوا الدولة والأمة على أن يشعرا بالحاجة إليهم أم لا يعملوا وإنما ياحون في الطالب ويبالغون في الاخلاص ويحرصون على أن يتدخلوا في كل شيء ، دون أن يشعر الناس بنفعهم حين يتدخلون في كل شيء ؟ أما أنى أتمنى على الأساتذة علماء الدين أن يفكروا في هذا و يطيلوا التفكير فيه فقد يجدون فيه عظة وعبرة . ثم لا أخفى عليهم أنى معجب بهذا القسيس الذى سمته يدعو الأطفال إلى الخيل وأتمنى أن أجد بين شيوخنا من يستطيع فى يوم من الأيام أن يدعو الأطفال إلى الخيل دون أن يجد من جيبته أو عمامته ما يصرفه عن ذلك أو يزهده فيه .

البوليجين فى ٢١ اغسطس سنة ١٩٢٤



## باريس

أريد أن اكتب عن باريس ، ولكنى لا أدري ماذا أقول  
عن باريس ، لا لأن الكلام يعوزنى ، ولا لأن الخواطر تنقصنى ،  
بل لأن لدى خواطر لا أستطيع أن أحصيها ولا أن أنظمها ، ولأن  
لدى كلاما لا أستطيع أن يؤثر بعضه على بعض ، فما أكثر ما أريد  
أن أقول ، وما أشد عجزى عن تسطير ما أريد أن أقول . وماذا  
تريد أن أفعل ؟ ولست من الفن ورقة القلب بحيث كان الكتاب  
الفرنسى « رينان » الذى زار عاصمة العالم القديم فقدم إلى آلهتها  
هذه الآية الفنية الخالدة التى هي صلاته إلى آلهة الحكمة فى أتيننا .  
ماذا تريد أن أفعل وليس لى حظ « رينان » من الفن ولا من ورقة  
القلب ، وقد حرمنى الله كل خيال أو قدرة على التصرف فى الخيال .  
ومع ذلك فى باريس آلهة يستحقون أن يتقدم إليهم الانسان بالصلاة  
كما تقدم « رينان » إلى آلهة الحكمة فى مدينة أتيننا

فى باريس علم لا يقاس إليه علم الأتينيين ، وفى باريس فلسفة  
لا تقاس إليها فلسفة الأتينيين وفى باريس حرية لا تذكر معها حرية

الأتينيين ، وفي باريس حضرة تهيئها إن قرنت إليها حضارة  
الأتينيين . وفي باريس حياة يعجز الفرد مهما تكن قوته عن فهمها  
والإحاطة بها والتعمق في تحيياها ثم يعجز الفرد مهما تكن قوته عن أن  
يعطيك منها صورة صحيحة أو مقاربة . ليس بين أتيننا وباريس  
إلا شبه واحد وهو أن أتيننا كانت عاصمة العالم القديم ، وأن باريس  
عاصمة العالم الحديث . فإذا قررنا هذا الشبه فيجب أن نقرر ما بين  
المدينتين من فرق وهو عظيم أعظم من أن نتصوره ، هو الفرق بين  
العالم القديم والعالم الحديث

أنا مفتون بأتيننا وفلسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها ، ولكني  
على هذه الفتنة لا أستطيع أن أقيس أتيننا إلى باريس  
علم الأتينيين وفلسفتهم ، ماذا كانا بالقياس إلى ما في باريس  
من علم وفلسفة ؟ كانا محاولة ساذجة غليظة فيها ضعف الأطفال  
وغرورهم لفهم الحياة وتفسيرها . حرية الأتينيين ماذا كانت بالقياس  
إلى الحرية في باريس ؟ كانت نوعا من الامتياز لطائفة من الناس  
و ضربا من التسلط والاحتكار انتهى بمصادرة حرية الرأي وبالحكم  
على سقراط بالموت . أما باريس فيمكن أن تصل إليها وأن تعيش  
فيها يوما أو بعض يوم لتشعر بما لها من عظمة وجلال وحق في الخلود  
لست في حاجة إلى أن تفهم ، ولست في حاجة إلى أن تحلل ولست

في حاجة إلى أن تكون عالماً أو أديباً لتكبر باريس أو تقدر مكانتها في الحياة الحديثة وإنما يكفي أن تكون قادراً على أن ترى وقادراً على أن تسمع وقادراً على أن تتنسم انمواء وأنا زعيم لك بأنك ستقدر باريس وتكبرها وتحبها

ليس لي حظ « رينان » من الفن لا أقدم إلى باريس الخالدة مثل ما قدم هو إلى أتيذا الخالدة ، وليس لي حظ هذا الصديق المسافر النهي يرسل مذكراته إلى « السياسة » من حين إلى حين والذي أحسبه عاد الآن إلى مصر ، أقول ليس لي حظه من حلوة الفكاهة ودقة الملاحظة وخفة الروح وسلامة الذوق لأحدثك عن باريس بشيء يشبه ما حدثك به عنها ، وإنما أنا بعيد كل البعد عن هذه الخصال التي امتاز بها هذا الصديق فجعلت فصوله ومقالاته حلوة عذبة أو جعلتها الحلاوة والعذوبة نفسها ، ولكن لي وجهها خاصا في حب باريس والاعجاب بها والحياة فيها . وأحسب أن لكل إنسان يحب باريس وجهها خاصا في حبه لهذه المدينة ، فأنت لا تستطيع أن تحبها من كل وجه لأنها أوسع من حياتك وأعظم من قدرتك على الحب وأرفع وأجل من أن يحيط بها حب فرد أو افراد . أما حين كنت مقبلا في الجبل أخرج من حين إلى حين للرياضة فأزور القرى وأتبع ما فيها من جمال طبيعي أو إنساني فقد كنت لا أصل إلى

قرية أو محلة إلا حاولت أن أشرب من مائها ، وكان يخيل إلى أنى متى ذقت هذا الماء الذى ينحدر إلى هذه القرية أو المحلة ويعيش منه أهلها فقد اتصلت نفسى بهذه القرية أو المحلة ، وشاركت أهلها فى شىء من الأشياء . كذلك كنت وأحسبى سأكون أبداً إلا أباغ مكانا إلا حاولت أن تكون بينى وبينه صلة قوية أو ضعيفة ، أما إذا بلغت باريس فلست أطعم فى أن أشرب من مائها لا وجد الصلة بينى وبين أهلها ، وإنما أطعم فى أشياء أخرى بها توجد هذه الصلة . ولا أعتقد أنى فى باريس حقاً إلا إذا أرضيت نفسى من هذه الأشياء . يجب أن أشتري كتابا فى العلم أو فى الأدب وأن أقرأ منه فصلا أو فصولا ، ويجب أن أذهب إلى ملعب من ملاعب التمثيل الهارل أو الجاد وأن أصفق مع المصفيق وأضحك مع الضاحكين أو أبكى مع الباكين . ثم يجب أن أذهب إلى مكان من هذه الأماكن التى يختلف فيها الباريسيون إلى آيات الموسيقى فاستمع لهذا اللحن البديع وأنسى أمامه نفسى ساعة أو ساعتين فاذا اشتريت كتابا وقرأت ، وإذا ذهبت إلى ملعب التمثيل وتأثرت ، وإذا سمعت الموسيقى وذهبت لها فأنا فى باريس حقاً أشعر بما يشعر به الباريسيون ، وقد وجدت بينى وبينهم هذه الصلة التى أحب أن توجد بينى وبين كل مدينة أو قرية أزورها .

ولغيرى وجوه أخرى في حب باريس . هناك من يحب باريس لما يجد فيها من هذه الحركة العنيفة ، حركة الحياة العملية ، وهناك من يحب باريس لأن فيها « مونتارتر » ، وهناك من يحب باريس لأن فيها للفرد حرية لاتعدها حرية ، وضروبا من اللذات منها المباح ومنها المنكر ، منها ما يستطيع الانسان أن يعلنه إلى الناس جميعاً ، ومنها ما يحب الانسان أن يخفيه حتى على نفسه ، وهناك وجوه أخرى لا يكاد يبلغها الاحصاء ، ولكنها كلها تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي أن شعوب الأرض جميعاً قد تحب فرنسا وقد تكرهها وقد تكون سالماً لها أو حرباً عليها ولكنها كلها مجمعة على حب باريس وإيثار الإقامة فيها حيناً من الدهر أو شطراً من العمر .

ولقد قرأت منذ أسابيع فصلاً نقلته جريدة « الطان » عن إحدى الصحف الأميركية الكبرى حاول فيه كاتبه أن يتقصى الأسباب التي تحمل الناس جميعاً على أن يحبوا فرنسا ويؤثروا الإقامة فيها وفي باريس خاصة فأعجبني هذا الفصل لأنه لا يخلو من صواب ولا من طرافة ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يحيط بأطراف المسألة حقاً . يظهر أن الأميركيين يحبون فرنسا عامة وباريس خاصة لأن فيها سهولة العيش ولين الحياة وضروبا من اللذة لا يجدونها في بلادهم ،

أهمها لذة الطعام والشراب . فيظهر أن الله لم يرزق بلاداً من البلاد من المهارة في إجادة الطعام ما رزق فرنسا . ويظهر أنه لم يرزق بلاداً من البلاد من جودة الأشربة ما رزق فرنسا . فكثير من الأجانب الذين يهرعون إلى فرنسا في جميع أجزاء السنة إنما يهرعون إليها لأنهم يأكلون فيها فيجدون الأكل ، ويشربون فيها فيجدون الشراب . وكثير منهم يهرعون إلى فرنسا وإلى باريس خاصة لأنهم يجدون في الشعب الفرنسي والباريسي شيئاً في الخلق وصفاء في الطبع ورفقاً في المعاملة وحلاوة في الصلات لا يجدونها في بلد آخر . وكثير منهم يهرعون إلى فرنسا وإلى باريس لأنهم يجدون في فرنسا وفي باريس شيئاً من الفرح والابتهاج والابتسام للحياة مهما تكن صروفها ، ومهما تكن خطوبها ، لا يجدونه في غير فرنسا وفي غير باريس . وهناك أسباب أخرى ذكرها هذا الكاتب وأسباب لم يذكرها . وماذا يعني أن نوفق إلى إحصاء الأسباب التي تجذب فرنسا إلى الناس وتحملهم على أن يهرعوا إلى باريس كما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . ماذا يعني من هذا كله ونحن لا نكتب تاريخاً ولا فلسفة وإنما نلاحظ حقيقة لا تتحمل شكاً ولا إنكاراً : وهي أن الناس جميعاً مهما اختلف أهواؤهم بالقياس إلى فرنسا فهم يحبونها ويحبون منها باريس بنوع خاص .

لست كهذا العالم المصري الذي كان يحب باريس، وكان إذا وصل إليها تفرغ على أرضها كما كان يتمرغ قيس بن ذريح على آثار لبني! لست كهذا العالم. فما حدثتني نفسي في يوم من الأيام أن أهوى إلى أرض باريس ثمًا وتقبيلاً. بل إن في باريس لأماكن كثيرة يعرفها المصريون الذين اختلفوا إلى هذه المدينة ولا أعرفها ولم تحدثني نفسي بأن أعرفها. وإن في باريس لأماكن كثيرة أكرهها وأمقت الاختلاف إليها، ولكني أعشق في باريس مكاناً أعتقد أنه أقدس مكان في العالم الحديث، وأنه الرأس المفكر لهذا العالم، لا أستثنى منه بلداً ولا مكاناً، وهو الحى اللاتيني. أنا أعشق هذا الحى وأهيم به هيئاً وأعلن في ضعف وتواضع أني لا أكاد أحس نفسي فيه ولا أكاد أشعر بأنى أمشي في شوارعه حتى أشعر أن قد تجدد شبابي واستأنفت كل ما فقدت من نشاط، فأنا أتنفس في حرية، وأفكر في حرية، وأتحرك في حرية، وأنا أحب الحياة وأحرص عليها وأتمنى منها المزيد. وأقول إن هذا الحى اللاتيني هو أقدس مكان في العالم الحديث وهو الرأس المفكر لهذا العالم، ولست أقول هذا عبثاً، ولا يدفعني إليه الحب والاعجاب، وإنما هو الحق الذي لا يقبل شكاً ولا جدالاً. وإني لأشعر بشيء من المهابة والجلال لا أستطيع وصفه كلما ذهبت إلى

هذه الرقعة من الأرض التي يقوم فيها « البنطيون » وترتفع فيها كنيسة « سانت جنيفيف ». أشعر بهذه المهابة وهذا الاجلال لأن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض كانت مصدر التور التي انبعث في أوروبا بالمطامة أثناء القرون الوسطى قبل أن تظهر النهضة في إيطاليا . لأن هذه الرقعة كانت مهد الفلسفة ومأواها حين لم تكن فرنسا كلها ولا أوروبا كلها إلا ميداناً تصطرع فيه المطامع والمنافع أقبح صراع وأشنع . كانت هذه الرقعة من باريس مصدر الحياة العقلية لأوروبا كلها في القرون الوسطى . ولقد تغير الزمان ودارت الأيام دوراتها المختلفة وعبثت الخطوب والأهوال بالعالم الحديث ، وظل هذا المكان من باريس مصدر الحياة العقلية للعالم كله أليست تقوم فيه جامعة « السربون » ؟ أليست تقوم فيه « الكوليج دي فرانس » ؟ ولقد أحب أن أجد مهداً علمياً في أوروبا أو أمريكا أقرنه إلى « السربون » أو إلى « الكوليج دي فرانس » وأحصى له من الآثار في إحياء العقل الانساني وترقيته ما يقرب من آثار « السربون » و « الكوليج دي فرانس » فيعيني البحث ويخطئني ما أريد .

إن فرنسا تستطيع أن تتعرض للأزمات المختلفة وأن تتجشم من الأهوال ضرراً وصرافاً ، وأن تنزل بها المحنة بعد المحنة والبلاء

بعد البلاء ، وإن فرنسا لتستطيع أن تبغ من المجد ما تريد وما لا تريد ،  
وأن تحرز من ألوان الظفر ما تحب وما لا تحب ، وإن فرنسا لتستطيع  
أن تنزل من قلوب الناس منزلة البغض أو منزلة الحب ، تستطيع  
فرنسا أن تفعل هذا كله وأن تتعرض لهذا كله ولا تكن واثقة بالخلود  
واثقة بأكبار الناس إياها وتقديسهم لها ما بقي فيها الحى اللاتينى ، وما  
قامت فى هذا الحى « السربون » « والكوليج دى فرانس »

باريس فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤

## في مهلهي باريس

نعم ! فقد لهوت وكانت رغبتى في اللهو من البواعث القوية  
التي حبت إلى الذهاب إلى باريس . ولم أخفي ذلك وأكتمه ؟  
وأنا أعلم والناس جميعاً يعلمون أن المسافر إلى باريس أو غيرها من  
مدن أوروبا إنما يتخذ اللهو غرضاً من الأغراض الأساسية في برنامج  
رحلته . وهل كان السقر نفسه إلا ضرباً من اللهو وفناً من فنون  
العبث يعمد إليه المتعبون ليستريحوا ويرغب فيه المستريحون ليتعبوا ؟  
وكنت متعباً . وكنت أريد أن أستريح . وكنت أرى الراحة في أن  
ألهو عن هذه الأشياء التي قضيت فيها العام كله فأجهدتني ، وبغضت  
إلى الحياة . وكنت وما زلت أعتقد أن من الحق للناس على وأن من  
الحق لي على نفسي أن أعود إلى هذه الأشياء التي سئمتها نفسي  
وسئمتني وأن استأنف هذا العمل الذي أجهدتني طوال العام الماضي  
حتى بغض إلى الحياة . وكنت أعلم أني لن أستطيع العودة إلى هذه  
الأشياء واستأنف هذا العمل إلا إذا استرحت ولهوت وأخذت من  
الراحة واللهو بحظ عظيم . وقد فعلت ، وقد عدت إلى مصر ، وقد

استأنفت هذا العمل الشاق ، فإذا هو هين لين لا عسر فيه ولا مشقة .  
ولكني أعيد أنه سيعسر وأنه سيشق وأنى سأسأله وأنه سيسأمني  
وأنى سأصرف عنه وأنه سيرهد في ، وأنى سأحتاج إلى الراحة واللهو  
وأنى سأستريح وأهو ثم أستأنف الجهد والعمل . وكذلك حياتنا نتعب  
لنستريح ونستريح لننتعب حتى يأتي هذا اليوم الذي لا تعب  
بعده ولا راحة .

إذا فقد لهوت في باريس ، لا أكنتم ذلك ولا أخفيه . ولم أكنتم  
أو أخفيه وليس فيه والحمد لله ما تم ولا مدعاة إلى لوم ؟ وإنما هو  
ضحك برىء وعبث تطمئن إليه النفس الهادئة التي لا تعبت بها  
الأهواء ولا تعصف بها الشهوات .

لهوت في باريس واختلفت فيها إلى أندية اللهو التي هي زينة  
تلك المدينة وبهجتها ولها في رفع شأن باريس وتقديتها على غيرها  
من مدن الأرض أثر قد لا يكون أقل من أثر « السربون »  
و « الكليج دي فرانس » وانجام العلمية المختلفة . ولم لا ؟ أليست  
جامعة باريس ومعاهدها العلمية ملجأ للعقل الإنساني تأوى إليه ثمراته  
ونتائج بحثه في العلوم والفنون المختلفة ؟ وهل أندية اللهو الباريسي  
البريء إلا ملاجئ للعقل الإنساني والشعور الإنساني ؟ فيها تظهر  
ثمراتها الحلوة والمرّة وفيها يتعلم الانسان من الانسان ، ويظهر الانسان

على الانسان ، وفيها يتعلم الانسان كيف يكون حيواناً اجتماعياً كما يقول  
أرسططاليس أو مدنياً بالطبع كما يقول فلاسفة العرب .

لست أدري أي شعر للمصريون المتعبون الذين يذهبون إلى  
باريس يمثل ما كنت أشعر به هذا الصيف ، فقد كنت شديد الميل  
إلى أندية الهزل والضحك شديد الانصراف عن أندية الجد والعبوس .  
لم أكن أميل في هذا الصيف إلى بيت موابير ولا إلى ما يمثل فيه  
من جد . بل لم أكن أميل بوجه ما إلى التراجيديا إنما كان ميلي كله  
إلى الكوميديا من جهة وإلى الموسيقى من جهة أخرى .

وتقد حاولت أن أتبين في نفسي أسباب هذا الميل إلى ما يضحك  
ويلهي والانصراف عما يحزن ويعظ فلم أوفق إلا إلى سبب واحد  
لا أدري أخطأ هو أم صواب ؟ ذلك أننا « منطومون » في مصر  
كما يقول الفرنسيون من اللهب الصريح البريء ومن الضحك الذي  
يريح النفس حقاً ويجلو عن القلب أصداء الحياة العاملة . وهذه الحياة  
العاملة نفسها كثيية في مصر منذ سنين ، قد أثقلتها الهموم وأفعمتها  
الأحزان ، فنحن مشفقون على منافعنا العامة نخشى أن يعث بها  
الخصوم في الخارج أو أن يضيعها المواطنين في الداخل . ونحن  
مشفقون على منافعنا الخاصة نخشى أن تعث بها الخصومات الحزبية  
وتأتى عليها العواصف السياسية . نحن قلقون لا نطمئن إلى شيء .

ولا نثق بشيء ، ولا نبسم لشيء ، . فليس عجيباً إذا خنصنا من هذا الجور القمق المضطرب أن تبهلك على هذه الأشياء التي حرمتها في مصر وحال بيننا وبينها طبعنا من جهة واضطرابنا السياسي والاجتماعي من جهة أخرى .

نعم ! فطبعنا لا يخلو من ضامة ، ومزاجنا أقرب إلى المرارة والحزن منه إلى الدعابة والابتسام .

نحن لا نلهو لأننا لا نعرف اللهو ولأن في طبعنا نفوراً من اللهو . ولست أدري أخطيء أنا أم مصيب في هذه الملاحظة وهي أننا كنا بعد الثورة الوطنية الأخيرة قد أخذنا نتعلم اللهو بل نسرف فيه ، فكانت الأغاني الفكاهية ذاتعة عامة ، وكان التمثيل الفكاهي رائجاً ، منتشرأ ، وكنت لا تكاد تمضي في الشوارع العامة إلا سمعت الأطفال والشبان من العزل ومن إليهم يتغنون أغاني « كشكش » . وكنت لا تكاد تمر بين الدور في الأحياء الراقية إذا أقبل المساء أو جن الليل إلا سمعت البيانو يوقع الحان كشكش . وربما وقفت لاستماع صوت رخيم عذب يتغنى مع هذا الإيقاع . وكان أصحاب الأخلاق وأهل الحرص على الآداب العامة ينكرون هذا الفساد ويشفقون منه . وكنا نقول إن هذا الانحلال الخلقى عرض من أعراض الثورة . وكنا نستبشر به لأن الثورة الفرنسية قد استتبعته مثله ، فكان

الفرنسيون يجاهدون أعداءهم الداخليين والخارجيين ، وكانوا يحتملون  
آلام الجوع والفاقة ولا يكتفون كانوا يلهون ويسرفون في اللهو .  
وربما كانوا يستعينون باللهو على ما كانوا يأتون من جلائل الأعمال  
ويحتملون من أثقال الحياة .

كنا كذلك ، وأظن أن السلطة العامة احتاجت في بعض  
الأحيان إلى أن تدخل في الأمر وتكفكف من غلواء المسرفين  
فأفقت أو حاولت أن تقفل بعض المراقص . أما الآن فأحسب أن  
هذا قد تغير وأنا قد انصرفنا عن اللهو انصرافاً واضحاً .

انصرفنا عن اللهو دون أن يعظم حزننا من الجد ، فليست حياتنا  
العامة والخاصة أكثر إنتاجاً وأشد خصباً الآن منها حين كنا نلهو  
ونعبث . ولعل لا أغلو في الخطأ إذا لاحظت أن حياتنا الدستورية  
هي التي صرفتنا عما كنا فيه من لهو ، وأزالت عن شفاهنا هذا الابتسام  
للحياة . ذلك لأننا اعتقدنا يوم نفذ الدستور وأشرف البرلمان على  
الحكم أن الأمر قد رد إلى أهله ، وأنا مقبلون على ساعات الجد  
والعمل فانتظرنا وما زلنا ننتظر .

ولم لا نقول كلمة الحق ؟ كانت الوزارات التي أشرفت على الحكم  
قبل الدستور قليلة الحظ من ثقة الجماهير ، فلم يكن الناس يحفلون بها ،  
ولا ينتظرون منها خيراً بل كانوا يسيئون بها الظن ويتخذونها موضعاً

للعيب والنقد . وكانت أعمالها وقراراتها تلهم الممثلين الهازنين والمغنين العابثين . وكان الناس يرتاحون إلى الضحك منها واتخاذها سخرية وهزواً . أما الآن فقد أشرف على الحكم رجل كانت تحبهم الجماهير وتفتن بهم ، فلم يكن من اليسور أن تتخذهم الجماهير موضوعاً للهو والعبث . وإذا لم تعبت الجماهير بحكامها ولم تسخر من وزراءها ونوابها فهي مضطرة إلى الحزن والكآبة .

سلى عما يميز الديمقراطية حقاً ، أجبك بأن النظام الديمقراطي الصحيح هو الذي يتيح للجماهير ان تنهو على حساب حكوماتها بل على حساب أبطالها . فاذا أردت دليلاً ناطقاً بصدق هذا التعريف فاذهب إلى باريس واختلف إلى أندية اللهو فيها واسمع إلى ما يقال عن « هريو » و « دومرج » وعن « بوانكاريه » و « ملران » وانظر إلى هذه الجماهير الفرنسية المختلفة تهالك ضحكا من وزراءها ورؤساء جمهوريتها ، استغفر الله بل من علمائها وكتابها . ومهما أنس فان أنسى أغنيتين سمعتهما في باريس ورأيت ابتهاج الجماهير لهما . في إحداها مقارنة بين أمعاء المسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية القائمة وأمعاء المسيو بوانكاريه رئيس الوزارة الفرنسية المستقيلة ، وفي الأخرى عبت بالمسيو هريو حين يعمد إلى التلغون .

ولكني قد بعدت أشد البعد عما كنت أريد أن أتحدث إليك

فيه ، وهو ملاهي باريس وقد يحسن أن أعود إلى هذا الحديث  
لم أكن حسن الحظ هذا الصيف ، وما أظن أن غيرى كان  
أحسن حظا مني . فقد وصلنا إلى باريس أيام الراحة حين يتفرق عنها  
الممثلون النابليون ليجوبوا أقطار الأرض الفرنسية والأجنبية ويعرضوا  
فمنهم على المصطافين في سواحل البحر ومدن المياه ، وحين يستريح  
الكتاب استعدادا لفصل الشتاء إذ يعرضون آثارهم الجديدة على  
الجمهور الباريسي وقد عاد من مصايفه إلى باريس ، وحين تجهد  
الملاعب التمثيلية في أن تستغل ما لديها من قصص الفصل الماضي  
لتلهم بها السامعين الذين يترون بباريس . ومع ذلك فقد هوت حقاً  
وضحكت كثيراً .

ولقد يكون من العسير أن أذكر دون أن أضحك قصة شهادتها  
في ملعب « الباليه رويال » عنوانها « قباني » كان الممثلون يمثلونها  
للمرات الأخيرة ويستعدون لتمثيل قصة أخرى ظهرت أول هذا الشهر  
ومع ذلك فقد كان الملعب مكتظاً بالظاهرة . والغريب من أمر باريس  
أنك تستطيع أن تزورها في أي فصل من فصول السنة وأن تختلف  
إلى ملاعبها وأنديتها وبيوتها التجارية ، فستجدها دائماً مكتظة بالناس  
وستضطر دائماً إلى أن تتخذ الحيلة لتبلغ منها ما تريد .  
تريد أن تشهد قصة تمثيلية فيجب أن تأجر كرسيك في الملعب .

قبل يوم التمثيل . تريد أن تشتري شيئاً في أحد البيوت التجارية الكبرى فيجب أن تذهب في الصباح أو أن تكون صبوراً محتملاً إن ذهبت في المساء .

ذهبت إلى الملعب بعد ظهر يوم من أيام الآحاد الباريسية ، ولم أكن قد احتطت وكان المطر عنيفاً ثقيلًا فلم أجد إلا كرسي فاحشة الغلاء ، فاتخذت منها كرسيين ، وأعترف بأنى لم أسف على ما أنفقت لأنى ضحكت بأكثر من ستين فرنكاً !!

أسرة شريفة كانت غنية ثم أصابها الفقر ، تقيم في قصرها المرهون محتملة ألوانا من الضيق ، ثم تصبح ذات يوم وإذا القصر قد بيع من أجنبي ، وإذا هي مضطرة إلى أن تترك هذا القصر الذى تتوارثه منذ خمسة قرون . ولكن لهذه الأسرة شابا مسرفا فى اللعب والعبث قد أدى واجبه الوطنى أثناء الحرب وعرف فى الخندق صديقا من الطبقات المنحطة أمه تباع الفاكهة ، وقد انقضت الحرب وانغتنى ابن بائعة الفاكهة حتى أصبح ضخماً الثروة فكتب إليه صديقه الشريف يقترض منه مالا لأنه خسر فى اللعب ، وأقبل هذا الصديق يحمل إلى صديقه ما أراد . فانظر إلى هذه الأسرة النبيلة تأنى أن تقبله فى القصر ، وأن تضيفه أياما حتى إذا قبلت ذلك بعد مشقة أخذت تبرم بالفتى وتزدريه ، لأنه لا يعرف طرائق الحياة الأرستقراطية . وكانت عمه الشاب

النبل أشد الأسرة بغضاً له وتبرماً به ، لا تكاد تلاحظه ولا تكاد  
تحسب لوجوده حساباً . ولكن الفتي علم ببؤس هذه الأسرة واضطرارها  
إلى أن تترك القصر فأسرع فاشتراه سرّاً ثم أخذت الأسرة تظهر  
شيئاً فشيئاً على هذا السر حتى علمت به ، وإذا هي العوبة في يد  
هذا الشاب الذي تزدر به ولا تضيفه إلا كارهة . ولكن هذا الشاب  
كريم خير ، فهو يعرض القصر على الأسرة ولا يبتغي له إلا ثمناً  
ضئيلاً هو أن « يقبل » هذه المرأة التي تزدر به وتغلو في بغضه ، فإذا  
عرض عليهم هذه الصفة اضطربوا فما اضطربوا بشديداً ، فأما الأسرة  
كلها فتقبل ، وأما هذه المرأة فتأبى وتنفرد ثم تذكر أنها قد تطرد من  
القصر وأن الأسرة قد تصبح مشردة ، فتضطر إلى القبول مقتنعة بأنها  
تقدم نفسها ضحية في سبيل الاحتفاظ بالكرامة والتراث القديم .  
وقد استعدت هذه التضحية كما استعدت « ايفيجيني » لتضحى على  
مذبح أرتميس . ثم خلت إلى الفتي فوقفت موقف الجلال وقالت له  
في ازدراء وسخرية وإذعان للقضاء المحتوم « قبلى » ولكن الفتي  
كريم ، فهو لا يريد أن يقبل هذه المرأة ، وإنما يكفيه أنها قد أذعنت  
لما يريد وهو مستعد لأن ينزل للأسرة عن هذا القصر ، ولكن  
المرأة قد دهشت هذا الانصراف عن تقبيلها ، وكأنها تعجب بكرم  
هذا الفتي ، وكأنها في الوقت نفسه تسخط على هذا الكرم وكأنها

كانت تحرص على هذه القبلة دون أن تعلم بهذا الحرص ، وكأنها ترى عدول الفتي عن تقبلها إهانة لها وإصغاراً لجأها . تشعر بهذا كله شعوراً واضحاً غامضاً في وقت واحد

وكنت ترى الفتي يكره هذه المرأة ويريد أن يذها ، ولكنك تراه الآن لا يكرهها بل يكبرها ولا يريد أن يذها بل يريد أن يجلبها ، وإذا هو يعان إليها حبه في هذه اللغة الشعبية الغليظة الصريحة ، وإذا هي تضرب هذا الحب اضطراباً عنيفاً ، وإذا الحب قد أزال ما كان بينهما من مسافة مادية ومعنوية . وإذا هو يتجاوز القبلة ، فإذا كان الصبح فهي آسفة نادمة تنقطع لوعة وندما لأنها اقترفت هذا الأثم مع رجل ليس من طبقها ، وهي تعلم أن نساء من أسرتها قد اقترفن هذه الخطيئة ولكن إحداهن اقترقتها مع رجل من رجال القصر الملكي والأخرى مع كردينال ، أما هي فقد اقترقتها مع رجل أمه كانت تبيع الفاكهة . وهي تريد أن تأخذ نفسها بأشد أنواع العقوبة تريد أن تزهد في الحياة وأن تذهب إلى الدير والفتى بين يديها يعتذر ويستغفر ويعان إليها في ضراعة ومذلة أنه سيرح القصر حتى لا ترى وجهه البغيض ، فإذا سمعت هذه الجملة غضبت غضباً لاحد له وعنت الفتي تعنيفاً ثقيلًا قائلة : أهكذا تريد أن تسليبي عن هذه النكبة

المفكرة؟! ثم فهمنا أنها تريد نوعاً آخر من أنواع التسلية وفنا آخر  
من فنون النسيان والعزاء . . . .!

ولست أتم لك تلخيص القصة، وإنما يكفي أن تعلم أنها تنتهي  
بالزواج بين هذين المحبين لأن شريفاً انجليزياً تبني الفتى ومنحه ألقاب  
شرقه فأصبح كفتناً لعشيقته

ولم تبني الشريف الانكليزي هذا الفتى؟ لا تسأل عن ذلك .  
فقد يكون في الجواب على هذا السؤال ما يوضح أم هذا الفتى وقد  
ماتت . ولا ينبغي أن يذكر الموتى إلا بخير  
على أنى قد زرت ملاعب أخرى وشهدت فيها قصصاً أخرى  
وسأحدث عنها في فصل آخر .

---

## زوج ألين

كنت أريد أن أضحك حين ذهبت إلى ملعب ميشيل لأشهد تمثيل هذه القصة « زوج ألين » وكنت واثقاً بأنى سأضحك وسأضحك كثيراً ، لأن العنوان في نفسه مضحك ولأن القصة كانت تمثل لأول مرة ، فلم يكن النقاد قد كتبوا عنها بعد ، ولأن أسماء الممثلين الذين اشتركوا في تمثيلها كانت تدل على طائفة من الذين مهروا في الفن المضحك ، فأسرعت إلى الملعب مبتهجاً ، وكأني كنت أضحك مقدماً ، وكذلك شأن الناس في باريس يذوقون مقدماً ما يبتغون من لذة لأنهم يعلمون أن هذه اللذة ستكون قوية حادة ، وأنهم سيظفرون منها بأكثر مما يبتغون .

ذهبنا إلى الملعب ضاحكين ، ولم يكديرفع الستار حتى أغرقنا في الضحك ولكن ما هي إلا دقائق حتى استحال هذا الضحك إلى حزن وعبوس ، وحتى أحسنا في أنفسنا شعوراً غريباً ليس من اليسير تفسيره لأنه شيء ليس بالسرور الخالص ولا بالحزن الخالص أو قل أنه شيء أبلغ

أثرآ في النفس من الحزن الخالص ، ولكنه يكرهك مع ذلك على  
الابتسام ، وربما أكرهك على الضحك والاغراق فيه . تبسم وأنت  
عابس وتضحك وأنت محزون .

ذلك لأن الممثل يعرض عليك من خصال الانسان ما يضحكك  
مظهره أردت أم لم ترد ، وما يحزنك مخبره رضيت أم لم ترض .  
لا يكاد يرفع الستار حتى ترى امرأة متقدمة في السن أقرب  
إلى الشيخوخة منها إلى التوسط في العمر ، لباسها ملامس لسننها وملائم  
لمصدرها واطبقتها الاجتماعية ، فلا تكاد تسمع حديثها حتى تحس  
أنها ليست من باريس ، وإنما وفدت من الأقاليم ، وحتى تفهم أنها  
من هذه الطبقة الغامضة التي لا تبلغ أوساط الناس ولا تريد أن  
تنحط إلى سفلتهم . قد مات عنها زوجها وترك لها ابنة هي « ألين »  
وهي بارعة الجمال رشيقة القدر ، عذبة الصوت ، وقد ضاقت الحياة بها  
وبابنتها ، فاجأتنا إلى باريس ، وآواها رجل موسيقى بارع في فنه ،  
ولكنه سيء الحظ بهذا الفن ، لا يكسب حياته إلا بمشقة ، أحب  
الفتاة فأواها وآوى أمها وأصبح أستاذها وعشيقها والقيم على حياتها .  
وقد مهرت الفتاة في الغناء كما مهرت في الرقص وتقدمت إلى أحد  
الملاعب الباريسية ، فقبلت فيه مغنية راقصة ، وهي تبدأ عملها هذه  
الليلة وأمها تنتظرها متأثرة ، مضطربة فرحة ، مشفقة تقدر الفوز

وتريد أن تحتفل به ، فهي تعد مائدة عليها من الطعام والشراب هذه الألوان التي لا يرضاها الموسرون ولا يظفر بها المعسرون إلا بعد الجهد والعناء ، وهي تتحدث بكل ما في نفسها إلى خادم لها حديثة السن ، خفيفة الحركة ، مسرفة في القول ، فلا تكاد تسمع حوارها حتى يأخذك الضحك فتغرق فيه حين ترى هذه المرأة التي تكاد تكون شيخخة تتحدث في لهجة الجد إلى هذه الفتاة التي تكاد تكون طفلة !! وهما في هذا الحديث الذي تزيانه جداً واضحك نحن منه ، إذ يدخل الموسيقى فرحاً ، قد ملأه الفرح اضطراباً ، فهو يبكي ولا يكتن بكاءه نفسه مضحك ، وهو يعلن إلى الأم فوز ابنتها ويحاول أن يمثل لها هذا الفوز ، فيجهد في تقليد الفتاة حين غنت بعض المقطوعات التي أعجب بها الجمهور ، والأم سعيدة مغتبطة ، ولكنها مع ذلك ليست راضية لأنها تكره الملاحى وكانت تود لو استطاعت أن تجد عنها منصرفاً لابنتها ، أما الموسيقى فسعيد بهذا الفوز ولكنه مشفق منه ، مشفق لأنه يخشى أن تنصرف الفتاة عنه إلى هؤلاء النظارة الأغنياء الذين سيرونها في الملهى وسيتملقونها .

تحس منه ذلك ، وتحس أيضاً أنه يحاول كتمان هذا الخوف ، وقد أقبلت الفتاة فرحة ، مبهجة ، متأثرة ، فهي تقبل أمها وتضم عاشقها وتشكره ، ولكن لن يتاح لهؤلاء الناس أن يحتفلوا بهذا الفوز فيما

بينهم فقد أقبل مدير الملهى وأعوانه ورجل غنى من زعماء الصناعة  
يهنئون الفتاة بهذا الفوز ويدعونها إلى أن تنفق معهم شطراً من  
الليل فى حانة من هذه الحانات التى يقد إليها الباريسيون إذا خرجوا  
من الملاعب فىأكلون ويشربون ويهبتون، ونحن نحس أنهم عرضوا  
ذلك على الفتاة فقبلته قبل أن تعود إلى أهلها، ولكنها تظهر التردد  
الآن، لأنها لا تريد أن تترك صاحبها . فما أسرع ما يدعو القوم  
صاحبها إلى الذهاب معهم فيعتذر ويلحون وتظهر هى الرغبة فيقبل  
كارهاً ، وينصرفون على أن يرسلوا إليهما السيارة بعد حين . فاذا  
خلا العاشقان رأينا هذه الأشياء التى تطير القلوب سروراً وتقطبها  
حزناً . رأينا هذا الموسيقى يريد أن يلبس زى السمّر ، فاذا ثيابه  
وأدواته من الرداة واللبى بحيث يجعله ذلك ويؤديه . ولكنه  
مبتسم يجتهد فى أن يكون حسن الزينة ، وإذا هو يفتقد أزراره ،  
فاذا وجد منها واحداً أخطأه الآخر ، وصاحبته تزين ، وقد أعارها  
الملعب ثوب الرقص فهى فيه خلافة بارعة . ولكن كثيراً من  
أدوات الزينة ينقصها وهى تشكو ذلك مغتاضة ، فاذا أحست من  
صاحبها الألم ابتسمت وتكلفت تهوين الأمر عليه ، وصاحبها بعدها  
بمضاعفة العمل يكسب لها ما تحتاج إليه ، وقد أقبلت السيارة فانظر  
إلى الأم مبهتجة ، مفتونة بجمال ابنتها ، وانظر إليها تتبع ابنتها وقد

أخذت بفضل ثوبها حتى لا يصيبه غبار السلم ، وانظر إلى الخادم  
الطفلة تسبقهم جميعاً وفي يدها الشمعة تضيء السلم وانظر إلى العاشق  
محزوناً يتكافئ الانبهاج ، وبأساً يتكافئ النميم .

فإذا كان الفصل الثانی فقد تغير هذا كله ، وسترى قوماً تنكرهم  
لأن النعمة أُلْمَتْ بهم فأزالت كل ما رأيت في الفصل الماضي من  
مظاهر البؤس . ذلك لأن « ألين » قد اشتهر أمرها وظهر نبوغها ،  
فابتسمت لها الثروة وأصبحت لا تشكو عمراً ولا ضيقاً ، وظهرت  
آثار ذلك حولها فأما أمها فليست شبيخة ولا كالشبيخة ، وإتمامها امرأة  
وسط فيها قوة وشباب ، تلبس على آخر طراز ، وتزدان على آخر  
طراز ، وقد تغيرت لهجتها فهي باريسية ، وتغير صوتها فهو رخيم ،  
وتغيرت حركاتها فهي رشيقة ممتازة . وأما الموسيقى فقد أصبح شاباً  
قويًا بادی الطرف حسن الزينة رائع المنظر وقد اقترن بصاحبته .  
وكذلك الخادم تغيرت وامتازت . والغريب أنها ليست وحدها في  
البيت بل يشاركها غلام عاين العناية بعرف الاستقبال وما إليها .  
ولسنا في باريس ولا في ذلك البيت الذي يضاء بالشمع ويخشى  
غبارُه على فضل الثياب وإنما نحن في بيت أنيق فخم في مصطاف على  
ساحل البحر يجمع أرقى الطبقات وأغناها إذا أقبل الصيف من كل  
عام . ونحن نرى مدير الماعب وصاحبته وأعوانه وذلك الرجل

يترددون على « ألين » فيلعبون ويصفقون ، ونحن نرى زوج « ألين » سعيداً مقتبلاً ينبيء صديقه بأن الله قد أذن له أن يكون غنياً ، وأنه يضع قصة موسيقية ستنال الجائزة من غير شك ، وأنه سيكون ناقداً موسيقياً لصحيفة كبرى ، وأن كل شيء في الحياة يبسم له . ولكن انظر إلى القوم قد أقبلوا ، وانظر إلى الموسيقى قد خرج مع صديقه في بعض شأنه ، وانظر إلى « ألين » قد خلت إلى الرجل الغني بينما يجلس الآخرون أمام غرفة الاستقبال يرقبون عودة الزوج وكأنهم يلعبون ، واسمع إلى هذا الحديث يقع بين « ألين » وبين صاحبها الغني . فاذا هما عاشقان وإذا هي تحون زوجها ، وإذا هذه الخيانة مصدر ما ترى من نعيم ، ولكن هذا الرجل ضيق الصدر بهذا الزوج الغني .

ضيق الصدر لأنه يريد أن يستأثر بصاحبته وهذا الزوج الغني يحول بينه وبين ذلك

وفي الحق أغني هذا الزوج حقاً أم هو متغاب ؟ أليس يتكاف الغفلة ليستمتع بنعيم الحياة ؟

ذلك شيء يفترضه الغني وتأباه « ألين » وهما في الحديث والعبث إذ يسمعان صياح أصحابهما الذين يلعبون « لقد أقبل فلان ! لقد أقبل فلان ! »

تنبها ، فانفصلا . ودخل الموسيقى وانصرف القوم ، وأخذ الزوجان يتحدثان ، فإذا الرجل محزون بأفس ، وإذا امرأته اللعوب تسأله عن مصدر هذا الحزن فيتردد ثم يجيبها بأنه سمع الناس يذكرونه فيقولون «زوج ألين» ولا يسمونه باسمه ، وبأنه رآهم يشيرون إليه وبتسمون ، فهو إذن يشك . وهي تدافعه عن هذا الشك بما أوتيت من حيلة ودكٍّ ودعابة . وانظر إليه قد أخذ حقيبة امرأته ونظر فيها فإذا مقدار ضخم من المال فلا يزداد إلا شكاً . وانظر إليه يذكر أن امرأته لعبت الميسر أمس وخسرت كثيراً ولم تنبئه بشيء وإنما سمع بذلك عفواً ، فهو لا يزداد إلا شكاً . وانظر إليه قد استكشف عند امرأته عقداً من الجواهر لا علم له به فلا يزداد إلا شكاً . ولسكنها ماهرة وهو عاشق فتستطيع أن تخدعه عن أمرها وأن تستميله إليها وأن تخليه بما تبذل من لذة ، وهو أغني من غلامه الذي يفهم كل شيء . ويتحدث إلى زميلته الخادم بكل شيء .

فإذا كان الفصل الثالث تحدث الموسيقى إلى صديقه وقد استيقن كل شيء ، وأصبح لا يشك في خيانة امرأته .

ذلك أن القوم اعترضوا الخروج للنزهة وتخلف هو عنهم متكافئاً العمل ثم تبعهم وهم لا يعلمون فلم ير فيهم زوجه ، ولم ير فيهم ذلك الرجل الغني ، وإذن فقد كذبت عليه امرأته حين زعمت أنها خارجة

للزهوة وأنفقت يومها مع صاحبها . ونحن نعلم ذلك لأننا سمعناه في  
الفصل الثاني . وانظر إلى هذا الموسيقى متأماً محزوناً ولكنه متجدد  
صبور ، يعلن إلى صديقه أنه سيترك هذه الحياة كلها وسيعود إلى  
حياته الأولى : حياة البؤس والشرف والكرامة ، ولكنه يريد أن  
يلهو قبل هذه العودة ، وإنه للهو الأليم .

أقبل القوم جميعاً من نزعتهم وفيهم « أئين » وفيهم الرجل  
الغنى ، وكلهم يقص ما رآه ويصف جمال الزهوة والموسيقى مبتهج  
يتحدث إليهم جميعاً حديث من لا يشك في شيء وأنت ترى من  
القوم جميعاً أنهم يسخرون منه ، ويرون فيه الغفلة ، وقد هموا بالانصراف  
ليلتقوا بعد حين إلى مائدة العشاء في الحانة . وإذا الموسيقى يمسك  
الرجل الغنى ليبقى معه حيناً ، فإذا انصرف القوم وخلا الزوجان إلى  
هذا الرجل الغنى بدأت طائفة من المواقف المؤثرة التي تملؤك عطفاً  
على الزوج وسخطاً على امرأته وإعجاباً بالكاتب والممثلين . انظر  
إلى هذا الزوج الموتور يريد أن ينتقم لنفسه ولكرامته ، ولكنه  
لا يريد أن يكون سخيلاً ، ولا ضحكة ، ولا مجرماً ، فهو لا يريد  
العنف ولا سفك الدم ، وإنما يريد أن يكون مترقفاً في انتقامه . انظر  
إليه يعذب الخائنين عذاباً ألماً لأن موضعه الضمير . يستثير غيره الرجل  
الغنى بما يبدي من التلطف لامرأته ، وبما يتكلف من مداعبتها وقد  
ضمها إليه ، ثم أجلسها على حجره ، وأخذ يداعبها هذه المداعبة المشروعة

بين الزوجين ، والتي لا تكون إلا في الخلوة ، والرجل ينظر ويتألم دون أن يستطيع اعتراضاً أو احتجاجاً ، والمرأة خجلة ذليلة بين هذين الرجلين الذين يتقسماها وهي تتكلف الحياء لتخلص من هذا الموقف الأليم ولكن الزوج لا يحفل بحياتها ولا بألمها . وهو الآن ينتقل من المداعبة إلى الحديث ، فيقص على صاحبه أسرار الزوجية وما تمنحه امرأته من لذة إذا خلت إليه حتى إذا قضى وطره من تعذيب الخائنين وإذلالها أطلق امرأته فذهبت لتصاح من شأنها قبل العشاء ، وخلا هو إلى الخائن ، وهنا موقف ليس أقل من الموقف الذي سبقه جمالا وتأثيراً . هذا الزوج يتحدث إلى عاشق امرأته ، فما هي إلا أن يعلن إليه أنه يعلم كل شيء ، فاذا وجم الرجل وسأله عما يريد وانتظر الكارثة ، أعلن الزوج إليه أنه لا يريد شيئاً وأنه راض بهذه الحال وإذا الرجل الخائن شديد الازدراء لهذا الزوج الذي لا يجرى الدم في عروقه والذي يرضى أن تكون امرأته شركا بينه وبين غيره . يريد أن ينصرف فيمسكه الزوج ، إذ ليس بد من الاتفاق على أشياء وتدير مصالح لا بد من تديرها . هما شريكان في المرأة وقد يمكن أن يكونا غداً شريكين في طفل تله هذه المرأة . وما يزال هذا الزوج يرقى في تمثيل الضعة والمهانة والحيانة والأثم حتى يكشف عن أحس ما في النفس الانسانية من عاطفة . إنه يلهو ، وهو يلهو بازدراء الانسان ، فاذا بلغ من ذلك ما يريد أطلق الرجل ، وقد اتفق معه على أن يأتي بعد حين ليحمل

هذه المرأة في سيارته إلى حيث يريد . ثم تقبل المرأة فيلقاها زوجها مبتسما ، وتأخذ في عتابه على ما أباح من أسرار الزوجية ، فما يزال بها حتى يعان إليها أنه عالم بكل شيء ، وراض عن كل شيء ، وقابل لهذه الشركة التي تضمن لها الثروة والنعيم . وإذا المرأة تزدرى زوجها حقاً وتحتقره احتقاراً لا حد له ، وإذا هي تتألم حقاً لأنها كانت تريد أن يحبها زوجها ، وأن يكون شديد الغيرة عليها ، فإذا هي ترى نفسها متاعاً يتقسمه رجالان . ولكن الزوج قد أطال الصبر والتكف وغلا في كظم عواطفه ، فهو لا يستطيع الآن صبراً ، وانظر إليه وقد انفجر كما ينفجر البركان . فهو نائر فائر لا يكاد يملك نفسه ، ولا يكاد يمسكها عن اغتيال هذه المرأة ، وقد ظهر حبه قوياً عنيفاً ، وظهرت غيرته ، وكلها روع وهول وهو يصيح بامراته « أترين في ما يدلك على أنني قواد ؟ » والمرأة وجلة مضطربة ولكنها سعيدة مغتبطة لأنها تشهد الحب والغيرة ، ولأن زوجها لا ينظر إليها نظره إلى المتاع ، وهي تريد أن تستغفر ، وتريد أن تتوب ، ولكن الزوج يحاول طردها ، ثم يبدو له فيطرد نفسه ، وقد أنبأها أن صاحبها سيأتي بعد حين ليحملها في سيارته ، وقد انصرف وتركها تعسة ، بأسة تنتحب وتصيح ، ولكن السيارة قد أقبلت ، وهي تدعو بالبواب ، فانظر إلى هذه المرأة قد نهضت متناقلة إلى المرأة فأصلحت من شعرها ووجهها وخرجت في هدوء تجيب داعي اللهو والثروة والنعيم .

القسم الرابع

## بين العلم والدين

### ١

الناس معنيون في هذه الأيام عندما بالخصومة بين العلم والدين . وقد بدأت عنايتهم بهذه الخصومة تشتد منذ السنة الماضية، حين ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فبهض له رجال الدين ينكرونه ويكفرون صاحبه، ويستعدون عليه السلطان السياسى . وزادت هذه العناية شدة حين ظهر فى هذه السنة كتاب « فى الشعر الجاهلى » فبهض له رجال الدين أيضاً ينكرونه، ويكفرون صاحبه، ويستعدون عليه السلطان السياسى .

والحق أن هذه الخصومة بين العلم والدين — كما قلت فى غير هذا الموضع — قديمة يرجع عهدها إلى أول الحياة العقلية الفلسفية . والحق أيضاً أن هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قوية متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف بينهما كما سترى أساسى جوهرى لا سبيل إلى إزالته ولا إلى تخفيفه إلا إذا استطاع كل واحد منهما أن ينسى صاحبه نسياناً تاماً ويعرض عنه إعراضاً مطلقاً . وقد نعرض بعد قليل لهذا الموضوع فى شىء من التفصيل والاسهاب . ولكن

الذي نحب أن نلاحظه منذ الآن هو أن التفكير في هذه الخصومة بين العلم والدين قد حمل بعض المفكرين على أن يلتمسوا لها أسباباً قريبة أو بعيدة ، وعلى أن يسألوا أنفسهم أليس إلى إزالتها من سبيل ؟ وقد نشأ عن هذا التفكير نوع من الفلسفة قيم كثرت فيه الكتب والمباحث . ولسنا نريد أن نعرض له إلا من ناحية واحدة وهي الناحية التي تتصل بالسياسة وتحملها على أن تنصرف للعلم مرة وللدين مرة أخرى ، وعلى أن تعتر حيناً بهذا وحيناً بذاك . وإذا عرضنا لهذا الموضوع فلسنا نريد إلا شيئاً واحداً هو تحقيق التوازن بين هذه المؤثرات الثلاثة في حياة الأفراد والجماعات وهي العلم والسياسة والدين الحق أن الخصومة لم تكد تنشأ بين العلم والدين أو بين العقل والدين حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت بها عن وجهها المعقول إلى وجه آخر ، لم يخل من الأثم بل من الاجرام .

أول خصومة ظاهرة بين العقل والدين هي هذه التي نشأت في آخر القرن الخامس قبل المسيح حين أخذ سقراط يطوف في شوارع أثينا ومعه حوارته وفلسفته يقف بهما حيناً عند هذا الخداء ، وحيناً آخر عند الحمام ، ومرة في أحد الميادين العامة ، ومرة أخرى في نادي الألعاب الرياضية ، ويدعو إليه الشبان والكهول والشيوخ أحياناً فيحاورهم في الحق والعدل والواجب والقصد وما إلى ذلك من هذه

المسائل التي كانت تشغل الشعب الأثيني في ذلك الوقت . لم يكن سقراط يتخذ عداوة الدين مذهباً ، ولا الخروج عليه غاية لفلسفته أو حوارهِ ، بل نستطيع أن نقول إنه كان من أشد معاصريه محافظةً وامتدالاً ، فهو إما كان يخاصم السوفسطائية ، ويريد أن يهدم مذاهبهم في الشك ، وأن يرد إلى العقل سلطانه ، ويبين أن حقائق الأشياء ثابتة ، ولكنه كان يحاور على طريقة السوفسطائية ، وكان يتخذ الشك سبيلاً إلى اليقين ولم يكن يكره أن يضع كل شيء موضع البحث ، وأن يعرض كل شيء للشك حيناً والانكار حيناً آخر ، فلم يسلم الدين ولا غيره مما كانت تحتفظ به اجماعة الأثينية من خطر هذا الشك والانكار . ولم يسلم الدين من خطر هذا الشك ، ولم يسلم منه النظام السياسي الأثيني أيضاً ، فقد كان سقراط يحاور في كل شيء ويعرض — كما قلنا — كل شيء للشك والانكار . وكان الشعب الأثيني في آخر القرن الخامس قبل المسيح حريصاً مسرفاً في الحرص على نظامه الديمقراطي الذي ائتمره الأرسقراطيون غير مرة فعرضوه للخطر وأزالوه حيناً ما . فلم يكن من الغريب أن يكره الشعب الأثيني كل فلسفة تمس هذا النظام الديمقراطي ، أو تعرضه للشك ، أو لتصرف عنه الشباب قليلاً أو كثيراً . ولم تكن الديمقراطية الأثينية قد وصلت إلى ما وصلت إليه بعض الديمقراطيات الحديثة من الفصل بين

الدولة والدين، وإنما كانت تقيم السياسة على الدين وترى الدين أصلاً من أصول وجودها، وأساساً من أسس حياتها، وفصلاً من فصول نظامها السياسي. فكانت فلسفة سقراط أمام الديمقراطية الأتينية آئمة من وجهين: آئمة لأنها تعرض النظام نفسه للخطر، وآئمة لأنها تعرض الدين للخطر. ومن هنا لم يكبد خصوم سقراط يقفونه موقف القضاء من الشعب حتى ظهر تدخل السياسة في الخصومة بين العقل والدين، وكان موقف سقراط من قضائه أثناء الدفاع وبعد الحكم محققاً، يثير السخط ويدعو إلى القسوة. ففسى القضاء وأثمت السياسة حين قضت بالموت على أبي الفلسفة.

ومن ذلك الوقت أصبحت الخصومة بين العقل والدين، أو قل بين العلم والدين أمراً لا مندوحة عنه: يخاف الدين كل فلسفة وكل علم، ويرتاب العلم بكل دين. ومن ذلك الوقت تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين، وظهر أنه إن يكون موقف إصلاح بينهما، وإنما هو موقف إفساد وإحراج وإثارة للحفيظة والحقد.

لم يقف سخط السياسة الأتينية على الفلسفة عند القضاء على سقراط وإنفاذها هذا القضاء فيه، وإنما تجاوزته إلى اضطهاد تلاميذه والشك فيهم، ففرقوا في الأرض واستخفت الفلسفة من أتينا حيناً فلما عادت إليها وسمعتها، ولكن مع شيء كثير جداً من التحفظ

والارتباب ، فما اطمأنت الديمقراطية الأتينية يوماً إلى أفلاطون  
ولا رضيت عن ارسطاليس ، والناس جميعاً يعلمون أن المعلم الأول كاد  
يقف من القضاء موقف سقراط لو لا أن هرب من أتينا .

٢

ليست الخصومة بين العلم والدين إذن مقصورة على ما نعرف  
من الخصومة بين الديانات السماوية والعلم والفلسفة أثناء القرون  
الوسطى وفي هذا العصر الحديث . وإنما هي كما رأيت قديمة ، قد ظهرت  
بين الديانة الوثنية اليونانية وبين فلسفة سقراط وتلاميذه . ومع ذلك  
فقد كانت الديانة الوثنية اليونانية من أيسر الديانات وأقربها إلى  
السذاجة وأقلها حظاً من التعصب . وحسبك أن هذه الديانة اليونانية  
كانت تخلو خلواً تاماً من مؤثرين عنيفين : أحدهما الكلام ، والآخر  
الكليروس . لم يكن للديانات اليونانية كلام أو لاهوت بل لم تكن  
لليانات اليونانية عقائد محددة وإنما كانت هذه الديانات عبادات  
وطقوساً — كما يقولون — لا أكثر ولا أقل . لم تكن للآلهة  
صفات معروفة معينة يكفر من ينكرها أو يشك فيها ، ولم يكن  
ليونان علم يشبه هذا العلم الذي يتقنه اليهود والنصارى والمسلمون  
وهو علم اللاهوت . وكذلك لم يكن لليونان قسيسون يحتكرون هذا

العلم ويقومون على حماية الدين وصيانتته من عبث العابثين ، أو إلحاد  
المتحدين ، وإنما كان كل يوناني قادراً على أن يؤدي لآلهة ما يجب  
لهم من عبادة ، وكان زعيم الأسرة قسيسها ، وكان زعماء المدينة  
كهناتها . وإذا لم يكن للدين لاهوت يفرضه على الناس فرضاً ، وإذا لم  
يكن للدين هيئة قسيسين أو كهنة يحتكرون حمايته والقيام عليه . فخلق  
بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من التعصب والجمود ، وخلق بهذا  
الدين أن يكون قليل الحظ من مصادرة العقل ومخاصمة حرية الرأي  
والوقوف في سبيل التطور والرقى . ومع هذا كله فقد اختصم هذا  
الدين الساذج اليسير مع الفلسفة وانتهت الخصومة بموت سقراط .  
ذلك لأن الخلاف بين العلم والدين لا يستمد قوته وعنفه من الفرق  
بين جوهرى العلم والدين فحسب ، وإنما يستمد قوته وعنفه من مصدر  
آخر ، هو أن الدين حظ الكثرة والعلم حظ القلة ، فسواد الناس  
مؤمن ديان ، مهما يختلف العصر والطور والمكان ، والعلماء أو المفلسفون  
قلة دائماً . فليس غريباً أن تظهر الخصومة قوية عنيفة بين هذه القلة  
الشاذة التي نسميها العلماء أو الفلاسفة والتي تفكر على نحو خاص  
لم يألفه الناس ، وليس من اليسير عليهم أن يألفوه ، والتي لا تكتمل  
بالتفكير لنفسها ، وإنما تريد أن تفكر لنفسها وللناس أيضاً ، والتي إذا  
فكرت وانتهى تفكيرها إلى رأى لم تكتمل باذاعته وترويجه ، وإنما

تذود عنه وتجادل، وتسرف في الذود والجidal، والتي لا تكفي بهذا كله وإنما تحرص على التأثير بتفكيرها وما ينتهي إليه من رأى، وتحرص على أن تلائم بين حياتها العملية وحياتها العقلية، فتمتاز من الناس من ناحيتين مختلفتين: تمتاز منهم في حياتهم اليومية، وتمتاز منهم في القول والتفكير. وأنت تعلم أن السواد أشد ما يكون كرهاً للتفوق وأعظم ما يكون بغضاً للامتياز، فهو يريد دائماً أن يكون الناس سواسية في كل شيء، سواسية في القول والعمل، سواسية في الأكل والشرب والنوم والمشي وغيرها من مظاهر الحياة. وأنت مهما تبحت عن أسباب التطور التي اضطرت لها المدن القديمة ودالت لها الدول الحديثة، فستجد في مقدمة هذه الأسباب سبباً محققاً هو بغض السواد للتفوق والامتياز، وطموحه إلى المساواة بين الناس فإذا كان هذا التفوق يمس أصلاً من أصول الحياة العامة، بل يمس أيسر هذه الأصول وأقربها تناولاً وأشدّها اتصالاً بالضمير والنفوس وتأثيراً في الحياة اليومية، نقول إذا كان التفوق يمس هذا الأصل الذي هو الدين فخلق بالسواد أن يبغضه ويشور به وينكل بالمتفوقين تنكيلاً متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكذلك كان ميل السواد في أمتنا. وكذلك كان موقفه من

سقراط وتلاميذ

على أن تقرير هذا الأصل ، وهو بغض السواد للجديد لا ينتهي بنا إلى هذه النتيجة وحدها ، وإنما يعيننا على فهم حقائق أخرى وقعت في العصور القديمة والوسطى ولم يحاول الباحثون أن يردوها إلى أصولها الصحيحة . فالسواد لا يكره تفوق العلماء ، وخدمهم ، وإنما يكره التفوق من حيث هو . قل إن شئت إنه يكره كل جديد ، وهو مضطر بحكم هذا الكره إلى أن يقاوم هذا الجديد ما استطاع ، فإما أن ينتصر فلا جديد ، وإنما أن ينخزل فيتسلط الجديد شيئاً فشيئاً حتى يصبح قديماً ، ويستعير من خصمه الأول كل الأسلحة التي حارب به بها ، ليدافع بها عن نفسه ، ويهاض بها كل جديد . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن السواد القديم اليوناني والروماني لم يحارب الفلسفة وحدها ، وإنما حارب الدين أيضاً . فأما اليونان فقد وقفوا موقف الخصومة من ديانات شرقية حاولت أن تنبث في بلادهم ، ووقفوا بعض التوفيق في هذا الموقف ، فلم تستطع هذه الديانات الشرقية أن تنتشر في البلاد اليونانية جهرة ، وإنما ارتدت عنها ارتداداً أو انتشرت فيها خلسة فكانت لنفسها جماعات سرية تؤدي واجباتها من وراء ستار .

وأما الرومان فكروها في أول الأمر فلسفة اليونان أشد الكره ، لقوها بالازدراء ، ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فخطروا درسها وبلغ بهم

ذلك أن زعيما من زعمائهم هو « كاتو القديم » توسل إلى مجلس الشيوخ في أن يتعجل في قضاء حاجة لبعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب . وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لإلقاء محاضرات فلسفية في روما . ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها ، وإنما كرهوا معها كل جديد أيضاً ، وليس أدل على ذلك من اللفظ الذي اصطلح الرومان عليه للتعبير عن الثورة وقلب النظام فهو « الشيء الجديد » فهم لا يقولون إن فلاناً يريد أن يشور ، أو إن فلاناً ثار وإنما يقولون : إن فلاناً يريد أن يحدث شيئاً جديداً . ذلك أن الرومان كانوا من أشد الشعوب القديمة في الغرب محافظة وحرصاً على القديم . ومع أن دينهم لم يكن أشد من الدين اليوناني تعقيداً ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز من الدين اليوناني امتيازاً قوياً من وجهين ؛ الأول أنه كان أشد من الدين اليوناني تسلطاً على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الروماني من أشد الناس طيرةً وإشفاقاً ، يخاف من كل شيء ، ويرى تأثير الآلهة في كل شيء ، ويحرص على أن يتمتعهم ويتراضهم . وكان وجود الأسرة نفسها قائماً على أصول من الدين . وكانت الجماعة الرومانية كالفرد الروماني حذرة متطيرة .

وكان وجودها السياسي كوجود الأسرة قائماً على أصول ثابتة من الدين . ونحن لا نعرف عند اليونان زجراً ولا عيفة ولا قيافة ، ولكننا نرى هذا كله عند الرومان ونراه مؤثراً أشد التأثير في الحياة الخاصة والعامة جميعاً ؛ الثاني أن هذا الفرق بين الفرد اليوناني والروماني من حيث التأثير بالدين قد استتبع نتيجة طبيعية ، وهي أن تكون رعاية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير في نفوس الأفراد والجماعات ، فنضمت حماية السياسة بالدين في روما تنظيمًا قوياً ، وقام في روما شيء يشبه ( الاكليروس ) له سلطته الدينية وله امتيازاته أيضاً . وإذا كان رئيس الدولة سواء أكان ملكاً أو قنصلاً إنما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قلى من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلين حماية الدين . وكذلك قامت بحماية الدين في روما جماعة ( الاكليروس ) وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذي كان واجبه الأول حماية ماترك الأباء . فلا تعجب إذا رأيت الرومانيين يقاومون الجديد مهما يكن ، ويشتمون في مقاومته إذا مس الدين . ولا تعجب إذا رأيت الرومان في عصورهم الأولى يبغضون أشد البغض ويناهضون أشد المناهضة هذه الديانات الأجنبية التي حاولت أن تنبث في روما بعد أن انبسط سلطان روما على الأرض

٤

كل هذا يرجع إلى أصل واحد وهو أن الدين أقوى ما يمثل نفس السواد ، فالسواد به كلف ، وله محب ، وعليه حريص ، وعنه ذائد ، يبذل في ذلك ما يستطيع من قوة وجهد . وقد قنت منذ حين إن حرص السواد على دينه لا يكلفه محاربة العلم والفلسفة وحدها وإنما يكلفه محاربة كل جديد من شأنه أن يمس الدين . ومن غريب الأمر أنك إذا فكرت قليلاً فيما تسميه خصومة بين العلم والدين رأيت أن بعض الديانات أو أن الديانات السماوية نفسها قد كان ينظر إليها كما ينظر إلى العلم ، أى أن الديانات القديمة كانت تكره دين اليهود والنصارى وتحاربهما كما كانت تكره فلسفة سقراط وتحاربها لا لشيء إلا أن ديني اليهود والنصارى كانا جديدين مخالفين لطبيعة هذه الديانات الوثنية القديمة . ولسنا في حاجة إلى أن نقف بك عند هذه الحرب المنكرة التي أثارتها وثنية الرومان على دين اليهود أولاً وعلى دين النصارى ثانياً ، فأنت تعرف من تفصيل هذه الحرب وعن اضطهاد الوثنية لليهودية والنصرانية ما يغنينا عن مثل هذا الاستطراد . ولكننا نلاحظ أن الأسباب التي حملت الوثنية الرومانية على أن تنكر توحيد اليهود والنصارى وتنصب له الحرب وتمزق أهله تمزيقاً ، هي بعينها الأسباب التي حملت وثنية

اليونان في آخر القرن الخامس قبل المسيح على أن تقضى على سقراط وتذيقه الموت . هي بعينها الأسباب التي تتصل بعواطف السواد وميوله الدينية من ناحية ، وبالسياسية واستخدامها لهذه العواطف والميول من ناحية أخرى . ولعلك تقنع بهذا اقتناعاً لا يقبل الشك إذا فكرت في طبيعة الأمبراطورية الرومانية التي حاربت اليهودية والنصرانية قروناً متصلة . كانت هذه الأمبراطورية الرومانية تقوم على الدين كما كانت الديمقراطية الأتينية والأرستقراطية الرومانية تقومان على الدين أيضاً . وكان الأمبراطور قد جمع إليه السلطان الديني والسياسي ، وأخذ الناس بعبادته في أقطار الأرض على أنه ممثل روما التي كانت تعبد إبان العصر الجمهوري ، وعلى أنه خليفة الله في أرضه . وكانت الشعوب الوثنية الخاضعة للسلطان الروماني لا ترى بأساً بعبادة قيصر كما أنها لم تكن ترى بأساً بعبادة روما . وكانت عبادة قيصر يسيرة على الشعوب الشرقية ، وعلى المصريين منهم بنوع خاص ، وقد ألفت هذه الشعوب منذ أول الزمان عبادة السادة والملوك . وكانت هذه العبادة عسيرة أول الأمر على اليونانيين الذين لم يألّفوا من قبل عبادة الأفراد ، والذين ضحكوا من الاسكندر حين تقدم إليهم أن يعبدوه . ولكن اليونان خالطوا الأمم الشرقية واتصلوا بها ، وكان لهم فيها ملوك عبدوا كما عبد الفراعنة وعظاء الفرس ،

فهان عليهم الأمر ومضوا فيه جادين حيناً ولاعبين حيناً آخر كما بهم  
في كل شيء ، إنما هذا الشعب السامي الذي بعد عهده بالوثنية منذ  
حين طويل ، والذي ألف التوحيد وأمعن فيه ، وهو شعب إسرائيل ،  
لم يستطع أن يفهم عبادة روما ولا عبادة قيصر ، كما أنه لم يستطع أن  
يفهم عبادة فرعون ولا أن يدين لألثة بابل وأشور . ومن هنا كانت  
ديانة هذا الشعب السامي منكراً ثقيلة على الرومان لأنها تخالف  
ديانتهم الوثنية وتختلف سياستهم القائمة على هذه الديانة . وجاءت  
النصرانية فكانت أشد مخالفة لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة القائمة  
عليها من اليهودية ، فلم يتردد قيصرة الرومان في محاربة هذه  
النصرانية إلا ريثما فهموا خطرها على السياسة والدين . ولدينا  
أقدم نص تاريخي يتصل باضطهاد النصارى ، وهو استفتاء من أحد  
حكام الأقاليم للإمبراطور « تراجانوس » آخر القرن الأول للمسيح  
في أمر هذه المنتصرة وما ينبغي أن يتخذ نحوها من سياسة ، وقد  
اعتاد المؤرخون أن يثنوا على هذا الإمبراطور لأن رده على مستفتيه  
كان رفيقاً لنا ، ومع ذلك فإن هذا الإمبراطور لم يطلب إلى  
مستفتيه أن يقر حرية الدين ، ولا أن يدع المنتصرة ، وإنما طلب إليه  
الأيحفل بما يرفع إليه الجواسيس ، فأما معاقبة النصراني الذي ثبت  
نصرانيته فلم يكن منهما بد ، لأن النصرانية كانت خروجاً على السياسة  
وعلى دين الدولة معاً .

وعلى هذا النحو من تعاون السواد وحكومة السواد . أو قل  
على هذا النحو من استغلال السياسة لعواطف السواد سفكت دماء  
النصارى فى الشرق والغرب .

وامض بعد ذلك فى تاريخ النصرانية ، فسرى أنها صبرت  
وصابرت وجاهدت حتى كان لها النصر ، وأصبحت فى القرن الرابع  
ديانة الدولة الرومانية . فلم تظفر بهذه المكانة السياسية حتى استغلتها  
فأسرفت فى استغلالها ، وسفكت دماء الاتيين وهدمت معابدهم  
وصادرت أموالهم كما سفك الوثنيون دماء النصارى وهدموا بيعةهم  
وصادروا أموالهم . ومنذ ذلك الوقت كانت مخالفة بين الوثنية والفلسفة  
لا شىء إلا لأن هذه الفلسفة قديمة كالوثنية ، مخالفة لطبيعة المسيحية  
كما أن الوثنية مخالفة لهذه الطبيعة . فأنت ترى أن الفلسفة كانت  
عدو الوثنية واقبت منها ألوان الاضطهاد . وأنت ترى أن الفلسفة هى  
التي أعانت على إعداد الشعوب القديمة للمسيحية وترقية العقل القديم  
والمباعدة بينه وبين الوثنية ، ولكنك ترى أن المسيحية لم تكذب تظفر  
بالسلطان حتى أنكرت العدو والصديق ، ونصبت الحرب للوثنية  
والفلسفة معاً . وأنت تعلم أن الأمر انتهى بالفلسفة إلى أن التمت لها  
داراً لا يتسلط فيها المسيح ، فهاجرت إلى الفرس واستظلت بلوا  
الساسانيين . وعندنا أن المسيحية لو لم تظفر بسلطانها السياسى لما

خاصت الفلسفة ولما تورطت في تورطت فيه من الجحود وإنكار  
الجميل . فهي مدينة بكثير للأفلاطونية القديمة وهي مدينة بكثير  
للأفلاطونية الجديدة . ويخيل إلينا أن طبيعة المسيحية الخالصة، وطبيعة  
الأفلاطونية الخالصة ، لم يكن بينهما من الخلاف ما ينتهي بهما إلى  
الخصومة والحرب ، لولا أن السياسة قد دخلت بينهما فأفسدت الأمر  
عليهما جميعاً .

٥

بل في الأمر ما هو أشد غرابة من هذا كله ، فقد وقعت نفس  
هذه الخصومة بين الديانات السماوية السامية نفسها وعلى النحو الذي  
وقعت به بين هذه الديانات وبين الديانات الوثنية القديمة . نريد أن  
الديانات اليهودية اعتبرت المسيح مجدداً مبتدعاً فأنكرته ، ونصبت  
له الحرب على نفس النحو الذي أنكر الأتينيون به سقراط ونصبوا  
له الحرب . ونريد أن نقول إن المسيحية بعد انتصارها قد اعتبرت  
الذي مجدداً فأنكرته ونصبت له ولدينه الحرب ، وكل ما بين  
الاسلام والمسيحية من الفرق من هذه الناحية ، هو أن المسيحية لبثت  
حيناً طويلاً لا تعز بالسُلطان السياسي ، فطال اضطهادها ولقيت  
ما لقيت من بلاء ، وأن الاسلام لم يلبث بعيداً عن السلطان السياسي  
إلا أعواماً ريثما تمت الهجرة ، فما كاد يظفر بهذا السلطان حتى دافع

عن نفسه فناهض الوثنية واليهودية والنصرانية وكان النصر له آخر الأمر .

والخصومة في حقيقة الأمر ليست بين العلم والدين ، ولا بين الوثنية واليهودية والنصرانية والاسلام ، ولا هي بين دين ودين ، وإنما هي أعم من ذلك وأيسر ، هي بين القديم والجديد ، هي بين السكون والحركة ، هي بين الجمود والتطور . وإلا فكيف تستطيع أن تفهم أن يلتقي سقراط والمسيح ومحمد عليهما السلام اضطهاداً من نوع واحد ؟ وكيف تستطيع أن تفهم أن يتشابه موقف الوثنية والمسيحية واليهودية على اختلاف الأمكنة والأزمنة وأجيال الناس وطبائع جنسياتهم ؟ كيف تستطيع أن تفهم تشابه هذه المواقف جميعاً ، إذا لم تردها إلى أصل واحد ، وهو الخصومة بين القديم والجديد ، أو استغلال السياسة للخصومة بين القديم والجديد ؟ وما الذي كان بعد أن تم النصر للإسلام في ناحية من أنحاء الأرض وانقسم العالم القديم بينه وبين النصرانية ، فاستأثر الإسلام بالشرق واستأثرت المسيحية بالغرب نحب أن تفكر في الأمر تفكيراً علمياً مجرداً من الهوى مبرأ من الغرض ، لا يتأثر بالعصبية الجنسية ولا الدينية فسترى أن الأمر قد سار في الشرق والغرب على أسلوب واحد ، فلم يكد الإسلام ينتصر ويستقر في الأرض ويظفر بالسلطان السياسي ويفرغ من الحرب

والفتوح حتى كره ملوكه الجديدَ وأكثروا الحرص على القديم واستغلوا ميل العامة إلى القديم وحرصهم عليه ، واتخذوا هذا الاستغلال وسيلة إلى الحكم والتسلط ، فانكروا كل جديد وحاربوه . وعلى هذا النحو سارت المسيحية في أوروبا ، وكان لأصحاب الدينين صرعى في الشرق والغرب . وكان العلم موضع الاضطهاد في هذين القطرين من الأرض . ولكن هنا وقفه يجب أن نقفها لتكون منصفين ، فالحق أن ليس في طبيعة الاسلام ولا في طبيعة المسيحية ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأي . ولك أن تقرّ القرآن والأناجيل وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث ، فان تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته ، أو يأخذ المقول بالجود ، أو يحظر عليها حرية الرأي قليلاً أو كثيراً ، ليس في الاسلام ولا في المسيحية إذن ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأي ، لم يكن في الوثنية اليونانية أو الرومانية ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأي أيضاً . ومع ذلك فقد أثم الوثنيون وأثم اليهود والنصارى والمسلمون واعتدوا جميعاً على حرية الرأي اعتداءً يختلف قوة وضعفاً .

أليس مصدر هذا في حقيقة الأمر إنما هو إستغلال السياسة لعواطف السواد؟ بلى ، ولولا أن السياسة تريد أن تتخذ ما تستطيع

من الطرق والوسائل لتتسلط على نفوس الناس وتتملق عواطف السواد لما قتل الأتينيون سقراط ، ولما حاول اليهود صلب المسيح ، ولما سفك الرومان دماء اليهود والنصارى ، ولما أخرجت قریش محمداً وأصحابه من ديارهم ، ولما عذب ابن رشد و « جليلي » ولما حرق من حرق وشرّد من شرّد من العلماء والمفكرين .

وشيء آخر لا بد من إثباته لنكون منصفين ، وهو أن تبعات المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين في مناهضة العلم ومحاربة حرية الرأي ، فأنت تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أودوا في البلاد الاسلامية ، وأنت تستطيع أن تلاحظ أنهم قليلون جداً ، وأن تلاحظ أيضاً أنهم لم يلقوا من الأذى إلا قليلاً . ولكنك تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أودوا في ظل المسيحية ، فستراهم كثيرين جداً ، وسترى أنهم لقوا من الأذى ألواناً منكراً أخفها السجن ، وأقساها الموت والعذاب بين هذين اللونين ومصدر هذا أن الاسلام حر طلق ليس له ما للمسيحية من ( الاكليروس ) والكنيسة المنظمة ، وأن الاسلام حر طلق أيضاً لا يأخذ العقل الانساني بما لا يطبق ولا يكرهه على الايمان بما لا يفهم ولا يضع امامه الأسرار التي يجب أن يقبلها دون روية أو تفكير . ومصدر ذلك أيضاً أن الاسلام حر طلق لم يجعل للحكومة على الناس سبيلاً فيما يفكرون

ويرون و إنما اتخذ هذه القاعدة السمجة أساساً لسياسته بإزاء حرية  
الرأى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » وهو إذن  
لم يمنح السلطة السياسية على الناس حق الموت والحياة، وإنما بين حدود  
الله تبييناً وعرف الأفراد حقوقهم وواجباتهم ، ورسم للحكومة فى هذا  
الوجه طريقاً لا تعدوه حتى تأثم . فليس للحكومة المسامة أن تعذب  
مسالمًا أو تؤذيه وهو يعلن إيمانه بالله ورسوله ، وإنما موقف الحكومة  
المسامة موقف الإسلام نفسه لا تتحرك إلا حين يتعرض الإسلام  
للخطر . هو موقف دفاع لا موقف هجوم . ومصدر ذلك أيضا أن  
الإسلام من أشد الديانات نصراً للتجديد ونعياً على الذين يسرفون  
فى نصر القديم . وكثيرة جداً فى القرآن هذه الآيات التى تسخر من  
المشركين الذين عاصروا النبى أو لم يعاصروه لأنهم أبوا الاجابة إلى  
دين الله حرصاً على القديم وكراهة أن يعبدوا ما لم يكن يعبد آباؤهم ،  
كل هذا جعل الحكومة الإسلامية وعلماء الدين من المسلمين أقل  
ميلاً إلى الاضطهاد وأشد احتراماً لحرية الرأى من الحكومات  
المسيحية ورجال الدين من المسيحيين . وقد يكون من الخير  
أن نلاحظ أن المسلمين لم يعرفوا اضطهاداً لحرية الرأى فى  
عصورهم الأولى حين كانت الحكومة عربية خالصة منصرفة إلى  
الشئون السياسية وحدها غير متدخلة فى حياة الأفراد ولا فيما

يروون . فلسنا نعرف أيام الخلفاء الراشدين اضطهاداً لحرية الرأي .  
ولسنا نعرف شيئاً من ذلك أيام بني أمية ، مع أن البدع ظهرت  
وكانت في هذه الأيام . ذلك لأن الحكومة في تلك العصور  
كانت عربية خالصة والعربي حر بطبعه ، ولأن الحكومة في  
تلك العصور كانت قريبة إلى الأصول الإسلامية الخالصة ، وأصول  
الإسلام حرة بطبعها . فإما كان عصر بني العباس وتسلطت على  
المسلمين حكومة عربية في ظاهر الأمر ، أعجمية في حقيقته ،  
ظهرت الخصومة بين العلم والدين ، وظهر اضطهاد الحكومة لحرية  
الرأي ، فكان ما كان من تتبع الزنادقة أول أيام بني العباس ، على  
أن الزنادقة كانوا يتحدثون الإسلام حقاً ويحاولون الإفساد في الأرض  
أحياناً . ثم كان ما كان من تتبع الذين يخالفون رأي الخليفة في  
الدين ، وفتنة الناس في آرائهم أيام المأمون ، ثم كان ما كان من  
تسلط الترك وتسلط الجود معهم على الحياة الدينية والعقلية ؛ فانت  
تري معنى أن الإسلام والمسيحية بريئان من اضطهاد الرأي ومناهضة  
العلم وأن إثم ذلك واقع حقاً على السياسة التي تدخلت بين الدين  
والعلم أو بين السواد والعلماء . ولما كان حظ رجال الدين المسيحي  
من سلطان السياسة أعظم من حظ رجال الدين الإسلامي ، كان  
اعتداء (الأكليروس) المسيحي على الحرية أشد خطراً وأبعد أثراً .

٦

ولك الآن أن تعكس الأمر ، فإن الدين لم يعتد وحده على العلم ، بل اعتدى العلم على الدين أيضاً حين آل إليه السلطان . وقد رأيت أن المسيحية اعتدت على الوثنية وحاربتها بنفس الأسلحة التي حاربتها الوثنية بها . وقد رأيت أننا لا نرى الخصومة بين العلم والدين من حيث هما علم ودين ، وإنما نراها واقعة بين القديم والجديد من حيث هما قديم وجديد . ولو أن سواد الناس غنى بالمسائل اللغوية والأدبية عنايته بمسائل الدين ، لكان من المجددين في اللغة والأدب صرعى وشهداء كما كان من المجددين في العلم والدين والفلسفة . ونحن نرى في أول هذا العصر الحديث حركة تدعو إلى حرية الرأي وإلى التجديد في كل شيء ، في العلم والأدب والفلسفة والدين . فأما المظهر الديني لهذه الحركة فالبروتستانتية ، وأما المظهر العلمى فحياة « جليلي » و « كوبرنيك » ومن إليهما من العلماء ، وأما المظهر الفلسفى فحياة « ديكارت » و « باكون » و « لبنيتز » و « سبينوزا » ومن إليهم ، وأما المظهر الأدبى والفنى فكل هذه الحركة القوية الخاصة التى نلاحظها فى إيطاليا ثم فى فرنسا ثم فى إنجلترا والى آخرجت من أخرجت من الشعراء والكتاب والمصورين والمثاليين . نرى هذا كله ولكننا لا نرى الحرب بين القديم والجديد عنيفة تنهى إلى سفك الدماء إلا

في المظهر الديني الخالص ، أو في ما يكون من الخصومة بين المظهر الديني  
والمظهر العلمي الفلسفي . فأنت تعلم ما سفك من الدماء بين الكاثوليك  
والبروتستانت . وأنت تعلم ما لقي العلماء والفلاسفة من أذى رجال  
الدين . وأنت تعلم أن ديكارت إنما آثر حياته في هولندا — كما يقول  
رينان — لأن الناس كانوا عنه في شغل بتجارتهم . وإذ أن فلا يد من  
أمرين لتكون الخصومة بين العلم والدين أو بين الحرية والدين عنيفة  
منكرة : أحدهما أن يعنى السواد بهذه الخصومة ، والثاني أن تستغل  
السياسة عناية هذا السواد . ولولا أن السواد عني بالخصومة بين  
الكاثوليك والبروتستانتية وبالخصومة بين العلم والدين ، ولولا أن  
السياسة اعتزت بهذا السواد لما سفك دم ولا حرق عالم ولا أودى  
فيلسوف . على أن البروتستانتية قاومت حتى كان لها النصر ، واستأثرت  
بجزء عظيم من أوروبا ، وعلى أن العلم والفلسفة قاوما حتى كان لها  
النصر ، واستأثرا بالمعقول في أوروبا أثناء القرن الثامن عشر . وليس هنا  
موضع البحث عن الأسباب التي أتاحت للعلم والفلسفة الاستمرار  
بمعقول كثير من سواد الناس أثناء هذا القرن الثامن عشر . ولكن  
هناك حقيقة وافية لاتقبل الشك ، وهي أن العقل الأوروبي تطور في  
هذا العصر تطوراً شديداً غريباً فنصب الحرب لهذين الحليفين اللذين

أذلاه حيناً وهما السياسة الملكية والكنيسة الكاثوليكية ، نصب الحرب  
لهذين الخلفين واعترف في حربه هذه بالعلم والفلسفة . وظل يجاهد حتى  
كانت الثورة الفرنسية . وهنا انعكست الآية وأثم العلم والفلسفة أو  
قل أثم أصحاب العلم والفلسفة ، كما أثم أصحاب الدين من قبل ، فضطهد  
الدين اضطهاداً شديداً ولقى رجال الدين ضروباً من المحن والنقن ،  
وكان الذين يفتنون رجال الدين ويمتحنونهم هم أولئك الذين كانوا  
متأثرين بفلسفة « فولتير » و « مونتسكيو » و « جان جاك روسو »  
و « ديدرو » وغيرهم . وكان قوام هذه الفلسفة من الوجهة العملية والنظرية  
إنما هو الدعوة إلى حرية الرأي وإلى التسامح . فإبال هذه الفلسفة  
التي كانت تدعو إلى الحرية والتسامح قد استجالت عدواً للحرية  
والتسامح . أما الفلسفة نفسها فلم تتغير ، ولم تنكر الحرية ، ولم تنصب لها  
الحرب ، وإنما ذنبها وإثمها أنها ظفرت بعد الثورة الفرنسية بالمكانة  
السياسية الرسمية فطغت أو طغى أصحابها وأسرفوا في الطغيان ، أمرها  
من ذلك كأمر المسيحية ، كانت تعذب وتضطهد وتدعو أثناء ذلك  
إلى الحرية والتسامح حتى إذا أصبحت دين الدولة طغى أصحابها وأسرفوا  
في الطغيان . فالإثم في حقيقة الأمر ليس إثم الدين ولا إثم العلم ولا  
إثم الفلسفة وإنما هو إثم هذه الدخيلة التي تتوسط بين هذين  
العدوين فتسلح أحدهما على الآخر وتستغل هذا لمنفعتيها الخاصة .

وفي الحق أنني أحاول أن أفهم كيف يستطيع الدين أو العلم أن يعتدى على الحرية العلمية أو الدينية إذا لم تمدده السياسة بالذخائر والسلاح فلا أجد إلى هذا الفهم سبيلاً . تصور بلداً وقفت السياسة فيه موقف الخيدة المطابقة بين العلم والدين فكفت أيدي الناس عن الناس ، وأقرت الأمن في نصابه ، وتركت للعلم حرّيته ، وللدين حرّيته فما الذي يمكن أن يقع من العنف بين العلماء ورجال الدين ؟ لا شيء إلا الخصومة الكلامية ، لا شيء إلا المناقشة والجدل ، ومن الذي يستطيع أن يرى شراً في المناقشة أو الجدل ؟ !

## V

ستظن بعد أن تقرأ هذا كله أنا لا نرى الخصومة قوية بين العلم والدين في نفسها ، وإنما نرى أن السياسة تستغلها لمنفعتيها ولو تركتهما لتصافيا واثتلفا . . . كلا ! نحن لا نرى هذا الرأي وإنما نرى ما قلناه في أول هذا البحث من أن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل إلى اتقائها ولا إلى التخلص منها . هي أساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بماكة واحدة من ملكات الانسان ، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل ، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ، ولا يتأثر الآخر بالخيال إلا بمقدار ولا يعنى بالعاطفة إلا من حيث هي موضوع لدرسه وتحليله . والخصومة بين العلم والدين

أساسية جوهرية لأن الدين أسبق من العلم ، ولأنه كان في العصور  
القديمة كل شيء : كان ديناً وكان علماً ، ولأن العلم جاء بعد ذلك  
فغير هذا القسم العلمي من الدين ، وأبى الدين أن يدع عن هذا التغيير ،  
وأبى العلم أن ينزل عما ظفّره من الثمرات . فان يتفقا إلا إذا جحد  
أحدهما شخصيته كما قلت في غير هذا المكان .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى  
لنفسه الثبات والاستقرار ، ولأن العلم يرى لنفسه التغيير والتجدد ، فلا  
يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما عظيم  
جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ، ولأن  
الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لا يكره  
أن يحجم ، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد ، ويبنى ثم لا يتخرج من  
الهدم ، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

فالخصومة بينهما أمر لا بد منه . ولكن المسألة في حقيقة الأمر  
ليست في أن الخصومة واقعة أو غير واقعة ، وإنما هي في أن الخصومة  
ضارة أو نافعة أو بعبارة أدق : المسألة هي أن نعرف هل كتب على  
الإنسانية أن تشقى بالعلم والدين أم هل كتب على الإنسانية أن تسعد  
بالعلم والدين ؟ أما نحن فنعتمد أن الإنسانية تستطيع أن تسعد بالعلم

والدين جميعاً . وإنما ملزمة إذا لم تستطع أن تسعد بهما أن تجتهد في ألا تشقى بهما . وسبيل ذلك عندنا واضحة ، وهي أن ينزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدين ، أو قل سبيل ذلك أن ترغم السياسة على أن تقف موقف الحيدة من هذين الخصمين . فالعلم في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، والدين في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، ولكن السياسة تريد وتستطيع الأذى غلباً . وهي كما قلت تتخذ العلم حيناً وسيلة إلى هذا الأذى وتتخذ الدين حيناً آخر وسيلة إليه . وهب السياسة لم تطع رجال الدين ولم تشتتر نفوسهم وضايرهم ولم تهيب لهم من أسباب الرغد والنعيم ما يصرفهم عن الله ويجعل الدين في أيديهم سلعاً تباع وتشترى ، أو هب السياسة لم تفسد نفوس العلماء وضايرهم وأخلاقهم ولم تشتترهم بالمناصب وأسباب السلطان ولم تمنحهم من أسباب الرغد والنعيم ما يحولهم عن البحث العلمي الهادى إلى هذه الخصومة العنيفة العقيمة ، هب السياسة لم تشغل أولئك ولا هؤلاء ، ولم تمكن السواد من أن ينتصر لأولئك أو هؤلاء ، فإذا تكون النتيجة ؟ تكون أن يمضي رجال الدين في حياتهم الدينية ورجال العلم في حياتهم العلمية وأن ينصرف السواد إلى حياته العملية المنتجة منتفعاً بالدين فيما بينه وبين الله ، منتفعاً بالعلم في تدبير شئونه اليومية ، وأن تزول هذه الخصومات المنكرة التي تقسم الناس شيعاً

وأحزابا، وتغرى بعضهم ببعض، وتجعل بعضهم لبعض عدوا، وتبث فيهم ألوان الرذيلة وحب الكيد والوقعة وما إليها من الرذائل الفاحشة. وهل تظن أن وقف السياسة هذا الموقف شيء عسير حقاً؟ كلا! قد كان عسيراً قبل هذا العصر الحديث حين لم يكن بد للحكومة من أن تستغل الدين أو من أن تستغل العلم. فإما هذا العصر الذي نحن فيه فقد استطاعت السياسة أن تستقل وأن تمشي على قدميها دون أن تعتمد على عصا دينية أو علمية. ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخاصة قامت الآن في تكوين الدول وتدير سياستها مقام فكرة الدين أو مقام هذه النظريات الفلسفية المتنازعية التي كانت تقوم عليها الحكومة من قبل. وأين هي الحكومة التي تستطيع الآن أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم لحماية الدين، أو أنها تقوم على أساس ما من هذه الأسس الفلسفية المختلفة: حماية الواجب أو حماية الحق أو حماية العدل؟ أين هي الحكومة التي تستطيع أن تجهر بشيء من ذلك دون أن يضحك منها الناس جميعاً وأن يكون رعاياها أول الضاحكين؟ أتستطيع الحكومة المصرية مثلاً أن تزعم أنها إنما تقوم على الإسلام وبالاسلام وللإسلام؟ كلا. كما أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تزعم أنها إنما تقوم على المسيحية وبالمسيحية. ومع

ذلك فقد كانت مصر موئل الاسلام في جميع عصورها الاسلامية!  
ومع ذلك فقد كان ملوك فرنسا يلقبون أنفسهم أصحاب الجلالة المسيحية!  
ومع ذلك فقد كان ملوك مصر وسلاطينها يعاهدون ملوك أوروبا باسم  
المسلمين ويزعمون لأنفسهم حماية بيت المقدس والحرمين الشريفين!  
ومع ذلك كان ملوك فرنسا يعاهدون دول الشرق الاسلامي باسم  
المسيحية ويزعمون لأنفسهم حماية المسيحية في بلاد الاسلام!

كان هذا كله، ولكن هذا كله قد تغير، فمصر لا تستطيع أن  
تزعم أنها حامية بيت المقدس أو الحرمين الشريفين أو أنها الناطقة  
بلسان المسلمين النائدة عن حوض الاسلام. بل لست أدري أستطيع  
مصر الآن أن تزعم أنها تحمي الاسلام في أقطارها الخاصة ولا تتجاوز  
حدوده عمداً أو كرهاً. ولا تستطيع فرنسا أن تزعم لنفسها حماية  
المسيحية في الأقطار الاسلامية، بل لا تستطيع أن تزعم لنفسها حماية  
المسيحية في أقطارها الخاصة. لا تقوم الحكومة المصرية الحديثة  
ولا الحكومة الفرنسية الحديثة على أساس من دين ولا من علم ولا  
من فلسفة، وإنما تقوم الحكومة الحديثة في أقطار الأرض المتحضرة  
الآن على أساس سياسي خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية  
لا أكثر ولا أقل. وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون  
في أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه. فان فكروا في

صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر ، فأما يفكرون في طبيعة الموقف الذى يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثرة والقلة . أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها في غير اعتراف ولا إنكار؟

## ٨

نعم أن دستورنا المصرى قد نص في صراحة أن الاسلام دين الدولة . وكان هذا النص مصدر فرقة لا نقول بين المسلمين وغير المسلمين من أهل مصر ، فقد رضيت القارة المسيحية وغير المسيحية هذا النص ولم تحاور فيه ، ولم تر فيه على نفسها مضاضة أو خطراً . وإنما نقول إنه كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا في تحقيق النتائج التى يجب أن تترتب عليه . فأما عامة الناس فلم تلتفت إلى هذا النص ولم تحفل به ، وأكبر ظننا أنها ما كانت لتشعر بشىء ، لو لم يوجد هذا النص في الدستور . فعامة الناس في مصر منصرفون بطبعهم إلى حياتهم العملية ، مستعدون أحسن الاستعداد وأقواء للاتصال بأزمئتهم وأمكنتهم وللملاءمة بين حياتهم وبين ضرورات التطور . وهم يعلمون أن الاسلام بخير ، وأن الصلوات ستقام ، وأن رمضان سيصام ، وأن الحج سيؤدى ، وهم يذهبون في القيام

بواجباتهم الدينية مذهب غيرهم من الناس المعتدلين ، لاهم بالمسرفين في تدين ولاهم بالمسرفين في العصيان والفسوق . فسواء عليهم أنص الدستور أم لم ينص أن الاسلام دين الدولة ، وسواء عليهم أسيطرت الحكومة أم لم تسيطر على شعائر الدين ، مادامت هذه الشعائر قائمة محترمة . إنما وقعت الفرقة حول هذا النص بين فريقين من المسلمين المصريين : أحدهما المستنيريون المدنيون ، والآخر شيوخ الأزهر ورجال الدين . فأما المستنيريون فقد فهموا أن الدستور حين ينص أن الاسلام دين الدولة لا يريد إلا أن يعلن احترامه لدين الكثرة وما توارثت من تقاليد ، ويكلف الحكومة مقداراً قليلاً من الواجبات التي تنصل بهذه التقاليد . فلما أرادوا تحليل هذا كله فهموا أن هذا النص لا يزيد على تقرير الواقع من أن ملك مصر يجب أن يكون مسلماً ، ومن أن شعائر الاسلام يجب أن تقام بعد صدور الدستور ، كما كانت تقام قبل صدوره ، فلا تغلق المساجد ، ولا يعطل الحج ، ولا تعمل الحكومة في أيام الأعياد الاسلامية ولا ينقطع إطلاق المدافع في رمضان ، ولا يلغى الحفل بالحمل ولا الحفل بالمولد النبوي ولا تنفق أموال الأوقاف الاسلامية في غير ما رصدها له الواقفون . ولم يخطر لهؤلاء المستنيرين في يوم من الأيام أن هذا النص سيكلف الحكومة واجبات جديدة دينية ، أو أنه سيحدث في الدولة نظاماً لم يكن لها بها عهد من قبل .

ذلك لأنهم كانوا وما يزالون يقدرّون أن مصر تنضى إلى الأمام  
وتسرع في الاتصال بالمدينة الغربية وتريد أن تحقق ما قال إسماعيل  
من أنها جزء من أوروبا . ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرّون أن في  
الإسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع الزمن وملاءمة  
الظروف المختلفة ويعصمه من الجمود والسكون ، ويحول بينه وبين أن  
يكون عقبة في سبيل الرقي الاجتماعي والاقتصادي . ولأنهم كانوا  
وما يزالون يقدرّون أن حكومة مصر قد اضطرت بحكم هذه الحياة  
الحديثة إلى أن تأتي من الأمر ما لم يكن يبيحه الإسلام من قبل ، فهي  
تعامل المصارف ، وتنظم الربا ، وتبيح ألواناً من المعصية ، بل تستغلها أحياناً  
فاذا كان نص الدستور أن الإسلام دين الدولة يدل على معناه حقاً  
فلا أقل من تغيير كل هذه المحدثات ولا أقل من أن يغير نصوصاً  
تكفل حرية الرأي وتبيح للناس أن يلحدوا ، وتسوى بين المسلم وغير  
المسلم في الحقوق والواجبات ، وما كان الإسلام ليبيح الإلحاد ولا يسمح  
للإلحاد أن يعلن إلحاده وخروجه على الدين ، وأحكام المرتد معروفة  
في الإسلام وما كان الإسلام ليسوى بين المسلم وغير المسلم في بلد  
يكون هو فيها الدين الرسمي

فهم المستنيرون هذا كله ، ولم يعارضوا في هذا النص حين أعلنت  
لجنة الدستور أنها ستضعه في الدستور ، بل هم فريق منهم أن يعارض

لأنه خشى أن يفهم هذا النص على غير وجهه فما زالوا به حتى كفوه عن المعارضة، واضطروه إلى السكوت، وقالوا: نص فيه إرضاء لعاطفة السواد وطمأنة للشيوخ فهو لا يضر، وأكبر الظن أنه قد يفيد.

ولكن الشيوخ فهموا هذا النص فهماً آخر، أو قل إنهم فهموه كما فهمه غيرهم، ولكنهم تكلفوا أن يظهروا أنهم يفهمونه فهماً آخر، واتخذوه تكأة وتعملة يعتمدون عليها في تحقيق ضروب من تلطامع والأغراض السياسية وغير السياسية. فهموا أن الإسلام دين الدولة أى أن الدولة يجب أن تكون دولة إسلامية بالمعنى القديم حقاً، أى أن الدولة يجب أن تتكلف واجبات ما كانت لتتكلفها من قبل. وعلى ذلك أخذوا يطالبون بأمور ما كانوا يطالبون بها قبل الدستور. وذهب فريق منهم على رأسه نفر من هيئة كبار العلماء إلى أبعد حد ممكن، فكتبوا يطالبون ألا يصدر الدستور لأن المسلمين ليسوا في حاجة إلى دستور وضعى ومعهم كتاب الله وسنة رسول الله. وذهب بعضهم إلى أن طلب إلى لجنة الدستور أن تنص أن المسلم لا يكلف القيام بالواجبات الوطنية إذا كانت هذه الواجبات معارضة للإسلام، وفسروا ذلك بأن المسلم يجب أن يكون في حل من رفض الخدمة العسكرية حين يكلف الوقوف في وجه أمة مسلمة كالأمة التركية مثلاً. ولكن هذه المطالب كلها أهملت إهمالاً

ومضت لجنة الدستور في عملها حتى أتمته والشيوخ فيها ممثلون .  
وليس هنا موضع التعريض أو التصريح بما كان للشيوخ من سعى  
أثناء أعداد الدستور وقبل صدوره . ولكننا نكتفي بأن نلاحظ  
أنهم أو بأن كثرتهم لم تكن تبتم للدستور حقاً . وصدر الدستور  
وابتهج به الناس جميعاً واطمأن إليه الناس جميعاً إلا الشيوخ فانهم  
لم يكتفوا بقبول الدستور والرضا بما فيه من المساواة والحريات المكفولة  
بل استغلوه استغلالاً منكراً في حوادث مختلفة أهمها حادثة «الاسلام  
وأصول الحكم» وحادثة كتاب « في الشعر الجاهلي » . وإليك  
نظرية الشيوخ في استغلال هذا النص الذي ما كان يفكر واحد من  
أعضاء لجنة الدستور في أنه سيستغل وسيخلق في مصر حزباً خطراً  
على الحرية ، بل خطراً على الحياة السياسية المصرية كلها . يقول الشيوخ  
إن الدستور قد نص أن الاسلام دين الدولة ومعنى ذلك أن الدولة  
مكلفة بحكم الدستور حماية الاسلام من كل ما يمسّه أو يعرضه للخطر  
ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تضرب على أيدي الملحدّين وتحول  
بينهم وبين الاحاد أو تحول بينهم وبين إعلان الاحاد على أقل  
تقدير . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تمحو حرية الرأي محوياً في  
كل ما من شأنه أن يمس الاسلام من قريب أو بعيد سواء أصدر  
ذلك عن مسلم أو عن غير مسلم . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم

الدستور أن تسمع ما يقوله الشيوخ في هذا الباب . فإذا أعلن أحد رأياً  
أو ألف كتاباً ، أو نشر فصلاً ، أو اتخذ رأياً ، ورأى الشيوخ في هذا كله  
مخالفة للدين ونهوا الحكومة إلى ذلك ، فعلى الحكومة بحكم الدستور  
أن تسمع لهم وتعاقب من يخالف الدين أو يمسّه بالطرد أولاً إن  
كان موظفاً ، ثم بتقديمه إلى القضاء بعد ذلك ، ثم « باعدام جسم  
الجريمة » كما يقول رجال القانون على كل حال . ومما زاد الأمر  
تعقيداً والموقف حرجاً بين المستنيرين ورجال الدين بازاء هذا الوجه  
من وجوه الحرية الدستورية أمران : أحدهما ان النظام السياسي القديم  
كان قد أنشأ في مصر شيئاً يسمى هيئة كبار العلماء وجعل لهذا الشيء  
حقوقاً وأولاً من السلطان على طائفة من الناس ، وجعل لهذا الشيء  
ضرباً من السيطرة المعنوية على أمور الدين في مصر . وكان المعقول  
أن صدور الدستور يجب أن يمحو من هذا النظام القديم كل ما لا يتفق  
مع نصوص الدستور نفسه ؛ ولكن هيئة كبار العلماء ظلت قائمة  
مستمتعة بحقوقها محتفظة بسلطانها وسيطرتها لاتعتز بهما ولا تستغلها  
لأنها لم تكن تلتفت من هذا كله إلا إلى ما يمنحها من المراتب  
ومنازل الشرف حتى صدر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » .  
فأحست هيئة كبار العلماء أو أريد منها أن تحس أن لها حقوقاً  
وسلطاناً ، واستغلت هيئة كبار العلماء أو أريد منها أن تستغل تلك

الحقوق وهذا السلطان . الثاني أن الدستور لم يكبد يصدر حتى عطل  
أو كاد يعطل فقد صدر الدستور في أوائل سنة ١٩٢٣ ولكن البرلمان  
لم يأتلف إلا في أوائل سنة ١٩٢٤ ، وكانت الحكومة القائمة بين  
صدور الدستور وانعقاد البرلمان لأول مرة حكومة ضعف وتشرط في  
كل شيء ، كانت حكومة لا تعتمد على نفسها ولا تستطيع أن تثبت  
على قدميها إلا أن يسندها مسند من اليمين إن مالت إلى اليمين ، أو  
مسند من الشمال إن مالت إلى الشمال ، ولم يكن يسندها مسند اليمين  
أو مسند الشمال عفواً ولا ابتغاء . مرضاة الله ، وإنما كان يسندها هذا  
المسند أو ذلك لمنافع ومطامع . فقوى في ظل هذه الحكومة الضعيفة  
أمر الرجعية وكثر الريش في أجنحة الشيوخ ، وطلب الأزهر أموراً فما  
أمرع ما أجيب اليها وكان أظهر هذه الأمور إلغاء مدرسة القضاء أو  
مسخها وإنشاء أقسام التخصص في الأزهر . ثم انعقد البرلمان فأنصرف  
بطبيعة الحال إلى ما كان ينبغي أن ينصرف إليه من المسألة السياسية  
الخارجية ، وبينما هو منصرف إلى هذه المسألة السياسية الخارجية  
تحرك الشيوخ أو قل تحرك الأزهر كله أو قل حرك الأزهر تحريكاً  
فظهرت له مطالب غريبة ضخمة فيها إعانات وإحراج وتعمل ، ورفعت  
هذه المطالب إلى الحكومة البرلمانية الشعبية يومئذ مع شيء من  
الإلحاح ومع شيء من الضجيج والمجيج والمظاهرات الغريبة داخل

الأزهر وفي شوارع المدينة وميادينها وعند القصر . وهمت الحكومة  
البرلمانية أن تأخذ بالخزم أمام هذه الحركة الغريبة التي لم يكن يعرف  
أيهما أعظم فيها أثراً أحظ الدين أم حظ السياسة والمنفعة . ولكن  
الحوادث المتكررة التي حدثت آخر تلك السنة ذهبت بالبرلمان والحكومة  
البرلمانية . وقامت في مصر يومئذ حكومة أخرى أشبه شيء بتلك  
الحكومة التي كانت قائمة بين صدور الدستور وائتلاف البرلمان ،  
حكومة ضعف وتردد واضطراب ، حكومة تميل إلى اليمين حينما  
فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمننا ، وتميل  
إلى الشمال حينما فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على  
هذا ثمننا أيضاً . وكان من الأثمان التي دفعتها هذه الحكومة الاستماع  
للأزهر بين والنزول عند ما كانوا يريدون واستغلال هذا في الخصومة  
السياسية الحزبية ، فما أسرع ما ألفت لجنة وزارية درست مطالب  
الأزهريين وقبلتها وأخذت في تنفيذها . وبهذا تقدم الأزهر خطوة  
أخرى في سبيل السيطرة والسلطان وأحس الأزهريون أنهم يستطيعون  
أن يخيفوا الحكومات ويكرهوها على أن تدعن لهم وتنزل عند  
ما يريدون . وكانت نتيجة هذا كله أن ألغيت أو مسخت « دار  
العلوم » كما ألغيت أو مسخت مدرسة القضاء من قبل وأن احتكر  
الشيخ أو كادوا يحتكرون التعليم الأولي وإن زادت مخصصات الأزهر

المالية ، وأن قوى في وزارة المعارف انبيل إلى نشر التعليم الديني في مدارس الحكومة كلها من طريق الأزهريين وكانت الفكرة الأساسية الخفية أن يكلف الأزهر نشر هذا التعليم الديني وأن يثبت شيوخ الأزهر في مدارس الحكومة كلها . وكانت النتيجة السياسية الخطرة لهذا كله أن تكون في مصر أو أخذ يتكون فيها حزب رجعي يناهض الحرية والرفق ، ويتخذ الدين ورجال الدين تكاة يعتمد عليها في الوصول إلى هذه الغاية . وفي أثناء ذلك ظهر كتاب «الاسلام وأصول الحكم» فاستغل في سبيله كل ما تقدم وظهر أن في مصر حزباً سياسياً يتخذ الدين وسيلة لمناهضة حرية الرأي بنفس الوسائل التي كانت تناهض بها أثناء القرون الوسطى في أوروبا . أنكر الكتاب وحوك صاحبه وأخرج من صف العلماء وفصل من منصبه وانتهى هذا كله بأزمة سياسية حادة ظهر في أول الأمر أن هذا الحزب السياسي الديني هو الذي انتفع بها واستفاد منها فقد أُخرج وزير من الوزارة واستقال معه طائفة من أصحابه ، فقبلت استقلالهم في سرور وابتهاج ، واعتز رئيس الوزراء بالنيابة يومئذ بأنه نصير الدين وحاميه والذائد عن حوضه . وكان كل هذا يشد أزر الشيوخ ويقوى إيمانهم بأن النص الذي يشتمل عليه الدستور يكلف الحكومة واجبات ما كانت تتكلفها من قبل . فلم يعرف تاريخ مصر الحديث شيئاً من اضطهاد

حرية الرأي باسم السياسة والدين قبل صدور الدستور وحين كانت مصر خاضعة لسلطان الخلافة التركية يشبه ما كان من ذلك بعد صدور الدستور ، وبعد انقطاع الأسباب بين مصر وسلطان الخلافة بل بعد انهيار الخلافة نفسها .

ومهما يكن من شيء فقد استيقن رجال الدين أنهم مؤيدون وأن لهم عضداً يستندونهم فطمعوا وأسرفوا في الطمع . ومما يظهر هذا الطمع حادثتان : إحداهما حادثة الأزياء في دار العلوم ؛ هذه الحادثة التي وقعت فيها الحكومة موقف الخادم المطيع لصاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والتي انتهت كما يعلم الناس جميعاً بشيء من الازدعان فيه إفساد للأخلاق وإكراه للشبان على النفاق . فقد أخذ طلاب دار العلوم يذهبون إلى مدرستهم في زى الشيوخ ، وقد اتخذوا من تحت هذا الزى زياً آخر يظهرونه متى خرجوا من المدرسة . والحادثة الثانية أن بعض الممثلين همَّ بالسفر إلى أوروبا ليلعب قصة تمثيلية فيه شخص النبي صلى الله عليه وسلم فغضب الشيوخ لذلك وطلبوا إلى وزارة الداخلية أن تمنع هذا الممثل مما كان يريد ، وأن تتخذ لذلك ما ترى من الوسائل حتى الوسيلة السياسية فتخاطب الحكومة الفرنسية في أن تمنع تمثيل هذه القصة في بلادها ،

وكان هذا المثل طبعاً هيناً فأذعن لأمر الداخلية ومضى الشيوخ  
وأتخذت مشيخة الأزهر لنفسها منذ ذلك الوقت اسم الرياسة  
الدينية العليا، وهو اسم مبتدع لا يعرفه الإسلام، ولا يؤمن له مسلم يعرف  
واجباته الدينية حقاً، وكثرت فتاوى «الرياسة الدينية العليا» ولم  
ينس أحد بعد فتواها في تحريم القلانس على المسلمين وفي أثناء هذا  
كله ظهر كتاب «في الشعر الجاهلي» وهنا اصطدمت السلطة  
الدينية بالحرية العلمية اصطداماً عنيفاً، فلم يكن صاحب هذا الكتاب  
من علماء الأزهر ولا خاضعاً لهيئة كبار العلماء، ولم يكن فرداً مطلقاً  
من الناس، وإنما كان أستاذاً في معهد علمي يرى لنفسه الحرية المطلقة  
كلها في الرأي، ويرى لنفسه السيادة فيما يدرس، وما ينشر لا يحده  
في ذلك إلا القانون، وهنا ظهر الفرق بين الأزهريين وغيرهم من  
المستنيرين في فهم هذا النص الذي يثبت أن الإسلام دين الدولة.  
فأما الشيوخ فقد زعموا أن الحكومة مكلفة لاحماية الإسلام وحده.  
بل حماية الدستور، لأن هذا الأستاذ قد خالف الإسلام وهو موظف  
يعلم أبناء المسلمين، ويتقاضى أجره من أموال المسلمين، وما كان لحكومة  
ينص دستورها أن الإسلام دينها الرسمي أن تسمح لأحد موظفيها  
بمخالفة الإسلام. وعلى ذلك طلبت الرياسة الدينية العليا إلى الحكومة  
أن تفصل هذا الموظف من منصبه وتقفه أمام القضاء وتصادر كتبه.

والناس جميعاً يعلمون ماذا كان من أمر الخلاف بين الجامعة والأزهر في هذا الموضوع .

وخلاصة هذا القصص الطويل أن هذا النص الذي أثبت في الدستور قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ في مصر قوة سياسية دينية منظمة أو كالمنظمة تؤيد الرجعية وتجرح مصر جراً عنيفاً إلى الوراء ، وأنشأ في مصر خاصة وفي الشرق الاسلامي عامة هذه المسألة التي لم تكن معروفة في الشرق الاسلامي من قبل ، أثناء العصر الحديث وهي مسألة الخصومة الدينية السياسية بين العلم والدين . ولسنا في حاجة إلى أن نسأل أخير هذا أم شر ؟ ولسنا في حاجة أيضاً إلى أن نسأل عن طبيعة هذه الخصومة وما ستنتهي إليه غداً أو بعد غد ، إنما يكفي أن نلاحظ أن هذه الخصومة حقيقة واقعة ، وأن في مصر فريقاً من الناس يمضون مع الزمن ويسايرون التطور ويريدون أن يستمتعوا وأن يستمتع غيرهم بما كفل الدستور من حرية الرأي ، وأن في مصر فريقاً آخر من الناس ينكر هذه الحرية أو لا يبيحها إلا بمقدار وإذن فلا بد من اتخاذ موقف متبع حاسم بازاء هذه الخصومة بين أولئك وهؤلاء ، فما هذا الموقف وما عسى أن تكون نتائجه ؟ أما إن كان المصريون يريدون أن ينتفعوا بتجارب الأمم من قبلهم وأن يختصروا الطريق إلى الرقي وأن يصلوا إلى حياتهم السياسية والاجتماعية

الصالحة في غير عنف ولا مشقة ولا اضطراب فسبيلهم إلى ذلك  
يسيرة واضحة يمكن أن تختصر في كلمة واحدة وهي أن تقف  
السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيدة التامة ، وأما  
إن كان المصريون يريدون أن يجربوا كما جربت الأمم من  
قبلهم وأن يسلكوا إلى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة تلك  
الطريق الطويلة المعوجة اللتوية التي تنبت فيها العقاب وتأخذها  
الأخطار من جوانبها فسبيلهم إلى ذلك واضحة يسيرة يمكن أن  
تختصر في كلمة واحدة ، وهي أن تستغل السياسة هذه الخصومة بين  
العلم والدين فتعزز برجال العلم حيناً ، وحينئذ تضطهد رجال الدين ،  
وتعزز برجال الدين حيناً آخر ، ويومئذ تضطهد رجال العلم ، وتحتمل  
في سبيل ذلك من التبعات مثل ما احتملته السياسة المسيحية حين  
كانت تحرق العلماء وتذيبهم ألوان العذاب لترضى رجال الدين  
وحين كانت تشرذم القسيسين وتهدر دماءهم لترضى رجال العلم .

١٠

ولكن كل شيء في مصر يدل على أننا لا نريد الطرق الطوال  
المعوجة ، ولا نحب إضاعة الوقت ، وإنما نكتفي بما جربت الأمم من  
قبل ، ونجني ما ظفرت به من ثمرات الرقي . دستورنا المصري أوضح  
دليل على ذلك فهو دستور حديث كأحدث النظم الدستورية المعروفة

وهو دستور برىء من الرجعية ومن هذا اللون من الاعتدال البطيء ،  
وحسبك أنا كنا نرى في نظامنا السياسى الانتخاب ذا الدرجتين ،  
فما كادت الأمة تتمتع بسلطانها حتى أسرعنا إلى الانتخاب ذى  
الدرجة الواحدة ، وحسبك أن وزارتنا مسئولة أمام برلماننا بنفس  
الطريقة التى تسأل بها الوزارات أمام البرلمان فى فرنسا وانجلترا وغيرها  
من بلاد أوروبا . كل هذا يدل على أننا معتمدون حقاً أن نختصر  
الطريق . وإذا كانت هذه خطتنا بازاء حياتنا السياسية والاجتماعية  
فيجب أن تكون ، وما أشك فى أنها ستكون ، خطتنا بازاء حياتنا العمالية  
والدينية . على أننا مضطرون إلى ذلك اضطراراً فنحن لانحيا لأنفسنا  
وحدنا ، وإنما نحيا لأنفسنا ولغيرنا من الأمم ، ونحن متصلون براضينا أم  
كرهنا بأمم الغرب المتحضرة ، ونحن حريصون على أن نظفر لا أقول  
بمطف هذه الأمم بل أقول با كبارها لنا واحترامها لمنزلتنا السياسية  
والاجتماعية ، وإذن فنحن مضطرون أن نساير هذه الأمم ونعيش كما  
تعيش ونحن لانستطيع أن نعيش فى القرن العشرين كما كانت تعيش  
فرنسا فى القرن الرابع والخامس عشر بحجة أننا حديثو عهد بهذه  
النظم الحديثة . نحن نريد أن نظفر من الاستقلال بما يقفنا من انجلترا  
وفرنسا موقف الند من الند فيجب أن نعيش كما تعيش انجلترا وفرنسا  
لتطمئن انجلترا وفرنسا إلى ما نطلب من الاستقلال ونحن مضطرون

إلى أن نحاول التخلص من الامتيازات الأجنبية ، فيجب أن نعيش في بلادنا كما يعيش الأجانب في بلادهم ، وأن نستمتع من الحرية بمثل ما يستمتعون به ليطمئن الأجانب إلى إلغاء الامتيازات ، ثم نحن مضطرون إلى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة ، فنحن محتاجون أن ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا ، والعلم وحده سبيلنا إلى ذلك وهو سبيلنا إلى ذلك على أن ندرسه كما يدرسه الأوربيون لا كما كان يدرسه أبائنا منذ قرون وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور وكلودبرنار إلى طب ابن سينا وداود الانطاكي . وهذا العلم الحديث الذي لا نستطيع أن نستغنى عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر إلا في جو كه حرية وتسامح فنحن بين اثنتين : إما أن نؤثر الحياة وإذاً فلا مندوحة عن الحرية وإما أن نؤثر الموت، وإذاً فلنا أن نختار الجمود

## القسم الخامس

# بين الجد والهزل

## ١

### الأدب والأدباء

لم أكن في مصر حين سأل « أحد الأزهريين » كاتباً من كتاب السياسة اليومية عن الأدب والأدباء ، وحين تفضل هذا الكاتب الأديب من « كتاب السياسة » فأحال سائله على « أساتذة الأدب في الجامعة والمدارس العاليه » ولو كنت في مصر حين ألقى هذا السؤال وكانت هذه الاحالة لما أجبت ولا فكرت في الاجابة ، لأنى أعرف هذا الكاتب الأديب من كتاب « السياسة » وأعرف مكره الظريف ، وأعرف أنه يحب دائماً أن يلهو ويلهى الناس بالخصومة بين الكتاب ولا سيما أنصار القديم والجديد منهم . وأذكر أنه تكلف هذه الحياة في السنة الماضية فأنخدعت له طائفة من الكتاب والأدباء ، واختصموا في القديم والجديد ، وضحك منهم ما كرنا الظريف ، كما ضحك منهم ما كرون آخرون ليسوا أقل من صاحبنا مكرراً وظرفاً . ومع أنى لا أكره لما كرنا الظريف هذا أن يلهو

ويضحك فقد أيت في السنة الماضية أن أليه وأضحكه . ولو كنت في مصر حين سئل وأحال هذه السنة لتركت إلهاءه وإضحاه للاستاذ الجليل الشيخ علام سلامة ومن إليه من هؤلاء الذين يرون الجدل حيث لا يكون إلا الهزل والدعابة فيجدون ويتكفون ويضحك من يريد أن يضحك ويتهو من يريد أن يلهو ، ويستريح كتاب « السياسة » من بعض الجهد لأنهم يجدون من يملأهم أنهاراً ، ويضيقون أحياناً لأنهم يضطرون إلى نشر ما يكرهون وإلى إرجاء ما يؤثرون نشره . ولكنني عدت إلى مصر وكان أول ما استقبلته من الحياة الأدبية هذا الفصل الممتع الذي نشرته « السياسة الأسبوعية » الماضية للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامة المدرس بمدرسة دارالعلوم . ولست أدري لم أحسست ميلاً شديداً جداً إلى الكتابة بعد أن فرغت من قراءة هذا الفصل . ولست أدري لم رضيت أن ألهي ما كرنا الظريف وأضحكه هذه المرة وقد كنت أكره ذلك وآباه من قبل . . . .

فقد قرأت كلاماً كثيراً ممتعاً يشبه هذا الكلام الممتع الذي نشره الأستاذ الشيخ علام ، وأنا أنفق حياتي في قراءة كلام كثير يشبه هذا الكلام فلا أحس ميلاً إلى الكتابة ولا أجد من نفسي رغبة فيها ولعل مصدر هذا الميل أن الأستاذ الشيخ علام قليل الكتابة

في الصحف ، أو أنه قليل الكتابة المصنفة في الصحف ، فلا أقل من  
تلقى فصله الممتع بشيء من التحية ونتمنى أن يطلق الله قلبه فيسطر  
لنا في كل أسبوع فصلاً يذهب فيه هذا النحو من مذاهب البحث  
الذيذة الممتعة .

ولعل مصدر هذا الميل أيضاً أن الأستاذ الشيخ علام قد وعد  
في آخر فصله الممتع بأن يتورط فيما تورط الكتاب فيه من أمر القديم  
والجديد وإن لم تكن هناك صلة بين فصله الممتع وبين القديم والجديد .  
مهما يكن من شيء ، فأنا أريد أن أكتب في هذا الموضوع ، وأن  
أبدأ بتحية الأستاذ الشيخ علام وتهنئة الصحف بفصوله الأدبية  
القيمة التي بدأت بدءاً حسناً والتي ستتصل اتصالاً حسناً إن شاء الله  
ولو أن لي أن آخذ الأستاذ الجليل بشيء في هذا الفصل لوقفت معه  
وقفات قصيرة عند مسائل يسيرة يحسن أن نلم بها إلاماً ، لأن الأمانة  
العلمية تريد هذا الإلام .

فصل الأستاذ الشيخ علام يذكرني بطائفة من الكتاب والعلماء  
مات بعضهم منذ قرون وتوفي بعضهم منذ سنين ولا يزال بعضهم  
حيّاً يتنفس من هواء مصر ويشرب من ماء النيل . وكنت أحب  
للأستاذ الشيخ علام أن يسمى هؤلاء العلماء والكتاب أو يوصى  
إليهم ليعرف الناس ما لهم وماله ، ففي ذلك وفاء هؤلاء العلماء

والكتاب ، وفي ذلك أنصاف للأستاذ الشيخ علام نفسه .  
فمن يدرى لعل الأستاذ قد أضاف من عنده إلى ما قال أولئك  
الكتاب والعلماء أشياء قيمة عظيمة الخطر لا ينبغي أن تضاف إلى  
غيره ، وإذا أذن لي الأستاذ أن أنصفه وأنصف أصحابه فإني أسمى  
منهم ثلاثة أو أربعة من غير إطالة ولا إملال .

فأما أولهم فصاحب « لسان العرب » ، فقد يظهر أن الأستاذ  
عند ما أراد أن يبين المعنى اللغوي لكلمة الأدب نقل ما جاء في  
في اللسان نقلا في غير تحفظ ولا فقه ولا نقد ولا احتياط . نقل ما جاء  
في « اللسان » حتى الشواهد نظا ونثرا وحتى وصف البعير بأنه  
أديب . وربما كان هذا النقل مفيدا . وهو على كل حال حق  
للأستاذ . ولكن من حق صاحب اللسان أو من حق أصحاب المعاجم  
أن يشار إليهم إذا نقل عنهم . . . ومن حق القراء أن يعرفوا أن  
ما يكتبه الأستاذ قد نقل نقلا أو استنبط استنباطا .

وأما الثاني فالمرحوم أليازجي صاحب « مجلة الضياء » . فأنا  
أذكر أنني كنت أقرأ في هذه المجلة أيام الصبا ، وكنت أحب هذه  
المباحث اللغوية التي كان يعرض لها صاحب هذه المجلة ، والتي كان  
يبين لنا فيها كيف تختلف الكلمات في حرف واحد يقع أول الكلمة  
أو آخرها أو في وسطها فلا يكون هذا الاختلاف دليلا على بعد

ما بينهما في المعنى وإنما يكون دليلاً على تقاربهما في المعنى كما تقاربت في اللفظ كوكز ولكز ونكر ووهز وهز . ونهز ، وغمز ولمز وهمز ، ولطم ولكم ولدم واتم ، ولست أدري لم نسي اللهم ، فرب ثمة أشبهت لطفة ! وأظن أن من حق اليازجى أن يذكر كصاحب « اللسان » ويحيل إلى أن للأستاذ الشيخ علام زميلاً في دار العلوم هو الأستاذ الشيخ عمر الأسكندري يذهب هذا المذهب فيما يسميه فقه اللغة ويدرسه درساً مفصلاً لتلاميذه ، وأحسب أنه قد أمعن في هذا البحث إمعاناً قبيحاً فكان من حقه أن يذكر أيضاً

ثم أذكر رجلاً آخر كان من الحق أن يذكر ويثنى عليه وهو مصطفى صادق الرافعي ، فقد بحث مصطفى صادق الرافعي في كتابه عن كلمة الأدب وأطوارها ومعانيها ، ومن الغريب أن الشبه شديد جداً بين بحث الأستاذ الشيخ علام وبحث الأستاذ الرافعي وكل ما بينهما أن الرافعي قرأ اللسان وفهمه ولم يأخذ منه إلا ما احتاج إليه ، وأن الشيخ علام نقل اللسان نقلاً في غير نقد ولا فقه كما قلت ، وأن الرافعي رأى نصوصاً تضاف إلى القدماء شك في صحتها فثني بعضها وأعرض عن بعضها الآخر . وأن الشيخ علام أخذ هذه النصوص على علامتها في غير نقد ولا فقه أيضاً ، وأن الرافعي رأى نصاً أضافه صاحب « العقد الفريد » إلى ابن عباس ، وأضافه

الجاحظ إلى حفيد ابن عباس فدرس وآثر رواية الجاحظ عن نقد  
وفقه ، وأن الشيخ علام لم ينقد ولم يحاول الفقه وإن ردد الرواية بين  
الرجلين تريد أدون أن يشعر بالأثر العظيم الذي ينشأ عن صحة إحدى  
الروايتين لا أقول في صفحة كلمة الأدب ، بل أقول في تاريخ العلم  
نفسه ، فلو صحت رواية العقد الفريد لكان عبد الله بن عباس عالماً  
بأصول النحو ملماً باصطلاحاته قبل أن تتم نشأة النحو .

فأنت ترى أن الأستاذ الشيخ علام ظلم نفسه وظلم طائفة من  
الذين سبقوه وعاهدوه حين أرسل فصله إرسالاً دون أن يسمى من  
من أخذ عنهم أو سار سيرتهم في البحث ، وقد علم الله ما أعطف على  
الرافعي ولا أميل إلى فنه ، ولكني أحب أن أنصف الرجل وأشهد  
أن فصله أمتن وأقوم وأدل على الفقه من فصل الأستاذ الشيخ علام .

\*\*\*

وأنا بعد أخالف الرجلين جميعاً في أصل هذه الكلمة . أخالفهما  
لأن مذهبهما لا يقنعني ، فأنا لا أفهم هذه الصلة التي يتكلفانها  
ويتكلفها من قبلهما أصحاب المعاجم بين لفظ الأدب وبين هذا  
الفعل المعروف « أدب الناس إذا دعاهم إلى الطعام » ولست  
أريد أن آخذ في مناقشة لغوية تثقل على قراء « السياسة » وتمل  
هذا الماكر الذي اضطرني واضطر الشيخ علام إلى الكتابة في هذا

الموضوع ، وإنما أقول في إيجاز إني أذهب في أصل هذه الكلمة  
مذهب الأستاذ نالينو وأخذها من الدأب بتقديم الدال على الهمزة  
المفتوحة ومعناه العادة والشأن والحال : ولست أرى شيئاً من الغرابة  
في أن تكون كلمة الدأب قد استحالت إلى كلمة الأدب فقدمت العين  
فيها على الفاء نقلاً ، ولا سيما إذا لوحظ أن هذا النقل مألوف في الجمع  
فقد جمعت الكلمة على أدآب ثم وضعت عينها موضع الفاء فقيل  
آداب كما قيل آرام وآبار ثم خيل إلى الناس أن كلمة الآداب هذه  
جمع أدب لا جمع دأب فنشأ هذا المفرد واشتق منه التاديب وأصله  
فيما يظهر تعليم الناس ما ورث من العادات والسنن ، أي تعليمهم  
ما ورث من الآداب بتقديم الدال . وأكبر الظن أن كلمة الأدب  
وما اشتق منها محدثة . أريد أنها نشأت بعد الإسلام لا قبله . وقد  
لاحظ الرافعي أن هذه الكلمة على خفتها وظرفها لم تستعمل قافية  
في الشعر القديم . وأراد الأستاذ الشيخ علام — فيما يظهر — أن يرد  
على الرافعي من طرف خفي فروى البيت الذي يضاف إلى أم ثواب  
والذي رواه صاحب الحماسة :

أَنْشَأَ يُحَرِّقُ أَثْوَابِي وَيُضْرِبُنِي      أَبْعَدَ شَيْبِي يَبْنِي عِنْدِي الْأَدْبَا !

وفي البيت رواية أخرى . « أَنْشَأَ يُحَرِّقُ أَثْوَابِي يُؤَدِّنِي » ،

وفيه رواية أخرى : « أَبْعَدُ شَيْنَ عِنْدِي يَبْتَنِي الْأَدْبَا » وحسبي أن

تختلف الروايات في البيت إلى هذا الحد لأشك فيه ولا آخذ  
أساساً للغة

ونست أدري أوفق الرافعي أم لم يوفق حين قال إن هذه الكلمة  
لم ترد قافية في الشعر القديم . ولكن هذا لا يعنيني ، فرأيت في الشعر  
الذي سبق الإسلام معروف ، فهو عندي لا يثبت شيئاً ولا يصلح  
دليلاً على شيء . فإذا ثبت استعمال الكلمة في الشعر الذي نظم بعد  
الإسلام فذلك لا ينقض ما اذهب إليه من أن هذه الكلمة حديثة  
عرفت بعد القرآن . ومما يرجح هذا أن الأستاذ الشيخ علام نفسه  
يقول في شيء من الحزن والرتاء ، إن هذه الكلمة قد أدركتها حرفة  
الأدب فلم تذكر في القرآن والحق أنها لم تذكر في القرآن ، وإنما ذكر  
في القرآن الدأب بسكون الهمزة ومعناه العاده كاللأب بتحريكها .  
والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن هذه الكلمة لا توجد في  
اللغات السامية المعروفة . وإذن فهي كلمة عربية خالصة للعرب دون  
غيرهم من الشعوب السامية . ونظن أنها من هذه الكلمات التي نشأت  
عندما تطورت لغة قريش واتسعت هذا الاتساع العظيم بعد ظهور  
الإسلام .

أنا إذن لا أوافق الرافعي ولا الشيخ علام في اشتقاق الأَدَبِ  
من الأَدَبِ بمعنى الدعاء ، ولكني لا أرى بأساً بما كتب الرافعي في

كتابه عن معاني هذه الكلمة وأطوارها وأن كان قد أوجز هذا البحث إيجازاً شديداً .

وسواء أكانت كلمة الأدب مشتقة من الأدب أو من الدأب فإن الخلاف بين الشيخ علام وبينى لا يقف عند اللفظ وإنما يتجاوزه إلى المعنى أيضاً . ولست أريد أن أناقش الأستاذ في المعاني القديمة لهذه الكلمة ولا أن أقف عند هذا الكلام الذي يضيفه إلى النبي وعمرو على ومعاوية في غير نقد ولا احتياط ، وإنما أقف عند جملة واحدة أرى أنها تشخص الأستاذ الشيخ علام وأصحابه من أنصار القديم تشخيصاً مضحكاً . وهذه الجملة هي قول الأستاذ :

« وكل علم من العلوم له غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه إلا هذا العلم وعلم التاريخ فانهما يزيدان كل يوم ولن يزالا في نمو مطرد »  
وما كنت أعرف قبل اليوم أن « لكل علم غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه إلا علم الأدب والتاريخ » حتى جاء الأستاذ فأنبأني بهذا النبأ الغريب الذي هو فصل ما بين أنصار القديم وأنصار الجديد .  
فنحن نعلم أن الحركة العلمية لن تنتهى من فرع من فروع العلوم إلا يوم يفنى العقل الانسانى ويحال بينه وبين البحث والتفكير ، ولا أعرف علماً من العلوم انتهى عند غايته وكملت مباحثه وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، وإنما أعرف أن كل علم قابل لأن يتغير ويتجدد

ويحذف جحدودا . وقد كان أهل القرون الوسطى يعتقدون أن علم  
الفلك قد انتهى عند غايته ، وكملت مباحثه ، وقيلت فيه الكلمة  
الأخيرة ، ثم جاء من أنبأ ثم بأن العلم لم يبدأ وإنما هي كرة منتقلة  
متحركة ، وأن أفلاك السماء لم يستكشف منها إلا أقلها وأضالها .  
وكانوا يعتقدون أن فلسفة أرسططاليس هي خاتمة الفلسفة وخالصتها ،  
وكلمتها الأخيرة ، فجاء ديكارت وأنبأهم أن فلسفة أرسططاليس هي بدء  
الفلسفة لا آخرها ولا وسطها . وكان الناس منذ سنين يرون أنهم  
قد وصلوا في الطبيعة والرياضة إلى نتائج علمية بعيد أن تنقض ، فجاء  
هنرى بوانكاريه ، واينشتين ، وأظهرا أن نقض هذه النتائج ليس  
بالشيء العسير .

ولعل الأستاذ الشيخ علام يعتقد أن الأمر في العلم كالأمر في  
النحو عند صاحب الورقة الصفراء الذى كتبت له قواعد حفظها ،  
وخيل إليه أنه قد حفظ النحو كله . نعم هذه الجملة تشخص الغلاة  
من أنصار القديم تشخيصا لذيذا ، فهم يرون أنه يكفي أن يحفظ  
أحدهم جملا من العلم ليكون قد ألم بالعلم كله . ولعلمهم يمتازون بأنهم  
يؤمنون بأن كل شيء قد انتهى وأقفل بابه ، فلا يمكن أن يضاف  
إليه ولا أن يزداد فيه . ولقد جاء الأستاذ الشيخ علام بمعجزة حين

استطاع أن يعلن أن الأدب لا ينتهي عند غايته ، ولا تكمل مباحثه كما تكمل مباحث العلوم الأخرى . وما رأى الأستاذ إذا قلت له إن النحو لم تكمل مباحثه بعد ، رغم ما كتبه سيبويه وابن خروف وابن عصفور وابن هشام وابن مالك ومن إليهم من أعلام الشرق والغرب الإسلاميين ؟ بل ما رأى الأستاذ إن قلت له إن كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل مباحثها ، بل هي في حاجة إلى التجريد واستئناف الدرس ، ولا سيما النحو والصرف وعلوم البلاغة ؟ وما رأى الأستاذ إن قلت له إن الأدب العربي كله محتاج إلى التجديد واستئناف الدرس ؟

هنا يظهر الفرق بين الأستاذ وبينى . ولاظهار هذا الفرق في تفهم والفقه والمنهج كتبت هذا الفصل الطويل . يرى الأستاذ وأصحابه أن لكل علم غاية يقف عندها . وتكمل مباحثه إلا الأدب ، فهو لا ينتهي عند غايته ، وإنما يزداد في كل يوم . ونرى نحن أن ليس لعلم من العلوم غاية ينتهي عندها ، وأن لا أمل في أن تكمل مباحث علم من العلوم . وإنما كل شيء في العلم قابل للتغير ، واستئناف البحث عنه ، والأدب أشد أنواع العلم قبولا للتغير والتجديد .

وهنا نقف عند تعريف الأستاذ الشيخ علام للأدب وقفة قصيرة ، فهو تعريف قديم يحتاج أيضا إلى التجديد . وأنا أتقل لك

هذا التعريف الذي يقول عنه الأستاذ إنه موجز وإنه منطقي ،  
فسترى أنه ليس من الإيجاز ولا المنطق في شيء . قال الأستاذ :

« هو علم ماثور الكلام مشوره ومنظومه قديمه وحديثه وما  
يتصل بذلك من أخبار بارعة ونوادير رائعة وملح مستعذبة وطرف  
مستغربة مع الامام من كل علم بأمهات مباحثه »

ولست أحفل بهذه السجعات الرائعة البارعة ، فأنا أراها أقرب  
إلى اللغو منها إلى أي شيء آخر . ولنكني أبحث عن الإيجاز في هذا  
التعريف فلا أظفر به . أما المنطق فلنبحث عنه معا . أيهما أديب :  
من حفظ ماثور الكلام نظما ونثرا ولقنه الطلاب أم من أنشأ هذا  
الكلام الماثور ؟ وأيهما الأديب : حفظ ماثور الكلام أم إنشاؤه ؟  
وإذن فما رأى الأستاذ الشيخ علام في نفسه ، أديب هو لأنه يحفظ  
ماثور الكلام نثرا ونظما ، ويلقنه للطلاب ، ولكنه ليس شاعرا ولا  
ناثرا ؟ وإذا لم يكن شاعرا ولا ناثرا وكان أديبا فما رأيه في شوقي  
أديب هو أم غير أديب ؟ وإذا لم يكن هو أديبا وكان الأديب هو  
الشاعر الناثر ليس غير ، فما رأيه في نفسه وأمثاله من الذين يدرسون  
الأدب ويفرغون له ، وفي أي طبقة من طبقات العلماء يضعهم ؟ وفي  
أي مكانة ينزلهم ؟ ؟ ألا يرى الأستاذ أن تعريفه ليس منطقياً لأنه  
لا يمنع ولا يجمع ؟ وما معنى قوله علم ماثور الكلام ؟ وهنا أحب أن

أكون أزهرياً ، أريد العلم بمأثور الكلام فلا يكون هو أديباً لأنه ليس من الذين ينشئون هذا المأثور؟ ونحن نستطيع أن ندور مع الأستاذ في هذه الدائرة إلى غير حد ، ولكننا نقف ونلاحظ أن تعريف الأستاذ لم يغن شيئاً.

\*\*\*

وفي الحق أني أميل أن أقسم الأدب إلى قسمين : أدب المنشئين وأدب الناقدين الدارسين ، أو قل أدب الكتاب والشعراء وأدب العلماء من المؤرخين والناقدين . فشوقي أديب ، وهو الأديب حقاً ، لأنه ينتج الأدب إنتاجاً ، وهو أديب منشيء ، ولكنه ليس عالماً بالأدب لا يستطيع درسه ولا تصويره ولا تعليمه ولا تأريخه . والشيخ علام أديب ولكنه ليس أديباً منشئاً لأنه ليس شاعراً ولا ناثراً ولا صاحب فن وإنما هو حافظ لآثار الكتاب والشعراء يرويها ويلقنها وينقدها ، يوفق في ذلك حيناً ويخطئه التوفيق حيناً . والأدباء المنشئون يختلفون : فمنهم النابغة الفذ ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المسف . والأدباء والعلماء يختلفون : فمنهم المجود ذو الرأي ، ومنهم الآلة الحاكية أو البيغاء .

وأولئك وهؤلاء تختلف مذاهبهم في إنشاء الأدب ودرسه : فمنهم المقلد ، ومنهم المجتهد المبتكر ، ومنهم من يذهب مذهب الحرية

ومنهم من يؤثر مذهب الرق ، ومنهم من ينحو نحو الفلسفة ، ومنهم من ينحو نحو النقل والرواية ، وأين هذا كله من التعريف الذي جاء به الشيخ علام من إيجاز ومنطق كما يقول ! ونسكني قلت لك منذ حين إن الأستاذ الشيخ علام يمثل أنصار القديم حقاً ، فتعريفه قديم ألم يعتمد فيه على ابن خلدون ؟ وأسلوبه في هذا التعريف قديم ، ألم يسجع كأهل القرن الرابع ؟ ألم يصطنع فيه ألفاظ هؤلاء الناس ؟

الأستاذ وأمثاله - كما قلت في الشعر الجاهلي - كتب قديمة

متحركة أو قطع من كتب وصل بعضها ببعض

ولنفرغ من مناقشة الأستاذ ، ولنجب ما كرنا الظريف وسائله الذي اضطرنا إلى هذا العناء كله . فالأدب عندنا أدبان : أدب إنشاء ، هو هذا الذي ينتجه الكتاب والشعراء من أصحاب الفن . وأدب علم ودرس ، هو هذا الذي ينتجه النقاد ومؤرخو الآداب . والآدب الأول فن كله ، والآدب الثاني مزاج من الفن والعلم . وقوام الأديبين شخصية الأديب التي يجب أن تظهر في كل ما يصدر عنه ظهوراً واضحاً .

وقوام الأديبين أيضاً اتصال الأديب بعصره اتصالاً يمكن من تمثيل ذوقه الفني إن كان منشئاً ، وحياته العقلية إن كان ناقداً أو مؤرخاً . ليس أديباً منشئاً هذا الذي ينظم الشعر فلا يتجاوز ما قال

القدماء في اللفظ والمعنى والأسلوب . وليس أديباً ناقداً هذا الذي يدرس الأدب فلا يتجاوز ما قال المبرد والجاحظ وأبو الفرج وصاحب العقد الفريد ، وإنما الأديب المنشئ من يقرأ معاصروه أدبه فيرون فيه أنفسهم . وإنما الأديب الناقد من يقرأ معاصروه نقده فلا يشعرون بأن بينهم وبينه بعد ما بينهم وبين القدماء .

وهنا تسألني : ما ذا تصنع بالقدماء ؟ والجواب يسير : أصنع بالقدماء ما صنعوا هم بأنفسهم ، فأنا ألتبس عصورهم في هذه المرآة ، ولا ألتبس منهم العصر الذي أعيش فيه . ولقد كنت أضرب منذ أيام مثلاً للأدباء من أهل محسر : ما رأى أنصار القديم لو طلبنا إليهم أن يهمل ما وصل إليه العلم الحديث في الطبيعة والطب ، وأن يعتمد في كليتي العلوم والطب على إشارات ابن سينا وقانونه ، أيرضون أم يصيحون ويستغيثون ؟ لا أشك في أن الأستاذ الشيخ علام يستغيث بالله والناس يوم يعرف أن طب « باستور » و « كلود برنار » قد أهمل ، وأن طبيبه سيعالجه منذ اليوم كما كان يعالج ابن سينا أو الحارث ابن كلدة أو داود الأنطاكي :

ومع ذلك فالأمر في الأدب كالأمر في الطبيعة والطب ، لا ينبغي أن يهمل طب ابن سينا وطبيعته لأنهما يمثلان عصراً من عصور الحياة العلمية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الطب

والطبيعة ولا يهمل أدب المبرد والجاحظ ، لأنهما يمثلان مظهرًا من مظاهر الحياة الأدبية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الأدب ولكننا نجد الأدب درساً وإنشاءً كما يجدد الطبيعيون والأطباء طبيعتهم وطبهم عملاً ونظراً .

فما رأى الأستاذ الشيخ علام وأصحابه في هذا الكلام ؟ أما أنا فواتق أنهم ينكرونه الإنكار كله ولا يطمئنون إليه . وهم مكرهون على هذا الإنكار ، فلو قد قبلوا ما زدعو إليه لما استطاعوا أن يعيشوا . ذلك أنهم غير قادرين على التجديد ، هم يؤثرون القديم ، ومن القديم يعيشون . أما نحن فلا نؤثر القديم ، ولا تؤثر الجديد ، لأننا لسنا في حاجة إلى أحدهما لتعيش ، وإنما نؤثرهما معاً وندرسهما معاً لأننا لا نبقى إلا العلم ، وإلا العلم خالصاً من كل شيء .

## ٢

### فطرات نفس للدكتور منصور فهمي

كنت أتحدث منذ أشهر إلى عالم كبير من علماء الفرنسيين في مصر، وكان يشكو إلى أن أعماله الادارية تستغرق أكثر وقته وتصرفه عن الدرس، بل عن متابعة الصحف والمجلات العلمية التي تعنيه، لأنها تتصل بالمادة التي يدرسها. قال: فاذا كان الشتاء شغل العلماء في مصر عن علمهم بهذه الحياة الاجتماعية العتيقة المفعمة بالزيارة والاستقبال، والتي تلتهم آخر النهار وشطراً من الليل في أكثر أيام الأسبوع. فالعالم في مصر مضيق للوقت والجهد، يصرف وجه النهار في حياة يومية عادية هي قوام عيشه، وينفق آخر النهار في حياة اجتماعية خاملة هي قوام مركزه في الدائرة الاجتماعية التي يدور فيها، وهو إن فرط في تلك الحياة الادارية مقصر يتعرض للوم واحتمال التبعات الثقيلة. وإن قصر في هذه الحياة الاجتماعية أنكرته بيئته، وأعرض عنه نظراؤه، واتهم بالكبرياء والفتور والجفوة والاهمال. وكل هذه خصال لا يجب أن يتصف بها الرجل الذي يريد أن يعيش في مصر هادئاً مطمئناً. فاذا فرغ العالم من حياته الادارية

والاجتماعية فقد انقضى النهار وتقدم الليل ، وينظر فاذا هو أمام حقوق لأهله لم يؤد منها شيئاً ، وأمام حقوق لنفسه لم يفكر فيها ، ثم يقهره ضعف الجسم فيؤوى إلى مضجعه يقضى فيه بقية الليل بين أرق مضن ونوم ثقيل . ثم يستقبل غده بمثل ما أنفق فيه أمسه . وعلى هذا النحو تمر الأيام والأسابيع والشهور ، والعالم منصرف عن علمه منهمك فيما لا يجد فيه لذة ولا غناء

قال صاحبي ، وأستطيع أن أؤكد لك أنى إذا خلوت إلى نفسى — وقلما أخلو إليها — وفكرت فى ذاك ضاقت بى الحياة ، وضقت بها ، واستيقنت أن حياة العلماء فى مصر تضحية مؤلمة مستمرة . فالناس فى بلادنا لا يثقلون العلماء بأعباء الزيارة والاستقبال ، ولا يشقون عليهم بالدعوة إلى الشاى والعشاء ، والسيدات لا يتخذن زينة يظهرنها فى غرفات الاستقبال كلما خطر لهن أن يستقبلن أو فى الحفلات الساهرة كلما خطر لهن أن يحتفلن

ولو أن رجال السربون والكوليج دى فرانس اختلفوا إلى غرفات الاستقبال وشهدوا ما يقام فى باريس من حفلات فى الليل وأخرى فى النهار لما كانت السربون والكوليج دى فرانس عقل فرانساً المفكر وقلبها النابض الحساس .

قلت : ومع ذلك قلما تخلو غرف الاستقبال الباريسية من

عالم أو أديب يلتفت حوله السيدات ، فيلقين عليه أسئلة حلوة مريحة ،  
ويسمعن منه أجوبة عذبة مرضية ، فيها فكاهة لا تخلو من مرارة ،  
وفيهما جد لا يخلو من سخرية . وأحسب أن الفرق بين فرنسا ومصر  
إنما هو كثرة العلماء والأدباء في الأولى وقتهم في الثانية . فعندكم من  
العلماء والأدباء من يفرغون للجامعة ، ويعكفون في المعامل ودور  
الكتب . وعندكم من العلماء والأدباء من يشهدون المحافل ، ويرزقون  
المجالس ، ويرضون حاجة السيدات إلى المفاخرة بمن يحضر يوم استقبالهم  
من رجال العلم والأدب والحرب والسياسة والقضاء . أما نحن  
فالمستثيرون عندنا قليل فضلا عن العلماء والأدباء التميزين . فليس  
عجيبا أن تشق الحياة على الظاهرين من علمائنا وأدبائنا ، وأن تتخطفهم  
المجالس وتتنافس غرف الاستقبال أيها يزدان بأكبر عدد ممكن منهم .  
قال صاحبي : ليكن مصدر ذلك ما تحب أن يكون ، ولكن  
الشيء الذي لاشك فيه هو أن نتيجة ذلك ثقيلة مؤلمة . فلو قد رأيت  
ما يجتمع في مكنتي من الصحف والمجلات والرسائل والكتب التي  
تنتظر أن أقرأها لراعتك الأمر . وجاءت سيدة ففرقت بين صاحبي  
وبيني بابتسامة عذبة ومزاح ظريف .

كنت أفكر في هذا الحديث منذ أيام حين كنت أستعد للسفر  
وحين كان صاحبي يسألني عما أريد أن أصطحب من كتب ،

فتأخذني حيرة لا أكاد أصفها ولا أصورها .

فقد انقضى العام ولم أقرأ شيئا . هذه كتب قديمة طبعت واستخرجت من دور الكتب في الشرق والغرب ، ومن الحق على نفسي أن أقرأها أو أنظر فيها ، وقد كنت أتحرق شوقا إليها قبل أن تقدمها إلى المطبعة وتجعلها يسيرة قريبة المنال . وهذه مقالات نشرها العلماء المستشرقون في مجلاتهم المختلفة ، ومن الحق على أن أقرأها أو ألم بها لأعرف ما يقول الزملاء فيما أفرغ لدرسه من العلم . وهذه مقالات نشرها الأدباء المعاصرون في مصر ، وحفظها صاحبي لأقرأها متى أتيسر لي الوقت ، فمن الحق على أن أعرف ما يقول المعاصرون من المصريين والشرقيين لأعيش على بصيرة وفهم للمصر الذي أحيا فيه . وهذه كتب ألفها فلان وفلان من الأصدقاء أو من الأدباء المتميزين ، ومن الحق على نفسي ولهؤلاء الأدباء أن أقرأ ما يكتبون لأحيا على أقل تقدير حياة الرجل المثقف الذي يلم بما يظهر حوله من فكرة أو رأى أو مذهب . كل هذا مجتمع في مكتبي وصاحبي يسألني عما أحب أن أحمل منه إلى أوروبا . ومهما تكن رغبتى في القراءة شديدة أثناء هذه الرحلة فأنا أحب أن أقرأ ما سأجده في أوروبا من كتب وصحف . وأنا لا أذهب لأوروبا للقراءة وحدها وإنما أريد أن أستريح وأن أرفه على النفس ، أطوف في

الأرض وأشهد الملاعب وأسمع للموسيقى والغناء ، فالطاقة محدودة ،  
والوقت محدود ، وهذه زوجي تلفتني إلى أن الحقائق محدودة أيضا ،  
وإلى أنها لم تصنع لتفعم بالكتب ، وإنما صنعت لتوضع فيها الثياب ،  
وما يحتاج إليه المسافر من أدوات ليس إلى الاستغناء عنها من سبيل .  
وهي تحدد ما أستطيع حمله من كتب على أن يوضع بعضه في هذه  
وبعضه في تلك ويحمل صاحبي بعضه الآخر فيضعه في حقيبته .  
وأنا أضيق بهذا كله فأكره الإقامة والسفر وأمقت الجد والكسل ،  
ثم أخرج عن طوري فأفرض كتباً لا بد من حملها مهما يكن من  
شيء ، وأترك لزوجي وصاحبي أن يتخيرا بعد ذلك ما يشاءان وما  
تتسع له حقائبهما من هذه الكتب المكدسة .

وقد وصلت الآن إلى فينا ، واستقر بي المقام فيها أنتظر مؤتمر  
المستشرقين ، وأنا أسأل صاحبي : ماذا حملت من كتب المعاصرين  
فيجيب مبتسما : لقد حملت ما تحب أن تقرأ : حملت كتاب التراجم  
لهيكل ، وحملت كتاب البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ، وحملت  
كتاب خطرات نفس لمنصور فهمي . لقد وفقت إلى حسن الاختيار  
ولكن ألم تحمل مصرع كليوباتره نشوقى ؟ قال صاحبي دهشا : ولِمَ  
أحمله وقد قرأته في الصيف الماضي ؟ وأنكرت من صاحبي إهمال هذا  
الكتاب ، فقد كنت أحب أن أعيد النظر فيه ، وأنكرت جوابه

فقد كنت أحب أن أتحدث عن هذا الكتاب إلى الناس ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . فلاقرأ ما بين يدي ، ولأبدأ بآخر هذه الكتب ظهوراً وهو خطرات نفس . ولست حديث عهد بهذا الكتاب فقد تبعته منذ نشأته الأولى وسابرتة نحو خمس عشرة سنة حين كانت فصوله المختلفة تنشر في الصحف شيئاً فشيئاً ، فأرى بعضها قبل أن يظهر ، وأرى بعضها مع غيرى من القراء . وكنت من الذين طلبوا إلى منصور أن يجمع هذه الفصول في سفر مستقل كما نفعل جميعاً حين نؤلف من فصولنا التي تنشرها الصحف أسفاراً تجمع متفرقها ، وتسهل على الناس قراءتها والرجوع إليها . وإذا كان صديقنا منصور حريصاً على أن يجمع خطرات نفسه لأنها تمثل صباه وشبابه ، وهو يحب أن يرجع إلى ماضى حياته ليحب ماضيه من ذكرى ، فإن أصدقاءه يحرصون على مثل ما يحرص عليه لأنهم يحبون أن تجتمع لديهم حياة صديقهم في صباه وشبابه وكهولته . فبتمنوا عند هذه الحياة وقفات فيها حب ومودة ووفاء ، وربما كان فيها عتب وخصومة واختلاف في الرأي فهما يكن الكتاب مستقلاً قوى النفس عظيم الشخصية ، فهو متصل ببيئته ، متصل بمعاصريه يلائمهم أحياناً فيرضون وينافهم أحياناً أخرى فينكرون . وكذلك حياة الأديب في كل بيئة وفي كل جيل : هو مخدوع ، يحسب أنه

يكتب لنفسه لأنه يحس من العواطف والأهواء ما لا يجد بداً من  
إعلانه ، فهو يرفه على نفسه حين يكتب أو ينظم الشعر ، ولكنه  
في حقيقة الأمر يكتب للناس ، ذلك بأنه كائن اجتماعي محتاج إلى أن  
يعطى الناس ، ويأخذ منهم فهو لا يستطيع أن يكتب بما يحس في نفسه ،  
بل لابد له من أن يشرك الناس فيما يحس .

وقد يوفق إلى ما يريد فيشاركه الناس فيما يحس ويرى ،  
وقد لا يوفق فلا يشاركه منهم أحد أو لا يشاركه منهم إلا القليل .  
ويخضع الأديب نفسه من ناحية أخرى حين يألف الإذاعة  
والنشر ويحس من الناس ميلاً إليه ، ورغبة في آثاره ، فيمضي في الإذاعة  
والنشر معتقداً أنه يكتب للناس ، وهو في حقيقة الأمر يكتب لنفسه  
لأنه أحب رضا الناس عنه ، وميلهم إليه وكفهم به ، فهو يستزيد  
حين يكتب من هذا الرضا والميل والسكف . فإذا زعم الأديب  
أنه يكتب لنفسه وحدها فهو مخطئ . وإنما الحق أنه حين يكتب  
يؤدي عملاً اجتماعياً فيه له وللناس لذة ومنتعة . ومهما يكن إلحاح  
الملحين على أخذنا في جمع ما تفرق من آثارنا ، ومهما يكن ترددنا  
في الاستجابة لهذا إلحاح ، فإن الأسباب التي دعتنا إلى نشر فصولنا  
في الصحف هي بنفسها التي تدعونا إلى أن نؤلف من هذه الفصول

أسفاراً تذاع مرة أخرى في المكتبات بعد أن أذيعت في الصحف اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية .

و بينما كنت أقرأ هذه المقدمة الظريفة التي قدمها منصور بين يدي هذه الخطرات في طورها الجديد لفتتني حاشية قرأتها مرة ومرة فأنكرتها بعض الشيء ، ذلك أن صديقنا يزعم فيها أنه لم يغير من فصوله شيئاً إلا ما كان من إعراب لفظ أو تصحيح آخر ، وأنه قد عهد في ذلك إلى الأستاذ صادق عنبر فتولاه عنه ، وهو يشكر للأستاذ هذا الفضل شكراً جميلاً .

واشتد إنكارى لهذه الحاشية حين أظهرني صاحبي على فصل لصديقنا هيكلي لم يكد يتجاوز فيه هذه الأسطر من كتاب منصور . فقد وقف عندها وقفة طويلة يسجل على نفسه وعلى منصور وعلى الكتاب المناصرين ضعفاً ظاهراً في اللغة العربية وقصوراً عن إحسان الانتفاع بها واعترافاً بهذا القصور . وأنا أعترف بأنني لم أفهم هذه الحاشية . فلو قد كان صديقنا منصور معترفاً بضعفه في العربية مكبراً لها لعرض فصوله على الأستاذ صادق عنبر أو على غيره ليعرب ألفاظها ، ويصححها قبل أن يدفعها إلى الصحف ولكنه لم يفعل ، فهل أحس هذا الضعف واعترف به حين أراد أن يجمع هذه الفصول في كتاب ؟ وأغرب من هذا أن تقرأ الفصول مجموعة فلا نجد فرقاً

لغويا بينها في هذا السفر و بينها في الأهرام والسفور : ففيها ما فيها من صواب لغوي كبير وخطأ لغوي قليل يغفر لمنصور لأنه لم يزعم لنفسه في يوم من الأيام تفوقا في اللغة أو عصمة من الخطأ فيها ، وإنما عرفته دائماً بأسف لأنه لم يظفر من اللغة بما كان يريد .

في هذه الفصول مجموعة أغلاط لغوية كانت فيها متفرقة ، ولم يصححها الأستاذ صادق عنبر ولم يعربها لأنه لم يكلف تصحيح اللغة ولا إعرابها ، وإنما كلف تصحيح التجارب المطبعية طبقاً للأصل الذي دفعه إليه المؤلف ، فأحسن الأستاذ صادق عنبر هذا التصحيح ، وإلا فكيف ترك الأستاذ صادق عنبر الذراع مذكرة تذكيراً لا يحتمل الشك في صفحة ٣٢ ؟ وكيف ترك الأستاذ صادق عنبر في صفحة ٨٣ هذا الاستعمال العددي الذي لا يخلو من غرابة وهو « من نيف وعشر سنين » وأنا لا أذكر هذين المثليين إلا لأثبت أن الأستاذ صادق عنبر لم يعرب ألفاظاً ولم يصحح أخرى ولم يطلب إليه منصور ذلك ، وإنما صحح تجارب المطبعة ، فأراد منصور أن يشكره هذا الجهد ، فأسرف في التعبير كما أسرف صديقنا هيكل في استنباط ما استنبط من هذه الحاشية .

و بعد ، فمن الحق أن نقف عند ما يمكن أن يوجد في كتاب منصور من انحراف قليل عن طريق العرب في التعبير ، فليس منصور

صاحب ألقاب ولا هو يزعم لنفسه ذلك ، وإنما هو صاحب معان  
غزيرة غنية ، وخطرات قيمة خصبة . وأنا أريد في هذا الفصل أن  
أقف عند هذه الخطوات وقفة قصيرة ، لأحقق إلى حد ما ، هذه  
الشخصية الأدبية التي تمثلها وهي شخصية صديقنا منصور .

ليست هذه الشخصية قوية إلى حد الطغيان ، وليست ضعيفة إلى حد  
الفتور ، وليست هادئة إلى حد الاطمئنان ، ولكنها شخصية تائرة  
جامحة ، دون أن يكون في ثورتها أو جموحها هذا العنف الذي لا يذر  
شيئاً أتى عليه إلا دمره تدميراً . فصديقنا منصور تائرولكنه لا يحطم  
شيئاً ، جامح ولكن لا يلبث أن يعود ويطمئن إلى ما يطمئن إليه  
الناس . هو تائر ماهر يستطيع أن يخترق الزجاج وينفذ منه إلى  
ما وراءه دون أن يحطم أو يحدث فيه صدعا . ذلك لأنه ينفذ منه  
ببصره لا بجسمه . وإذا شئت التعبير الدقيق فقل أنه يرى التجديد  
ويحبه دون أن يقدم عليه ، لأنه يؤثر العافية ويفضل الانتظار . وليس  
في ذلك شيء من الغرابة : فصديقنا منصور شديد التأثير بفريقين  
من الفلاسفة : أحدهما فلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا ،  
والآخر فلاسفة الاجتماع في آخر القرن الماضي وأول هذا القرن  
الذي نحن فيه : فأما الفريق الأول فأنت تعلم أنهم أعدوا الثورة

الفرنسية ولم يشهدوها ، ولو شهدوها لفنروا منها نفوراً شديداً . وأنت تعلم مقدار ما كان من الفرق بين الحياة العقلية والشعورية والحياة العمالية لروسو وفولتير . وأما الفريق الثاني فأصحاب علم وملاحظة ، لا يعنون إلا بأن يلاحظوا ويستنبطوا ويتركوا للحوادث طريقها إلى إنشاء التاريخ .

والغريب من أمر صديقنا منصور أنه تأثر بفيلسوفين مختلفين اختلافاً شديداً : أحدهما روسو وهو صاحب الشعور الدقيق والعواطف الحادة والمزاج المضطرب والخيال الخصب ، والآخر دوركيم وهو صاحب العقل المستقيم والمنهج العلمي الدقيق وأبعد الناس عن التأثر بالعاطفة والخضوع للشعور ، فهو يدرس الجماعة كما يدرس صاحب الحيوان والنبات في معمله .

وأثر روسو في الخطرات أشد وأظهر من أثر دوركيم . فالخطرات حديث العواطف ، وهو حديث وجه إلى الكثرة من الناس . فلا ينبغي أن يكون حديثاً علمياً يخاطب العقل الخالص ، لأن هذا العقل الخالص لا يوجد في الشوارع ، وإنما يوجد في المكاتب المغلقة ، ولم يتحدث منصور إلى أهل المكاتب المغلقة . وإنما يتحدث إلى الناس الذين يمدون ويروحون ويمشون في الأسواق ويختلفون إلى الأندية والملاهي .

ولو أنني أردت أن أحدد تأثير روسو في خطرات منصور لأشرت إلى هذا الطموح الظاهر إلى مثل أعلى من الخير يلتمسه منصور كما كان يلتمسه روسو في الطبيعة الحرة الساذجة التي لم تفسدها الحضارة ، ولم يمسخها التكلف ، والتي يجدها في الريف ، وفي بعض الطبقات من الناس . ثم لأشرت إلى العاطفة الدينية في خطرات منصور ، فهي قوية جداً تبلغ التصوف أحياناً ، ولكنها غريبة جداً لا تكاد توفق إلى تحديدها : فيها من الإسلام وفيها من الروح اليوناني ، وفيها من الروح المصري القديم ، وفيها من مذهب وحدة الوجود .

وأنت تستطيع أن تجد هذا كله في الفصول التي كتبها منصور حين رحل إلى بلاد اليونان سنة ١٩٢٣ ووقف على الأكرو بوليس متأثراً بوقفة رينان (١)

على أن هناك فرقا عظيماً جداً بين رينان ومنصور حين وقف في الأكرو بوليس ، فقد كان رينان أديباً وفيلسوفاً ومؤرخاً . أما منصور فكان أديباً وفيلسوفاً ليس غير . وكنت أحب أن يقرأ شيئاً من تاريخ اليونان قبل أن يذهب إلى أثينا . فهناك فصل أسفت له أشد الأسف ، ولو استشارني منصور لأشرت عليه بحذفه ، لالضعف في معناه أو لفظه

(١) قبلته وصلاته إلى الإلهة اليونانية أثينا . والواقع أن العاطفة الدينية في هذه الفصول متأثرة بهذا الدين الغريب الذي كان يظهره رينان . والذي لم يكن رينان نفسه يستطيع تحديده

فهو قوى المعنى جيد اللفظ<sup>(١)</sup> ، ولكن لبعده عن الحق ولأنه أراد أن  
ينصف آلهة المصريين القدماء فظلم آلهة اليونان ظلماً شديداً . عنوان هذا  
الفصل هو « وقفة بالحصن المقدس - العرق دساس » أراد منصور أن  
يتقرب إلى إلهة الحسن في أتيننا ، وما أشك في أنه أراد الآلهة أتيننا نفسها ،  
وإن كانت عنايتها بالحسن أقل مما ظن منصور بكثير . إنما فروديت  
هى التى كانت تعنى بالحسن ، ومع ذلك فالصورة التى تخيلها منصور  
من الحسن ليرضى الآلهة اليونانية بعيدة كل البعد عما يرضى إلهة  
اليونان ، قريبة كل القرب إلى ما يرضى الغايات فى القاهرة أو  
باريس . فقد أراد منصور أن يتجمل بأحسن ثيابه ، ويرجل شعره  
ويصلح من شاربيه ، ويتعطر بأحسن الطيب ، ويضع فى صدره زهرة  
غضة ، ويرسل عليه ساسلة ذهبية ، ويضع فى أصبعه خاتماً يتألق ، ثم  
ذهب يشتري عصا ، وبينما التاجر يعرض عليه أظرف ما عنده من  
العصى رأى عصا تمتاز بالمتانة والصلابة والشده فأثرها ، لأنه ذكر  
المصريين وآلهتهم وأنهم كانوا يمتازون بالقوة والمتانة فانصرف اليهم  
وانحرف عن الآلهة اليونانية معتدراً إليها لأنه من قوم كانوا يؤثرون  
القوة ولم ينس منصور إلا شيئاً واحداً ولكنه عظيم الخطر جداً ،

(١) وقد اختاره الأستاذان كفير وطه الخيمرى نموذجاً لكتابة

منصور فى سفر يعدانه باللغة الانكليزية عن الكتاب المعاصرين

وهو أن إلهة أثينا كانت إلهة الحكمة من ناحية وإلهة الحرب من ناحية أخرى ، وأنها خرجت من رأس أبيها كأقوى ما تكون سلاحاً واستعداداً للحرب ، وأظن أن إلهة الحكمة والحرب لا تنقصها المتانة والقوة . ذلك إلى أن إلهة الحسن نفسها وهي أفروديت كانت عند اليونان قوية شديدة البأس ، دافعت عن طروادة فأحسنت الدفاع وكادت تنتصر . فانت ترى أن جمال هذا الفصل قد ذهب لأن كاتبه لم يكن مؤرخاً حين كتبه .

ولأعدُّ إلى ما كنت فيه من وصف العاطفة الدينية في خطرات منصور ، فقد قلت إنها قوية حادة وإن فيها من الديانات المختلفة والمذاهب الفلسفية ما يذكر برينان . ويكفي أن تنظر إلى هذا الفصل الذي يشبه فيه الجمال بالله وبالقوة الخفية لأنه يعرف بآثاره دون أن تدرك حقيقته ، لتحس من قوة هذه العاطفة وسعتها ما يثبت صحة ما أقول .

ولرؤسو تأثير آخر في خطرات منصور كاد يجعله كاتباً بارعاً من الوجهة اللفظية لولا أنه لم يدرس اللغة العربية درساً عميقاً . ذلك أن رؤسو قد بث في نفس منصور قوة غريبة تكرهه على أن يظهر ما يشعر به قويا كما يشعر به ، أي في قوة وعنف ، فيحمله ذلك على أن يخترع صوراً من التعبير ليست مألوفة ، وكانت خليقة أن تبقى

وتورخ عصرًا من عصور اللغة لو استقامت لصاحبها طرق التعبير ، ولو أنه تأني وتمهل ولم يخرجها عجلان مسرعا . وأنت تجد صورة قوية من هذا في الفصل الذي كتبه يودع به العام ، فأخذ يفكر ويستعرض الحوادث و ينتظر آخر لحظة في السنة ، حتى إذا أخذت الساعة تدق خيل إليه أن كل دقة من دقائقها تحصى أثرا من آثار العام ، فأعلن بهذه الصورة الغريبة الطريفة التي كادت تكون بديعة لولا أنه تعجل ولم تستقم له اللغة فأصبحت صورة مضحكة ، أو داعية إلى الابتسام . وأنا أنقلها لك لترى صحة ما أقول : —

تن . . . سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن . . .

تن . . . أغريت الانسان بالذهب الوهاج فتهافت على ناره كما يتهافت على النور الفراش . . .

تن . . . جعلت في الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف ولو كان بريئا . . .

تن . . . آويت اللص وسترت الخديعة ، وكثيرا ما أعيت الباطل على الحق . . .

تن . . . نفرت بين قلوب ، وأشعلت ضغائن ، وأثرت فتنا . . .

تن . . . صرفت الناس عن وجهك يا الله ليعمدوا إلى الأثرة

والشهوات . . .

تن . . . تمخضت بأراء وقدمت عضات وعبرا ، ولكن الناس  
لا يفقهون . . .

تن . . . أحرقت أفئدة وأجريت دموعاً وشربت دماء . . .

تن . . . كم من ضحيج أضعفت . . . وكم من عزيز أذلت . . .

وكم من عليل داويت . . .

تن . . . جردت أشجاراً من ورقها الأصفر الجاف . . . وأبدلتها

منه ورقاً جديداً . . . وجعلت عليها زهرا نضيرا . . .

تن . . . صرفت العاشقين وهم في سكرات القبل عن مرارة

العيش ، ثم أخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تعساً ، وبدلت

سعادتهم شقوة وجحima . . .

تن . . . لبيك اللهم لبيك . . . »

هذه الآثار القوية المختلفة التي تركها روسو في نفس منصور

جعلت منه كاتباً ، ليس كغيره من الكتاب المعاصرين ، نزعته

الفلسفية في جوهرها غريبة بعض الشيء لأنها لا تلائم العصر الذي

نحن فيه ، ولكنها في شكلها وظاهرها مألوفة يجيبها الناس لأنها

سهلة تدعو في يسر ولين وقوة إلى الخير ، وإلى الفضائل التي أحبها

الناس وأنفوا حبها ، تدعو إلى الرحمة والاشفاق والتبر والحنان والوفاء

وما إلى ذلك من الفضائل الاجتماعية والفردية . ولا بد هنا من

الإشارة إلى ناحية أخرى لا تتم بدونها شخصية منصور وهى شقيقته ،  
فمنصور مؤمن بالرابطة الشرقية إيماناً قوياً قديماً ، لعله يعتمد على الوراثة  
والمزاج الفطرى أكثر مما يعتمد على الروية والتفكير العقلى . والذين  
يعرفون صديقنا منصوراً يشكون فى أن أشد الأوتار التى تتألف منها  
نفسه حسا واضطرابا وترديداً لأصدقاء الحياة إنما هو حبه للشرق  
وفناؤه فيه .

كان شرقياً حين كان طالباً للعلم فى باريس ، كان يألف الشرقيين  
أكثر مما يألف الغربيين ، كان يألف الشرقيين على اختلافهم ،  
كان يألف أبناء الشرق القريب من العرب والترك ، وكان يألف  
أبناء الشرق الأوسط من الفرس . وكان يحس من نفسه ميلاً لا يخلو  
من حنان إلى أبناء الشرق الأوروبى من الروسيين والبولونيين .  
ثم عاد إلى مصر ، فلما ضاقت به واضطر إلى الرحيل عنها نفى نفسه  
إلى الشرق ، فهاجر إلى قسطنطينية وأقام فيها حتى ردت الحرب إلى  
وطنه . فعاد إليه شرقياً كما تركه شرقياً . ولم يكد يشترك فى الحياة  
الاجتماعية الظاهرة حتى كان نشاطه قوياً عنيفاً يكاد يبلغ التعصب فى  
إنشاء الرابطة الشرقية وتأييدها ، وهو الآن من أقطابها الظاهرين .  
وهو فى هذا كله يصدر عن العاطفة والوراثة أكثر مما يصدر عن  
الروية والتفكير . وقد أثرت شقيقته هذه فى خطرات نفسه كما

أثرت في حياته العملية وصلاته الاجتماعية فهو في الخطرات شرقي ،  
لولا الحياء وخشية أن يوصف بالرجعية لآثر القديم الشرقي على الجديد  
الغربي في غير تحفظ ولا احتياط . وأحسب أنه سينتهي على مر  
الزمن إلى هذا الموقف فيصبح محافظا مسرفا في المحافظة . وهو في  
صلاته الاجتماعية قريب من بيئة المحافظين المعتدلين الذين لا يكرهون  
التجديد ، ولكنهم لا يقدمون عليه إلا في استحياء . وهو يعد بين  
الأزهريين أصدقاء يحبهم ويحبونه ويميل اليهم ويكفون به . وقد  
لاحظ الأستاذ حبيب هذه الخصلة في صديقنا منصور ومصطفى  
عبد الرزاق . فأشار في بحثه الأخير عن المعاصرين من أدباء مصر إلى  
أنهما يستمتعان برضى البيئات المحافظة .

أما أثر علماء الاجتماع المعاصرين في منصور فلا يكاد يظهر في  
الخطرات إلا حين يتحدث منصور عن الجماعة ، فتراه يفهمها ويصفها  
على نحو ما كان يفهمها ويصفها دوركيم . ولكنني قلت آنفا إن  
صديقنا لم يتحدث في الخطرات إلى العلماء ، وإنما تحدث إلى الكثرة  
من الناس فلم يكن من اليسير أن تصور الخطرات حياته العلمية  
وهو يخيل إلى الآن باظهار هذه الحياة العلمية في كتاب ينشره على  
الناس ، وهو يزعم في تواضع فلسفي أنه لا يجب أن يظهر هذا  
الكتاب حتى يتم نضجه العقلي ، كأنه يريد أن يخيل إلى الناس

أن عقله لم يتضح بعد ، ولكن أصدقاءه وطلابه في الجامعة لا يطمثون إلى هذا التواضع ، ولا يسحرهم هذا الخيال ، فهم يتمنون على الأستاذ أن يفرغ لهم قليلا وأن يبيح لهم شيئا من آثار عقله الذي تم نضجه منذ دهر طويل .

أثارت الخطرات في نفسى هذه المعانى ، ولما أقرأ منها إلا نصفها أو ما دون النصف . ولست أدري متى أقف لو انتظرت بكتابة هذا الفصل أن أقرأ الكتاب كله . وأنت ترى معى أنى قد أطلت وأمرفت في الاطالة . فلا تم وحدى قراءة هذا الكتاب القيم .

فيينا ( يونيو سنة ١٩٣٠ )

## ٣

### ديكارت

شيخان من أنصار القديم قرءا كتاب « الشعر الجاهلي » الذي أذعته منذ أسابيع . وكانا قد سمعا به قبل أن يظهر ، وكانا قد أزمعا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرءاه كله أو بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجري الأقدار فيه كما يجب ، وقد أراد الله أن يظهر اسم ديكارت وفاسفته منذ ثلاثة قرون وأن يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وأن يتغلغل تأثير ديكارت كاسم أرسططاليس عنواناً لطور من أطوار الحياة الانسانية العامة التي تلزم الأجيال مهما اختلف بها الأزمنة والأمكنة . أراد الله هذا كله ، وأراد معه شيئاً آخر هو أن يظل ديكارت مجهولاً عند طائفة من شيوخ الأدب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدرون كيف يؤكل ، وإن دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وإن عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له . وليس لنا أن ندعن للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الأدب العربي اسم ديكارت وفلسفة ديكارت في العصر الذي

يحرص الانسان فيه على أن يعلم كما استطاع أن يعلم .  
ومن غريب الأمر أن شيوخ الأدب القديم يرون ويكتبون  
كما كان يرى الأدباء القدماء ويكتبون : أن الأديب « هو من يأخذ  
من كل شيء بطرف » كذلك قال شيخ الأدب في دار العلوم ، وإنما  
أريد الأستاذ الشيخ علام ، قال ذلك في « السياسة » منذ أسبوعين ،  
ولم يكن في ذلك مجدداً ، وإنما كان يحكى القدماء ، ويرددهم . وقد  
كان المبرد حريصاً كل الحرص على أن يأخذ الأديب من كل شيء  
بطرف ، وظهر ذلك في كتاب الكامل ظهوراً واضحاً حتى أنك  
لترى فيه باباً قال المبرد في عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شيء  
شيئاً » وكتب الأدب العربي القديمة كلها قائمة على هذا النحو  
من تصور الأدب والأديب ، والأستاذ الشيخ علام وأصحابه يرون  
رأى القدماء ، ويكتبون أن الأديب يجب أن يلم من كل شيء بطرف ،  
ولكنهم لا يلمون من كل شيء ، بطرف ، بل يجهلون ديكرات وفلسفته  
وأثره البعيد في حياة العقل والشعور كما قلنا  
وهم يجهلون ناساً آخرين غير ديكرات ، وأشياء أخرى غير فلسفة  
ديكرات ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم أدباء ، وأنهم قد ألموا من كل  
شيء بطرف . ومعذرتهم في هذا قائمة : فديكرات ليس شيئاً وفلسفته  
ليست شيئاً ، والحق عليهم أن يلموا من كل « شيء » بطرف . فأما

ما ليس « شيئاً » فلا ينبغي أن يلحوا منه بقليل ولا كثير . فإذا أردت أن تعرف لم لا يكون ديكرت شيئاً من الأشياء ، ففي جواب ذلك قولان : أحدهما أن الشيء الذي ينبغي أن يلم الأديب بطرف منه هو الشيء الرسمي الذي اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمي في وزارة المعارف . فعلى الأديب أن يلم بعلوم العربية وأن يلم بالرياضيات والطبيعات . وليس في البرنامج الرسمي لوزارة المعارف ذكر ديكرت ولا فلسفة ديكرت . وإذن فهما ليسا في الورقة الصفراء . . . . . وإذن فليس الأديب مكلفاً أن يلم منهما بطرف لأنهما ليسا شيئاً . هذا أحد القولين : وهناك قول آخر وهو أن الشيء الذي ينبغي أن يلم الأديب منه بطرف هو الشرق القديم . . . . . أستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، بل هو العربي القديم . مصر الفراعنة ليست شيئاً ، ومصر اليونان والرومان ليست شيئاً . وليس الأديب مكلفاً أن يلم منها بطرف ، وأقسم ما يعرف الأستاذ الشيخ علام وأصحابه لها طمأ . . . . . أستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، بل الشيء هو العربي القديم الذي لا يتجاوز بلاد العرب والشام والعراق في العصور العربية الأولى والأندلس في بعض عصورها الإسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما أفريقيا الشمالية فليست شيئاً وللأديب أن يجهلها ، وهم يجهلونها باذن الله . وإذن فأوروبا ليست شيئاً . وإذن فديكرت ليس شيئاً

وفلسفته ليست شيئاً ، وجبل أوروبا وديكارت وفلسفته ليس من  
الأمور التي تعاب على الأديب . ورحم الله شيخاً من شيوخنا في  
الأزهر أراد أن يرفع في يوم من الأيام ظلامه إلى المحافظة فلم يستطع  
أن يكتب ما كان يريد ، فاستعان عليه بأحد « أبناء المدارس »  
معتذراً أو مفاخرأً بأنه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فاشيوخ  
الأدب أن يعتذروا أو أن يفاخروا بأنهم مجهلون ديكارت وفلسفته  
لانهما ليسا شيئاً ، ولأن من السخف أن يضيع الأديب وقته في درسهما ،  
وخير من ذلك وأجدى أن ينسب الأديب على فقره من فقرات  
الحريري ، أو مقامة من مقامات البديع ، أو بيت من شعر امرئ القيس  
واكن حظ الأديب سيء أبدأ ، وانت لم تنس بعد حرفة  
الأدب التي قتلت ابن الممتر ، وتفت لحية الحريري ، وحالت بين لفظ  
الأدب وبين الورد في القرآن ، فالأدب لذيذ ولكنه شؤم على أهله .  
ومن شؤم الأدب على الأدباء أن كتابا ظهر في هذه الأيام يقال له  
« الشعر الجاهلي » ويجب على الأدباء أن ينقدوه وينقضوه ويهدموه  
ويهدموا كاتبه ، ويتقربوا بهذا النقد والنقض والهدم الى الله أو . .  
إلى الشيطان . وقد أقسموا ليفعلن . وقد بدءوا يفعلون فما هي إلا أن  
اعترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكارت وفلسفة ديكارت .  
والحق نقول إن موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعاً

لا يخلو من فكاها وظرف . فأما أحد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في أول هذا الفصل واللذين أهدي إليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء أنه لا يعرف ديكرت ولا مذهبه ، وأنه يظن أو يرجح أن مذهب ديكرت قريب من المذاهب الإسلامية ، وأن صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه أو كما قال الشيخ ، وأما الآخر فعزير عليه أن يتكبر أو يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود أن يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون أن يذكرهم أو يشير إليهم ، فلم لا يستغل في أمر ديكرت حياً أو ميتاً يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الأموات فلم يجد وبحث بين الأحياء فلم يجد من كتب عن ديكرت أو أشار إليه ، وهو لا يعرف لغة ديكرت ولا لغة أجنبية أخرى . واذن فليجأ إلى أحد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه أمر ديكرت ، ويأخص له فلسفته ، حتى إذا استقام له ذلك في صفحات أو أسطر تكلم عن ديكرت وفلسفته كلام العالم المحقق ، وأثبت لصاحب « الشعر الجاهلي » أنه لا يفهم ديكرت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الأهرام » فعرف من أمر ديكرت وفلسفته ما لم يعرف هذا الشيخ المنسكين وأنا أحد الذين يعرفون لغة أجنبية وأحد الذين يحسنون لغة

ديكارت ، وأحد الذين قرءوا كتب ديكارت ، وأحد الذين قرءوا ما كتب عن ديكارت . وأنا أريد أن أهدى إلى الشيخين بحثاً عن حياة ديكارت وفلسفته لئلا يهدى إلى الشيخين بحثاً عن كتاب الشعر الجاهلي ، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاماً . وأنا مخلص فيما أكتب ، فأنا أحب أن ياتهمني الشيخان لأنني أعرف أن حلقتهما إن استطاعا ازدرادي فستعجز معدتاها عن هضمي أنا أهدى إلى الشيخين بحثي عن حياة ديكارت ، ولكني أهديه إليهما على أن يقرءاه ويفقهاه فقها « حسناً » لا يشبه فقهما « للشعر الجاهلي » ولا للسان العرب ولا لما كتب الرافعي أو أملي السكندري وأنا أهدى هذا البحث إلى الذين يعرفون ديكارت من المتفرجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك أني أعلم من أمر ديكارت ما لا يعلم الناس في مصر ، فقد كنت أريد أن أضع فيه كتاباً واضطرتني ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق وإلى ألوان من الاستقصاء والاستقراء . ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء ، فقد وصلت إلى نتائج غريبة قيمة لو أعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرانس ولأعلن لها المجمع العلمي الفرنسي إفلاسه . . لا تضحك ولا تعجب فليست أحدثك إلا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكني أن تعلم أني استكشفت طائفة من الكتب

المخطوطة التي كتبت في النصف الثاني للقرن السابع عشر بعد أن مات ديكارت بسنين قليلة ، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة ، حتى إذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد مافي القصر ضاعت هذه الكتب ، ولم يستطع أن يظفر بها الذين أنشؤا المكتبة الأهلية في باريس بعد الثورة ، وأخذت أسرة من الأسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت إلى صديق لي فرنسي ، كان يدرس معي ، وهو يقيم في ريف بوجونيا ، فدعاني في بعض فصول الصيف أن أقضي عنده أياما ففعلت ، وأظهرني على مكتبة آبائه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معاً ، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه إلى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع أصولها المخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ أنهم لم يؤتوا من العلم عن ديكارت إلا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ أن هذه الطبعة الرسمية التي نشرتها في إثني عشر مجلداً ضخماً لا تشتمل إلا على ما كان يكتبه ديكارت ليلهو ويعبث ويأهى الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكارت كأرسطاليس يذهب في الفلسفة مذهبين مختلفين أحدهما يعلنه إلى الناس ، فانهم يستطيعون أن يفهموه وأن يسبقوه ، والآخر يحتفظ به لنفسه ، وللأصفياء من تلاميذه ولا يذيعه في الجماهير

لأنه أعسر وأدسم من أن تحتله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الأول من آثار ديكارت ، فعهدت إلى عالمين من أكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره فعلا ، ووقع هذا القسم في اثني عشر مجلداً ضخماً كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية أو هذه المطبوعة الرسمية - على رأي وحيد - ويقارن بينها وبين ما سنشره قريباً سيرى أن ديكارت كان غريباً حقاً . فقد كان يأتلف من شخصين مختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : أحدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حيناً ، وباللاتينية حيناً آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل إليك أنه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما أقامه أرسططاليس وتلاميذه . ذلك لأنه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يألفها الناس ، هي تسيان القديم والبراءة منه كله ، وإقتراض أنه لم يكن ، حتى إذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد شيئاً ، ولا شيئاً يشبه الجديد ، وإنما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والأفيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه أبا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثاني هو الذي لفتنا وبهرتنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شيء ، إلا إياها . ذلك أن ديكارت لم يكن مسيحياً ولا فيلسوفاً ولا من أصحاب التجديد

ولا من أنصار هذه الحقائق الثابتة التي ألفها الناس ، وإنما كان مسماً  
ديانا متصوفاً مغرقاً في التصوف شطاحاً مسرفاً في الشطح . انتهى به  
هذا كله إلى شيء لا أستطيع أن أسميه إلا « إظهار الكرامات » .  
ولعل أحسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكرت  
أن ألخص لك في شيء من الإيجاز بعض ما كتبه ديكرت عن  
نفسه ، وما وجدناه في هذه الكتب ( المخطوطة ) التي حدثتكم عنها  
آنفاً .

ولد ديكرت في القرن السادس عشر المسيح ، وكانت أسرته  
فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما  
شب أرسلته أسرته إلى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان  
اليسوعيون يعلمون . أتقن اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى واللغتين  
اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكياً حاد الذهن مستعداً للنقد  
والشك ، فاضطربت نفسه اضطراباً شديداً حين أحس تناقضاً بين  
قواعد اللاهوت وفلسفة أرسططاليس . ولكنه لم يظهر من هذا  
الشك شيئاً لأنه كان محافظاً كأبويه وأساتذته اليسوعيين . على أنه  
لم يكذب يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه إليها أبواه ، وهي حياة  
الحرب ، فانصرف إلى السياحة ولقي في هولاندا رجلاً شبيهاً من  
اليهود يقال له دروكسيس بن كراباك . قال ديكرت : كان لهذا

الشيخ تأثير غريب في نفسي ، لا أدري أكان مصدره ذكاه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف أطواره العجيبة . كان قصيراً ضخماً عريضاً ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ، ولكن عينيه كانتا شديدتي التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الأذنين ، دقيق الأنف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فأما صوته فلا أعرف أني سمعت صوتاً يشبهه . أما في حديثه العادي فكان غليظاً متهدجاً أشبه شيء بالرعد ، فإذا ناقش أو ناظر في العلم كان نحيف الصوت حاده خلاب الحديث . ولا أعرف أني رأيت عالماً يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الأولون والآخرون ، كان يهودي الجنس والمولد ، ولكنه لم يكن يهودي الدين . وأحسب أنه قد ورث شيئاً من آبائه الذين خالطوا المساهين مخالطة شديدة في اسبانيا . كان غنياً ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، إلا أنه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ، وكان يعجبنى في بيته شيئان : مائدته ومكتبته . تحدثت إليه في الفلسفة وفي اللاهوت فسمع مني ، وتحدثت إليه ، وما هي إلا أن فتنت به وشغف بي ، وأصبحت لأستطيع عن لقائه صبراً . وقد كان في حديثه إلى ما هراً لبقاً يلقي إلى أغرب الآراء ، وكأنه يتحدثني عن الجو والمطر ، حتى إذا آانس مني اطمئناناً إليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لي عن دخيلة نفسه ، فإذا هو لا يؤمن

بالمسيحية ولا اليهودية، ولا يحب الأحماد ولا الملحدين ، وإنما اتخذ لنفسه ديناً كنت أسمع به ، ولا أعرف من حقيقته شيئاً . فلما رغبت إليه في أن يظهرني على دقائق هذا الدين أطال الصمت ، ثم قال في هدوء : ما أحب أن أظهر لك هذا الدين ، وإنما أحب أن يظهر لك الدين نفسه فاتبعني ، ثم مضى بي إلى مكتبته واستخرج سرفراً ضخماً دفعه إليّ ، وقال أقر أهذا ، فاذا فرغت منه فلنتحدث ، ثم تركني ومضى . ونظرت في الكتاب فاذا هو باللاتينية وإذاهو ترجمة لكتاب كتبه أحد المسلمين في القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج<sup>(١)</sup> ولم أكد أمضى في هذا الكتاب حتى أحسست كأن بيني وبين الحقائق سترأ صفيقاً ، وكأن هذا الستر أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً ويظهر لي من ورائه عالم بديع غريب خلاب ، وأخذت نفسي تمتلي . شوقاً إلى هذا العالم وهياماً به . انفتحت في قراءة هذا الكتاب أياماً ثلاثة ، فلما فرغت منها أنكرت نفسي وأنكرت ما حولي من الأشياء . ومن حولي من الناس . ولقيني دروكل كسيس فلم يظهر عجباً ولا إنكاراً . . .

---

(١) ألفت الأستاذ لويس ماسينيون إلى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين . فأنا أعلم أنه يعني بهذا الكتاب وصاحبه وأنه قدم إلى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم

وإذا كنت لا أزال حياً إلى الآن ، وإذا كنت قد استطعت  
أن أنشر في الناس كتباً أعجبهم ، وأكتب لنفسي كتباً ورأوها ،  
وإذا كان صوتي قد وصل إلى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس  
الملوك في عشرتي والاستثمار بي ، فأنا مدين بهذا كله لدور كل كسيس  
ابن كراباك . ذلك أني خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتوناً ،  
أريد أن أعلن إلى الناس إيماني بهذا الدين الجديد ، وأناضل عنه بما  
أملك من قوة ، ولكنه حال بيني وبين ذلك ، وكان يقول لي في  
هدوء : أحذر أن يصيبك ما أصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا  
تنتفع بها الناس ، والحياة أغلى وأنفس من أن تبذل في غير نفع ،  
فاكتم ما أنت فيه وأنفق حياتك في التسبيح والتقديس ، وانفع الناس  
ما استطعت إلى تفهم سبيلا .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه المعيشة التي كان  
الناس يعجبون من أمرها .

وفي الحق أن حياة ديكارت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها في  
موقد له لا يخرج منه إلا مضطراً ، وكان يقسم وقته أربعة أقسام :  
أحدها لما يحتاج إليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد في هذه  
العناية اقتصاداً شديداً ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم إلا بما  
يمسك عليه الحياة ، والثاني ينفقه في الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس

في هذه الحياة العاجلة ، والثالث في التفكير الفاسفي الأشرافي ،  
والرابع في التسبيح والتقديس وتلاوة صيغة معينة أخذها عن شيخه  
دروكلكسيس بن كراباك . وكان لترديده إياها تأثير عظيم في حياته  
العملية والعقلية . قال ديكرارت :

« بينما أنا في موقدي ذات يوم أردت ما تعودت ترديده من صيغ  
التسبيح والتقديس إذ أخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن  
سقف البيت قد انشق وكان طائراً قد هوى إلى الموقد ، له شكل  
الهدهد ، ولكنه أكبر منه حجماً وأعرض منه جناحاً ، وكان هذا  
الطائر قد وقف قبالة الموقد محذقاً في منصتاً لما أقول ، وكأنه قد انكر  
صوتي ونومي فقال في لغة لاتينية تبينتها في وضوح وجلاء : عجباً  
لهذا الصامت النائم والفلك يدور ، وشيخه في خطر ، فاستيقظت لهذا  
الصوت في شيء ، من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئاً ، ولكنني أشفت  
على دروكلكسيس وأردت أن أراه فسعيت إليه من فوري ولم أكد  
أسأل عنه حتى حدثت أنه مريض ، وأن الطبيب يخشى عليه . فأدخلت  
عليه ، فاذا هو في سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا في صدر  
فارغ ، فجنوت عند سريره ، وأخذت أدعوه في رفق ، وكأنه كان  
نائماً فانتهبه وقال : ها أنت ذا قد أقبلت ، لقد أرسلت أدعوك  
وكنت أخشى أن أفارق هذه الحياة قبل أن أراك ، فهل جاءك رسولي؟

قلت من رسولك؟ قال : بر يبيش قلت : هذا اسم لم أسمعه من قبل ،  
قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدد  
ويتكلم لا تينية سيسرون ، فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كما احتجت  
إلى شيء ، شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة وإخلاصاً ونصحاً ،  
وأعلم أنه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضى حاجاتهم ،  
لا يجد في ذلك مشقة ولا عسراً ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى  
تقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة  
الهند قبل المسيح بآلاف من السنين ، وأشرف على بناء الأهرام ،  
وأملى ما كتب فيها من طلاسم ، وأعان فيثاغورس ، ورافق أفلاطون  
في سياحته ، ولزم الحلاج وابن الفارض ومحيي الدين بن العربي ،  
وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لا بد من أن تسيحها في  
الأرض ، فأنت مضطر إلى زيارة البيئات الصوفية في بغداد والقاهرة  
وتلسان وفارس ، على أنى مؤد إليك أمانة يتناقلها زعماء الصوفية  
ويتوارثونها وهي لهم نافعة فخذها فأنت زعيم الصوفية بعدى .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب أشبه شيء  
بعباب النشوق التي يعطنهما الشيوخ في مصر وقال : احتفظ بها ولا  
تفتحها إلا حين يطاب ذلك إليك صديقنا بر يبيش ، واحفظ عني  
هاتين الصيغتين تستقبل بأولاهما النهار وبآخرهما المساء ما حبيت ،

ثم همس بالصيغتين في أذني علي أنهما سر لا يباح إلا للزعيم . وماهى بعد ذلك إلا أن اضطرب جسمه اضطراباً شديداً ثم هدأ وقد فارقتة الحياة ، وإذا برييش قد ظهر في الغرفة ، وقال في هدوء ، انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لأهله فليس لك به شأن فخرجت وهنا يصف ديكارت حزنه على صاحبه في عبارات مؤثرة حقاً ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلا دع حزن ديكارت ولأنتم ما أنا فيه من ذكر حياته الغربية

أصبح ديكارت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيغة التي أداها إليه دروكل كيبس . وما كاد يستقر في موقده حتى جاءه برييش فقال : ما أنت وهذا الموقد ، وما أنت والكتابة والتفكير ؟ هلم إلى سياحتك . قال ديكارت لبرييش : ولكني لم أعد لهذه السياحة شيئاً ، فدعني أدبر أمري . قال برييش : ومتى دبر الصوفية لأنفسهم أمراً ! قم فانطلق معي ، ومضى في الجو قريباً من الأرض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، وإذا جرة ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلاً ديكارت . قال برييش . امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات . ففعل ، وإذا الجرة تصعد به في الجو حتى أشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية في الجو لا تلوى على شيء ، والطائر مواز لها يمضي في

رفق ويتلوفى إعجاب خطبة من خطب سيسرون التي ألقاها في مجلس الشيوخ الروماني يعنف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا على هذا النحو ساعات ، وإذا برييش يقول لصاحبه : انظر إلى الأرض ، فينظر فلا يرى إلا أمواجاً تلتطم وتصطخب ، فيسأل صاحبه أين نحن ؟ فيجيبه : نحن نعبث البحر إلى الاسكندرية . وانتصف النهار ، أحس فيلسوفنا الجوع والظما ، فيسأل الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال برييش : والعلبة التي أهداها إليك أمس دروكل ككيس أين هي ؟ هي معي . إذن فأخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه إلا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محببة مصفقة ، وإذا فتيان وفتيات قد أقبلوا إليها من الجو مسرعين ، وإذا هي تأمرهم بلغة لا يفهمها ديكارت فيسائل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيبه : هي اللغة السريانية التي لا بد لك من أن تتعلمها بعد حين . وما هي إلا لحظات حتى وقفت الجرة في الجو لا تتقدم ولا تتأخر ، ونصبت أمامها في الجو مائدة فخمة صفت عليها الصحاف والأكواب من الذهب والفضة ، وقدمت عليها ألوان من الطعام لا عهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها في الفم وموقعها في المعدة ، فأكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح

بأنغام لذيذة حلوة ، حتى إذا تم له من ذلك ما شهى رفعت المائدة ،  
واستخفى كل شيء ، ، وأقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة في ظرف  
وخفة : والآن فأدخلني علبتي ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفي  
فيها ، وتستأنف الجرة سيرها في الجو . ويأخذ برييش في قراءة لخطبة  
التاج التي ألقاها ديموستين على الأتنيين محالاً مستنبطاً أسرار  
البلاغة اليونانية . فإذا سأله ديكارت عن حبه اللاتينية واليونانية  
قال : أنا موكل بالأدب أحبه وأنفق فيه حياتي ، ولست أوتر أدباً على  
أدب ، وإنما أحيط بالأدب كلها . وأنت تعلم أن الأديب يجب أن  
يلم من كل شيء بطرف ، قال ذلك أدباء العرب وسيقوله في آخر  
الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . وإذا كنت قد تلوت عليك  
خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لأنك تعرف اللغة اللاتينية  
واليونانية . وسأتلو عليك غداً قصيدة عربية وضعها رجل يقال له  
خلف الأحمر ، ونسبها إلى شاعر يقال له النابغة الذبياني ، وهي قصيدة  
جيدة لا يشك سامعها في أنها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشيء  
كثير منها على قواعد النحو العربي . قال ديكارت : وأي فائدة  
في تلاوة هذه القصيدة أو غيرها من الشعر العربي ، وأنا أجهل لغة  
الحلاج ، ولا أستطيع أن أقرأ هذا الكتاب القيم كتاب الطواسين  
إلا في هذه الترجمة اللاتينية التي نشرت في القرن الثالث عشر والتي

أرجح أمها لا تخلو من خطأ . قال برييش : ستعرف اللغة العربية وتتقنها إذا أمسيت ، فليس يباح لك أن تدخل بلداً دون أن تعرف لغة أهله ، وإذا كنت ستزور أطراف الأرض كلها فستعرف لغات الناس جميعاً ، قال ديكرت : ومن لي بذلك ؟ قال برييش : أنا لك به ، انظر إلى هذه العلبة الصغيرة ، أنها تحتوى اللغات جميعاً ، فيها أقراص تشبه أقراص النعناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فاذا أشرفنا على البلاد العربية فسأدفع إليك قرص اللغة العربية تزدرده ، فاذا أنت أقدر الناس على أن تنشئ وتفهم وتنقد ما ينسب إلى امرئ القيس من شعر ، وما يضاف إلى تأبط شرأ من سخف ، وما يحكى عن قس بن ساعدة من وعظ وإرشاد ، وإذا أنت من أقدر الناس على مناقشة سيويو والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكرت حتى إذا مالت الشمس إلى الغروب نظر فاذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجاً : قال لصاحبه : ماهذه المدينة ؟ قال : هي مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد احمد البدوي ، فازدرد هذا القرص ففعل . وقال برييش كلمات هوت لها الجرة إلى الأرض ، ونظر ديكرت فاذا هو واقف على قدميه . قال له برييش ضع هذه القلنسوة على رأسك لتستخفي عن أعين الناس ، ففعل ، ومضى مع

صاحبه يزور المولد ويجلس في كل خيمة لحظة ثم دخلا المسجد  
واختلطوا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين

وعلى هذا النحو الذي يفصله ديكارت تفصيلا ممتعا قضى  
صاحبنا سنتين كاملتين مطوفاً في أقطار الشرق الاسلامي كله متقناً  
لغاتها وعاداتها ، ذاكراً مع الذاكرين ، متبياً مع المتيمين ، دائراً مع  
الدائرين ، ياتهم النار حيناً ويتلع الزجاج آخر ، وينتطق بالحيات  
والأفاعي ، ويمشي على الماء ويطيير في السماء ويوزر الجن في الأرض  
السابعة ، والملائكة في السماء الرابعة ، حتى إذا قضى من هذا كله وطراً  
وعلم من أسرار الكون ما يضمه الشرق وحده ، عاد إلى هولاندا  
فمكث في موقده أشهراً يكتب ويفكر ويقدم ويأتيه برييش كل  
مساء فيقضى عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جاءه ذات يوم فقال :  
أحسب أنك قد أحببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا  
بد لك من رحلة أخرى ليست أقل مشقة ولا نفعاً من رحلتك الأولى  
فقم على اسم الله . قال ديكارت : ألا تنتظر إشراق النهار ؟ قال :  
كلا ، وما أنت والنهار والليل ؟ الجرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات  
السفر وعلبتى كفيلة بتعلم اللغات ، وسأتلو عليك في هذه الرحلة آيات  
ألمانية وروسية لم تظهر بعد ، لأن أصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون  
وسيحدثون هذه الآيات فيعجب بها الناس ، سأتلو عليك ما سيحدثه

جوت وهنرى هين وتلستوى وغيرهم من أعلام الشعر والنثر والفلسفة  
فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك  
كتاباً يكتبه بعد سنين يهودى يتأثر بمذهبك اسمه سبينوزا سيكتب  
فى الأخلاق والفلسفة متأثراً بهذا الكلام الفارغ الذى تكتبه  
للناس فى أوقات الفراغ . وسيظن أنه وصل إلى الحق وسيلقى من  
الناس إكباراً واحتقاراً . وقد استصحبت كتاباً شرقياً عربياً سيظهر  
فى الربع الأول من القرن العشرين فى مدينة القاهرة ، وهو كلام  
فارغ ككلامك هذا الذى تنشره على الناس ، واسمه يدل على أنه  
فارغ وهو كتاب « فى أوقات الفراغ » الذى سينشره على الناس  
كاتب ظريف مفكر يجد حيناً ويعبت أحياناً ، أديب ولكنه يجب  
السياسة ويرشح نفسه للانتخاب فى مجلس النواب ، واسمه محمد حسين  
هيكل . فأنت ترى أن رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين أتلو  
عليك كتاباً باللغة العربية سيضهه مصرى فى القرن التاسع عشر  
يقال له الشيخ محمد عبده ويترجمه فى القرن العشرين عالمان يقال  
لأحدهما مصطفى عبد الرازق وللآخر برنار ميشيل ، وسترى أن  
هذا الشيخ المصرى المسلم متأثر متأثراً تاماً بنفسفتك هذه الفارغة التى  
تفسد بها عقول الناس ، وتنشئ لهم بها علما جديداً ، سيمكنهم من  
استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود إلى السماء . قم بنا .

فقاما وامتطى فيلسوفنا جرتة ومضيا نحو الشمال . واستمرا في رحلتها أيا ما وليالى متنقلين من أدب إلى أدب ، ومن فن إلى فن حتى استقبلها في صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف إلى قمته قال ديكارت : أين نحن ؟ قال برييش نحن في أقصى الأرض من ناحيتها الشمالية ، وهذا الجبل الذى تراه هو سورها الذى يأخذها من جميع أطرافها . قال ديكارت مصفقا : هذا جبل قاف ؟ قال برييش نعم هو جبل قاف . قال ديكارت . ليس وراءه إلا الماء الذى لا حد له طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً ، والذى لا يحيا فيه شيء ، قال برييش أخطأت فسترى أن فى هذا الماء حياة وأحياء . قال ديكارت : ما ذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال برييش : وما جئت بك إلا لنقتحمه . إن من ورائه قوما ينتظرونك لتنشر فيهم الدعوة إلى الحق ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، دع هذه الجرة فهى لا تغنى عنك شيئاً . قال ديكارت . وكيف تصعد فى هذا الجبل ؟ قال برييش : أترى إلى هذا السحاب المترام ستهبط منه سحابة تحملنا إلى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا شئ ، أشبه بعربة من الذهب الخالص ، فيه وسائل من الحرير والاستبرق ، وأكواب ملى ، بعضها من الشاي وبعضها من القهوة ، وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة أرجة

يتصوع منها نشر يشبه العنبر، وفيها شيشة وجوزة، وفيها نرد  
وشطرنج ودمينو وما إلى ذلك من أدوات اللعب. جلس الفيلسوف  
ومعه برييش وأخذ في تدخين الشيشة لأنه كان قد جرب ذلك في  
دمشق فأحبه. أما برييش فأخذ يدخن الجوزة لأنه كان كثير  
الاختلاف إلى حى من أحياء القاهرة في باب الشعرية، وهناك تعلم هذا  
النحو من التدخين. وصعدت بهما السحابة في السماء حتى انتهت بهما  
إلى قمة الجبل، فهم ديكارت بالخروج فأمسكه برييش قائلاً: لا تخرج  
حتى تشرب قدحا من اللبن وكأسا من القهوة وحتى تنتشق، فكل هذه  
الأشياء من ثمرات الأرض التي نتركها، ولا بد من أن نذوقها الآن  
لنضمن لأنفسنا العودة إلى هذه الأرض أحياء أو أمواتا، فان نحن لم نفعل  
فسيقوم جبل قاف حائلا بيننا وبين الأرض آخر الدهر. شربا ودخنا  
وخرجا. فاذا طائر عظيم لا يستطيع الطرف أن يحيط به قد حلق كأنه  
ينتظر أمراً قال ديكارت: ما ذا أرى؟ قال: هذا الطائر الذي تراه هو  
بلا جوست، وهو السفينة التي يتخذها الأحياء فيما وراء جبل قاف  
لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر فسا كون معك وسترى أنه يقطع في لحظات  
ما تقطعه سفنكم في أيام، واستقر على جناح الطائر وما هي إلا لحظات  
قصار حتى هوى بهما إلى جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج  
خضر، ولكن أهلها قصار لا يتجاوز ارتفاع أحدهم شبرا، عراض يتجاوز

عرض أحدهم متراً ، وهم يضحكون أبداً ، ولهم فيما بينهم حديث  
كقصف الرعد ، وهم يدخنون ولكن بأذانهم ، يدخل الدخان في  
إحدى الأذنين فيخرج من الأخرى ، وليس لكل واحد منهم إلا  
عين واحدة قد استقرت في وسط جبهته ، وانكها ضخمة متوقدة  
يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكارت : ولكني لا أفهم شيئاً مما  
يقولون . قال برييش : هذا قرصهم فازدردده تفهم لغتهم . وأخذ  
ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال له الحجة : أأنت ترى معي أن  
هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شهاً شديداً ، قال برييش : هي أصل  
اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ  
آلاف السنين انتصرت فيها الديموقراطية على الأشراف فأجلبتهم  
عن بلادهم ، فمبروا جبل قاف ، وهناك في أرضكم أثر فيهم الجو ، فأخذ  
من عرضهم ، وزاد في طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامات كهيئات  
الناس وقاماتهم ، ومضوا في طريقهم حتى انتهوا إلى الأرض التي تسمى  
الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا إلى فقهاء  
المسلمين عن أرض تشرق فيها الشمس ستة أشهر فليس فيها ليل ،  
وتغيب عنها ستة أشهر فليس فيها نهار . وقد وضع فقهاء المسلمين  
أحكاماً فقهية لأهل هذه البلاد تمس أوقات الصلاة بنوع خاص

وقد جئت لتنشر الاسلام في هذه الأرض ، فعلم الناس كيف يؤقتون الصلاة حين تشرق الشمس ، وحين تغيب ، وامض بنا فان « قاطرينا » تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال : برييش هي ملكة هذه الجزيرة حدثها عنك وأنبأها بنبيك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك دروكل كسيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هي إذن خالدة لا تموت قال برييش : إن الخلود لم يكتب لأحد ، كل شيء هالك إلا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الأعمار . فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وإنما تعد بالآلاف . وقد ولدت قاطرينا سنة ٣٥٠٥ قبل المسيح وملوك هذه البلاد إذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبا بالعام الذي سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم أنها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الألمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان ، وهي مشوقة إلى أن تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقي لها من الدهر في عبادة وتقرب إلى الله تاركة أمر الملك لولى العهد الذي يبلغ من العمر الآن ألفي سنة ، واسمه ساباتييه بن ارايشا . ومضيا حتى انتهيا إلى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، وإذا الملكة القصيرة العريضة تنتظره مبتسمة ، وإذا هو لم يكذب يجاس إليها حتى أخذت تتحدث إليه

وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعات ففتنت فيها الملكة بفسلفة ديكارت  
فتنة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليسترىح إلا كارهة ، وأخذ  
فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويقفها في الدين والتصوف ، وهي به  
مشغوفة ، ولكن جو هذه الجزيرة لا يلائم طبيعة أهل هذه الأرض  
فقد أخذ ديكارت يلاحظ أن قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك إلى  
بريبش فقال له : ألم أنبئك أن أهل هذه البلاد حين هاجروا إلى  
أرضكم ضاقوا وطلوا حتى أصبحوا أمثالكم ؟ فأهل أرضكم إذا جاءوا  
إلى هذه البلاد قصروا وعرضوا حتى أصبحوا كغيرهم من سكانها ،  
ولكن السن كانت تقدمت بديكارت فلم يستطع أن يقاوم امتداد  
جسمه من ناحية وانكاشه من ناحية أخرى فتوفي عام ١٦٥٠

وقد وصف بريبش في كتاب أرسله إلى الحكومة الفرنسية مع  
جثة ديكارت مقدار ما أصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا  
الفيلسوف قبل أن تنتشر مذاهبه القيمة في رعيته . قال بريبش في  
آخر كتابه : « والرأى عندي ألا يسافر الزعماء الذين سيخلفون  
ديكارت إلى ما وراء جبل قاف إلا في منتصف الألف الثالث بعد  
المسيح ، ففي ذلك الوقت قد يتشابه ويتقارب ما دون الجبل وما وراءه  
بحيث يصبح طول الناس جميعاً أربعة أشبار وعرضهم أربعة أمتار ،  
وفي ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد تقدم ويستطيع الناس أن

يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ، ويصلوا إلى جزيرة نون في  
سهولة ويسر . قال برييش على أبي الموكل بهؤلاء الزعماء فلا أسمح  
لأحد منهم بزيارة قاطرنا أو ابنها سباتيه بن ارايشا إلا حين يشين  
الأوان لهذه الزيارات

\*\*\*

هذا ما أحببت أن أهديه إلى الشيخين الجليلين من حياة  
ديكارت ، وأنا أعتمد على ذكائهما في فهم فلسفته من هذا الفصل  
فلرجل نوعان من الفلسفة : أحدهما سخييف ضيف وهو الذي اعتمدت  
عليه في كتاب اشعر الجاهلي ، لأنني لست من أهل التصوف ولا  
القادرين على الشطح والنطح ، والآخر قيم ممتع خصب لذيذ يلتمس  
في كتب الحلاج ومحيي الدين بن العربي ، وفي كتاب الدياربي وشمس  
المعارف الكبرى وفي رسالة صغيرة توجد في مكتبة الأستاذ الجليل  
أحمد زكي باشا بقسم المخطوطات يقال لها « دومة في نومة »

\*\*\*

أما بعد فاني أقسم لصاحب المعالي وزير المعارف ، ولو كيانها  
وسكرتيرها العام ، وأعضاء مكتبها الفني ، وناظر دار العلوم وأساتذتها  
وظلابها لو سئل تلميذ أوروبي عن ديكارت في امتحان الشهادة  
الثانوية وجهله كما يجهله أساتذة هذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين

الشهادة التي يطلبها ، وإذن فإنا أقترح عليهم أحد أمرين : إما أن يكلفوا أحد العلماء بالقاء محاضرات في تاريخ الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع خاص ليستطيعوا أن يكونوا أدباء وأن يلموا « من كل شيء بطرف » ، وأما أن يأخذوا هذا الفصل الذي أكتبه ملخصاً فينشروه ويأخذوا الأساتذة والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغي أن يكون في مدارسنا العالية أستاذ أو طالب يجهد اسم ديكارت أو فلسفته أو أثره في هذا العصر الحديث .



## فهرس

ص

٣

مقدمة

### القسم الأول

- ١٠ من باريس : (١) في السفينة  
٢٢ (٢) ساره برنار  
٢٥ (٣) بينلوب  
٤٧ (٤) شك و يقين  
٥٣ (٥) العلم والثروة

### القسم الثاني

- ٦٢ أسبوع في بلجيكا : (١) مؤتمر العلوم التاريخية

### القسم الثالث

- ١٤٠ خواطر سائح : (١) في الطريق  
١٥٤ (٢) مدينة لورد  
١٦٤ (٣) الخيل ! الخيل !  
١٧٣ (٤) باريس  
١٨٢ (٥) في ملاهى باريس  
١٩٣ (٦) زوج ألين

ص

## القسم الرابع

بين العلم والدين

٢٠٤

## القسم الخامس

٢٤٨

بين الجد والهزل: (١) الأدب والأدباء

٢٦٤

(٢) خواطر سائح للدكتور منصور فهمي

٢٨٣

(٣) ديكارت